التراث العربي المسيحي

٦

مجموعة نصوص وأبحاث
حول إنتاج الفكر العربي المسيحيّ القديم

بإدارة المطران ناوفيطوس إدلبي
وبالتعاون مع الأب سمير خليل اليسوعي

حواشي ابن المحرومة

على كتاب

«تنقيح الأبحاث للملل الثلاث»

لابن كمّونة

حققه وقدّم له

المطران حبيب باشا

المكتبة البولسية
جونيه - ص.ب ١٢٥
لبنان

التراث العربي المسيحي
دير الملاك ميخائيل
ص.ب : ٤٤
ذوق مكايل - لبنان

المعهد البابوي الشرقي
رومة
ايطاليا

١٩٨٤

فهرس الكتاب

القسم الأول

صفحة

القسم الرابع

فهارس الحواشي

القسم الخامس

المراجع

القسم الأوّل

تمهيد

مقدّمة

خلاصة

تمهيد

في مَخْطوطَةٍ عَرَبيَّةٍ فَريدَةٍ من القَرْنِ الرابعَ عشَرَ، مُسَجَّلَةٍ تَحْتَ الرَقْمِ ١٥ من مَكْتَبَةِ الأنْجيليكا في رُومَةَ[١] ، نَقَعُ على مَجْمُوعَةٍ مِنَ الحَواشي وَضَعَها كاتِبٌ مَسيحيٌّ مِنْ مارْدِينَ، اسْمُهُ أبو الحَسَنِ بنُ المَحْرومَة، رَدًّا على مُصَنَّفٍ دينيٍّ كَتَبَهُ في القَرْنِ الثالِثَ عَشَرَ، فَيْلسوفٌ يَهوديٌّ مِنْ بَغْدادَ، اسْمُهُ سَعْدُ بْنُ مَنْصورِ بْنِ كَمُّونَة.

عُنْوانُ المُصَنَّفِ الدينيّ: «تَنْقيحُ الأَبْحاثِ لِلْمِلَلِ الثَلاثِ» وَنُشيرُ إِلَيْهِ مُلَخَّصًا بِكتابِ «التَنْقيح». وَيَشْتَمِلُ عَلى أَرْبَعَةِ أَبْوابٍ: ١ – في النُبُوَّة. ٢ – في اليَهودِيَّة. ٣ – في المَسيحيّة. ٤ – في الإسلام.

وَقَدْ نَشَرَهُ المُسْتَشْرِقُ اليَهودِيُّ مُوشي بِرْلْمانْ تَحْتَ الرَقْمِ ٦ من «مَنْشوراتِ جامِعَةِ كاليفُورنيا»[٢] وَنَقَلَهُ إلى الإِنْكِلِيزِيَّةِ[٣] مَعَ مُقَدِّمَةٍ وَتَعليقات.

أَمّا حَواشي ابنِ المَحْرومَةِ فَلَيْسَ لَها تَسْمِيَةٌ رَسْمِيَّةٌ وَنُشيرُ إِلَيها «بالحَواشي» أو «التَحْشِيَةِ»، وَهْيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ المُلاحَظاتِ مَدْمُوجَةٌ في نَصِّ «التَنْقيح»، يَتَعَرَّضُ فيها الكاتِبُ المارْدِينيُّ لِلْفَيْلَسوفِ اليَهودِيّ في بَحْثِهِ لِلدِيانَتَيْنِ اليَهودِيَّةِ والمَسيحِيَّةِ (في البابَيْنِ الثّاني والثّالِث) «دُونَ غَيْرِها مِنْ هَذا الكِتاب» على حَدِّ قَوْلِ المُعَلِّق.

---

(١) GUIDI, *Catalogo dei Codici... della Biblioteca Angelica di Roma*, Firenze 1878.

(٢) تنقيح الابحاث للملل الثلاث، من مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٦٧.

Kammuna's *Examination*, Ed. Berkeley 1967.

(٣) Kammuna's *Examination*, Tr. Berkeley 1971.

مَجْمُوعُ هَذِهِ الحَواشي مِئَةٌ وَثَلاثٌ وَثَلاثُون. سَبْعٌ وَثَمانونَ في البابِ الثاني (في اليَهُودِيَّة) وَستٌّ وَأَرْبَعُونَ في البابِ الثَّالِثِ (في المَسيحيَّة)، وَنُشيرُ إِلَيْها بِأَرْقامِها المُتَسَلْسِلَة.

وَقَدْ قامَ نَفْسُ المُسْتَشْرِقِ اليَهودِيّ مُوشي بِرْلْمانْ، في مَقالٍ لَه عَنِ ابنِ المَحْرومَةِ(٤)، بِنَشْرِ بَعْضِ نُتَفٍ مِن تَعاليقِ الكاتِبِ المارْدِينيّ. وَأَمَّا مُعْظَمُ الحَواشي فَبَقِيَ مَطوِيًّا في مَخْطُوطَةِ الأَنْجيليكا، إلى أَنْ قَدَّرَ لنا اللهُ نَشْرَها بِنَصِّها الكامِلِ في هٰذِهِ الحَلْقَةِ مِنْ سِلْسِلَةِ «التُراثِ العَرَبِيّ المَسيحِيّ».

وَها نَحْنُ نُقَدِّمُها لِلْقُرَّاءِ كامِلَةً لِأَوَّلِ مَرَةٍ، مُتَوَخّينَ بِذلِكَ الكَشْفَ عَنْ أَثَرٍ مِنْ أَنْدَرِ آثارِ الأَدَبِ الدِّفاعِيّ المَسيحِيّ، والمُساهَمَةَ في بَعْثِ حِوارٍ بَيْنَ مُتَبارِزَيْنِ طَوَتِ المَنِيَّةُ رُفاتَهُما وَبَقِيَ الفِكْرُ مِنْهُما في تَجابُهٍ نابِضٍ بِالحَياة.

وَلٰكِنَّ هَذا الأَثَرَ لا يُفْهَمُ إلا فِي قَرائِنِه. فَحَواشي ابْنِ المَحْرومَةِ رَدٌّ عَلى «التَنْقيح» في بابَيْهِ الثّاني والثّالِث. فكانَ لا بُدَّ مِنْ تَقْديمِ نَصِّ الحَواشي مَدْموجًا بِنَصِّ «التَنْقيح» في إِخْراجٍ يُؤَدّي صِيغَةَ الحِوارِ بَيْنَ الكاتِبَيْن، مَعَ مُراعاةِ مُقْتَضى التَمييزِ بَيْنَ نَصِّ الفَيْلسوفِ اليَهُودِيّ وتَعالِيقِ الكاتِبِ المَسيحِيّ.

وَكانَ مِنَ الطَبيعِيّ، قَبْلَ أَنْ نُقَدِّمَ «الحَواشي»، أَن نَتَعَرَّفَ بِصاحِبِها الكاتِبِ المارْدِينيّ، وَأَنْ نُلِمَّ «بالتَنْقيح» وَمُؤَلِّفِهِ الفَيْلَسوفِ اليَهودِيّ. فاجْتَمَعَتْ لَنا، تَمْهيدًا لِهذا الأَثَرِ الأُنُف، مادَّةٌ مُتَوافِرَةٌ قِوامُها عَرْضٌ لِسيرَةِ ابن كَمُّونَة وسيرَةِ مُناظِرِهِ ابنِ المَحْرُومَة، وما يَتَّصِلُ بِهِما مِنْ وَصْفِ بيئَتِهِا الدِّينيَّةِ وَالأَدَبيَّةِ وَتَحْليلٍ لِكُلٍّ مِنْ كِتابِ الفَيْلَسُوفِ اليَهودِيّ وَحَواشي المُعَلِّقِ المارْدِينيّ.

(٤) Ibn al-Maḥrūma, *A Christian opponent of Ibn Kammūna*, dans American Academy for Jewish Research, *H.A. Wolfson Jubilee Volume*, vol. II, Jérusalem 1965, p. 641-655.

وَقَدْ اعْتَمَدْنا لِنَصِّ «التَنْقيح» طَبْعَةَ المُسْتَشْرِقِ مُوشي بِرْلْمانْ مَعَ ما بَدا لَنا مِنْ تَصْحيحاتٍ طَفيفَةٍ عِنْدَ اقْتِضاءِ الأَمْر. واكْتَفَيْنا بالنَّصِّ المُحَقَّقِ المُدْرَجِ في مَتْنِ الكِتابِ، دُونَ التَعاليقِ المُدَوَّنَةِ في الحَواشي، وَذَلِكَ تَحاشِيًا لِلإِطالَةِ وَعِلْمًا بِأَنَّ مَنْ يَرْغَبُ في التَحقُّقِ مِن نَصِّ «التَنْقيح» يُمْكِنُهُ الرُجوعُ إِلى طَبْعَةِ مُوشي بِرْلْمانْ. وَآثَرْنا الإِبْقاءَ على الصِيغَةِ التي اعْتَمَدَها بِرْلْمانْ في طَبْعَتِهِ مِنْ حَيْثُ رَسْمُ الحُروفِ وتَشْكِيلُها.

وَأَمَّا «الحَواشي» فَقَدْ اتَّخَذْنا نَصَّها مُباشَرَةً مِن المَخْطوطَةِ الفَريدَةِ المُودَعَةِ في مَكْتَبَةِ الأَنْجيليكا في رُومَةَ، مُعْتَمِدِينَ الطَرِيقَةَ الحَديثَةَ في كِتابَةِ الهَمْزَةِ وَالأَلِفِ وَحُروفِ المَدّ، وَمُؤْثِرِينَ، في النَصّ، تَصْحيحَ الأَخْطاءِ الإِمْلائِيَّةِ والنَحوِيَّةِ وغَيْرِها معَ الإِشارَةِ في الحَواشي إلى مَواقِعِ الخَطَأِ وَالتَصْحيف.

وَلا يَسَعُنا، ختامًا، إِلَّا أَنْ نَشْكُرَ لله عَوْنَهُ، وَلِجَميعِ مَنْ آزرونا في هَذا العَمَلِ نُصْحَهُمْ وَمُسانَدَتَهُمْ(٥)، آمِلينَ أَن يَأْتِيَ مَجْهُودُنا هَذا بالثِمارِ المُرْتَقَبَةِ فَيكونَ حَجَرًا صَغيرًا في بِناءِ التَقارُبِ بَيْنَ الأَدْيانِ، وَخُطْوَةً مُتَواضِعَةً في مَسيرَةِ الشُعوبِ شَطْرَ التَفاهُمِ والتَعاوُن.

(٥) نخص بالشكر والثناء حضرة الدكتور حكمت حمصي من جامعة حلب الذي تولّى فهرسة اسماء الأعلام والأماكن والأقوام والملل وأهم المفردات الواردة في حواشي ابن المحرومة.

مقدمة

سعد بن منصور بن كمونة

أ – حياته

في أواخرِ سَنَةِ ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م، وَقَعَ في بَغْدادَ واقِعَةٌ أَتى على ذِكْرِها كِتابٌ عُرِفَ خطأً «بالحَوادِثِ الجامِعَةِ والتَجارِبِ النَّافِعَةِ في المِئَةِ السَّابِعَةِ»[1] كتَبَ صاحِبُ «الحوادث»:

«سَنَة ٦٨٣ وفيها اشْتَهَرَ في بَغْدادَ أَنَّ عِزَّالدَّوْلَةِ بْنَ كَمُّونَة اليَهودي، صَنَّفَ كِتابا سَمَّاهُ «الأَبْحاثَ عَنِ المِلَلِ الثَّلاث» تَعَرَّضَ فيه بِذِكْرِ النُّبُوَّاتِ وقالَ ما نَعوذُ باللهِ من ذِكْرِه. فثَارَ العَوامُّ وهاجُوا، واجْتَمَعوا لِكَبْسِ دارِهِ وَقَتْلِه. فَرَكِبَ الأَميرُ تِمِسْكاي، شِحْنَةُ العِراق، وَمَجْدُ الدّينِ بنُ الأَثيرِ وَجَماعَةُ الحُكَّامِ إلى المُسْتَنْصِرِيَّةِ، واسْتَدْعَوا قاضِيَ القُضاةِ والمُدَرّسينَ لِتَحْقيقِ هذا. وَطَلَبوا ابْنَ كَمّونَةَ فاختَفَى. واتَّفَقَ ذَلِكَ اليومُ يَوْمَ جُمْعَة. فَرَكِبَ قاضِي القُضاةِ لِلصَّلاةِ فَمَنَعَهُ العَوامُّ فَعادَ إلى المُسْتَنْصِرِيَّة. فَخَرَجَ

---

١) نشرَ هذا الكتابَ السيدُ مصطفى جواد سنة ١٩٣٢ في بغداد، ونسبه الى ابن الفُوَطي (انظر حاشيتنا ٣)، متَّبعا في ذلك رأيَ الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف (مجلة العرفان ١٩٢٦، ص ٦٢٥)، والسيد يعقوب نعوم سركيس البغدادي. الا ان السيد جواد عاد وتراجع عن رأيه في مقاله عن ابن الفُوَطي، المُدْرج في دائرة المعارف (مجلد٣، بيروت ١٩٦٠، ص٤٣٦–٤٦٠). وقد دفعه «حبُّ الحقيقة التاريخية» – كما قال – إلى الاقرار بان المصنَّف المنشور في بغداد سنة ١٩٣٢، ليس هو «الحوادث الجامعة» المعروف لابن الفوطي، وإنما هو كتاب غفل لا بد من الاستمرار في البحث عن صاحبه.

ابنُ الأثيرِ ليُسَكِّنَ العَوامَّ، فَأَسْمَعُوهُ قبيحَ الكَلام، وَنَسَبوهُ إلى التَعَصُّبِ لابنِ كَمُّونَةَ والذَّبِّ عَنْهُ. فَأَمَرَ الشِّحْنَةُ بالنِداءِ في بَغْدادَ بالمُباكَرَةِ في غدٍ إلى ظاهِرِ السُّورِ لإحْراقِ ابنِ كَمُّونَة. فسَكَنَ العَوامُّ وَلَمْ يَتَجَدَّدْ بَعْدَ ذَلِكَ لَهُ ذِكْرٌ. وَأَمَّا ابنُ كَمُّونَةَ، فإنَّه وُضِعَ في صُنْدوقٍ مُجَلَّدٍ وحُمِلَ إلى الحِلَّة. وكانَ وَلَدُه كاتِبًا بها، فَأَقامَ أَيَّامًا وَتُوفِّيَ هُناك»[٢].

سَعْدُ بنُ مَنْصورِ بنُ كَمُّونَةَ هذا، نَجِدُ له ذِكْرًا آخَرَ في كِتابِ «تَلْخيصِ مَجْمَعِ الآدابِ في مُعْجَمِ الأَسْماءِ والأَلْقابِ» لِكَمالِ الدّينِ أَبي الفَضْلِ ابنِ الفُوَطِيِّ[٣]:

«عِزُّ الدَوْلَةِ أبو الرِّضا سَعْدُ بنُ نَجْمِ الدَّوْلَةِ مَنْصورِ بنِ سَعْدِ بْنِ الحَسَنِ بن هِبَةِ اللهِ بْنِ كَمُّونَةَ الإسْرائيليُّ البَغْداديُّ الحَكيمُ الأَديب. كانَ عالِمًا بالقَواعِدِ الحَكيمَةِ والقَوانينِ المَنْطِقيَّةِ، مُبَرِّزًا في فُنونِ الآدابِ وعُيُونِ النُكَتِ الرِّياضِيَّةِ والحِساب. شَرَحَ كِتابَ «الإشاراتِ» لأَبي عليّ بنِ سينا، وقَصَدَهُ الناسُ للاقتباسِ مِن فوائِدِهِ، وَلَمْ يَتَّفِقْ لِيَ الاجْتِماعُ بِخِدْمَتِهِ، لِلْمَرَضِ الذي عَرَضَ لي، وَكَتَبْتُ إلى خِدْمَتِهِ أَلْتَمِسُ شَيْئًا مِنْ فَوائِدِهِ لأُطَرِّزَ بها كِتابي، فَكَتَبَ لي مع صاحِبِنا وصَديقِنا شَمسِ الدّينِ مُحَمَّدِ بن أبي الرَّبيعِ الحاسِبِ المَعْروفِ بالحَشَفِ سَنَةَ ثَلاثٍ وثَمانينَ وسِتّمائَة:

٢) الحوادث الجامعة، ص ٤٤١ – ٤٤٢.

٣) التلخيص ٤ /١، دمشق ١٩٦٢، ص ١٥٩ – ١٦١. وابن الفُوَطي من المؤرّخين المعروفين. وُلد في بغداد سنة ١٢٤٤، وهو من نوابغ العراق في صدر القرن الثالثَ عشر، ساهم في كثير من المعارف والفنون وبخاصة في التاريخ والأنساب، فكان له فيها إبداعٌ وابتكار. وقد أحسن اليه نصير الدين الطُوسي، فوكل اليه مباشرةَ خِزانة الرَصْد في مَراغَة، ثم خزانة كتب المستنصرية في بغداد. من أهم مؤلفاته «تلخيص مجمع الاداب في معجم الأسماء والألقاب» «والحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة» الذي لم يعثر عليه بعد، حسب رأي السيد مصطفى جواد.

صُنِ العِلْمَ عَنْ أَهْلِ الجَهالَةِ دائِمًا … ولا تُولِهِ مَنْ لا يَكونُ لَه أَهْلا
فَيُورِثَه كِبْرًا وَمَقْتًا وشِرَّةً … وَيَقْلِبَه النُقْصانُ مِنْ عَقْلِهِ جَهْلا
فكُنْ أَبَدًا مِن صَوْنِهِ عَنْهُ جاهِدًا … ولا تَطْلُبَنَّ الفَضْلَ مِن جاهِلٍ أَصْلا

«تُوفِّيَ بالحِلَّةِ سَنَةَ ثَلاثٍ وثَمانينَ وَسِتِّمائَة».

وجاءَ أَيْضًا في حاشِيَةٍ للدُكْتور مُصْطَفى جَواد، مُدْرَجَةٍ في الطَبْعَةِ الحَديثَةِ لِكِتابِ «التَلْخيص» لابْنِ الفُوَطي:

«ابنُ كَمُّونَةَ مِن الحُكَماءِ المَشْهورينَ والمُتَفَلْسِفينَ المَذْكُورينَ اشْتَهَرَ بِشُبْهَةٍ في عِلْمِ الكَلامِ تَمَسُّ الدِّينَ، وهي: «لِمَ لا يَجوزُ أَنْ تَكونَ هُوِيَّتانِ بَسيطتانِ مَجْهُولَتا الكُنْهِ مُخْتَلِفَتانِ بِتَمامِ الماهِيَّةِ يَكونُ كُلٌّ مِنْهُما واجِبَ الوُجودِ بذاتِه، وَيَكونُ مَفْهومُ واجِبِ الوُجودِ مُنْتَزَعًا مِنْهُما، مَقولاً عَلَيْهِما قَوْلاً عَرَضِيًّا». وَهَذا تَعَرُّضٌ بِقَولِ المُتَكَلِّمينَ: «إنَّ واجِبَ الوُجودِ أَحَدِيُّ الذّاتِ مِنْ جَميعِ الجِهات»[٤].

مِنْ هَذِهِ الوَثائِقِ التاريخيَّةِ الثَّلاثِ، وَمِنْ نُتَفٍ أُخرى مَنْثورةٍ هُنا وهُناكَ في مُقَدِّماتِ الآثارِ المَخْطُوطَةِ لابْنِ كَمُّونَةَ يُمكِنُ تَكوينُ مَلامِحِ الرَجُل: فَهُوَ يَهوديٌّ مِن بَغْدادَ سَليلُ أُسْرَةٍ عَريقَةٍ شَريفة، أديبٌ وفَيلسوفٌ وطَبيب، مُتَضَلِّعٌ من العُلومِ والرِّياضِيّات، عاشَ في القَرْنِ الثالِثَ عشَرَ، أَيّامَ حُكْمِ المَغول، في بيئَةِ الأَشْرافِ والحُكّام، مَحفوفًا بالاحتِرامِ والتَبْجيلِ والشُهْرَة، فَهُوَ «الشَيْخُ المُعَظَّمُ، والحَكيمُ المُقَدَّمُ، قُدْوَةُ الحُكَماءِ اليَهودِيّين»[٥] وهو «الشَيْخُ الفاضِلُ المُؤَيَّدُ في مَطالِبِهِ، مُشيدُ

٤) التخليص ٤ /١، ص ١٥٩ – ١٦١، حاشية

٥) رسالة في بقاء النفس (ختام الرسالة) L. Nemoy, *The arabic Treatise on the immortality of the soul,* Facsimile reproduction, New-Haven, Yale University Library, 1944. Voir aussi: Traduction du précédent dans *Ignaz Goldziher Mémorial* Volume 2, Jérusalem 1958, p. 85-99.

حُجَجِ المُحْدَثِينَ ومُرْشِدُ فِرَقِ الباحِثِين»(٦) بل هو «أَوْحَدُ عَصْرِهِ وَفَرِيدُ دَهْرِه»(٧) «وعَلاَّمَةُ العِراقَيْن»(٨).

ب – مؤلَّفاته

لابن كَمُّونَةَ مُؤَلَّفاتٌ كَثيرَةٌ بَعْضُها عِلْمِيٌّ وَمُعْظَمُها فَلْسَفِيٌّ وَكَلامِيٌّ. المَعْروفُ مِن مُصَنَّفاتِهِ العِلْمِيَّة:

١ – تَذْكِرَةٌ في الكِيمِياء

٢ – الكافي الكبيرُ في الكُحْل: وَقَدْ ذَكَرَهُ صَدَقَةُ بن إبراهِيمَ المِصْرِيُّ الحَنَفِيُّ الشاذِلِيُّ في مَوْسوعَتِهِ «عُمْدَةُ الكُحْلِيَّةِ في الأَمراضِ البَصَرِيَّة»(٩)، في طَليعَةِ الكُتُبِ المَعْنِيَّةِ بِهذا الشَّأن.

أَمَّا مُعْظَمُ نتاجِهِ الفِكْرِيّ، فهو في حَيِّزِ الفَلْسَفَة، شَرْحًا وَتَأْليفًا، ومِن أَهَمِّ مُصَنَّفاتِهِ:

٣ – الحِكْمَةُ الجَدِيدَةُ في المَنْطِق (٦٧٦ هـ/١٢٧٧م)

٤ – شَرْحُ الأُصولِ وَالجُمَلِ من مُهِمَّاتِ العِلْمِ والعَمَل: وهو تَعليقٌ على كِتابِ

٦) تنقيح، ص ١٠٩.

٧) مقدمة كتاب «القرائين والربانيين». cf. H. Hirschfeld, *Arabic Chrestomatie in Hebrew Characters*, London 1892, p. 69 (2).

٨) راجع D. H. Baneth, in MGWJ, vol. 69 (1925) p. 308.

٩) حاجي خليفة، كشف الظنون ٤، ليبزيغ ١٨٣٥، ص ٢٦٥، رقم ٨٣٤٤، راجع أيضًا. V. Rosen, *Les manuscrits arabes de l'Institut des langues orientales*, St. Pétersbourg 1878, p. 101 nº 175.

ابنِ سينا «الإشاراتُ والتَنبيهات»(١٠). وقد خَتَمَهُ ابنُ كَمُّونَة بقَوْلِه: «هذا ما تَيَسَّرَ على حُكْمِ العَجَلَةِ في أوقاتٍ مُخْتَلَسَةٍ من الشواغِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ من غَيْرِ مُعاوَدَةِ تَنْقيحٍ ولا مُراجَعَةِ تَهْذيب». وقد يَكونُ هَذا الكتابُ آخِرَ مُؤَلَّفاتِ ابنِ كَمُّونَة.

٥ – رسالةٌ في بَقاءِ النَّفْس: وَهو كِتابٌ فَلْسَفِيٌّ يَعْتَمِدُ البراهينَ العَقْلِيَّةَ دون النَقْلِيَّة، وَيُؤَكِّدُ الكاتِبُ أَنَّهُ اسْتَنْبَطَها بذاتِهِ ولم يَسْبِقْه إليها غَيْرُه(١١).

٦ – التَنْقيحاتُ في شَرْحِ التَلْويحات: وهو شَرْحٌ لكِتابِ السُّهْرَوَرْدِيّ: «تَلويحات في المَنْطِقِ والحِكْمَة». والسُّهْرَوَرْدِيُّ المُلَقَّبُ بالمَقْتول (+ ٥٧٩ هـ/١١٩١م) هو، في نَظَرِ لويس ماسِّيْنيون، «آخِرُ الصُوفِيِّينَ غَيْرِ الحُلولِيِّينَ في الإِسْلام»(١٢).

٧ – مُراسَلات: مَجْموعَةٌ مِن الرَّسائِلِ من ابنِ كَمُّونَة إلى «عَلَّامةِ العالَم، مَلِكِ العُلَماء، قُدْوَةِ الفُضَلاء... مُفْتِي القَرْن، جامِعِ العُلوم، نَجْمِ الدَّوْلَةِ والحَقِّ والدِّين...» وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ نَجْمَ الدِّينِ هذا هو أَحْمَدُ بنُ عُمَرَ القَزْوِينِيُّ الكاتِبِيُّ دَبيران (+ ٦٧٥ هـ/١٢٧٦م) أَحَدُ تَلامِذَةِ الطُّوسِيّ(١٣).

١٠) «ألفه [ابن كمونة] لِوَلَدِ شمس الدين صاحب ديوان الممالك ممزوجا، أتى فيه بجميع الفاظ الرئيس (ابن سينا) من غير إخلالٍ إلا بمَا هو لضرورة اندراج الكلام. ومزج ما التَقَطَه من كتب الحكماء ومن شرح العلّامة نصير الدين (الطوسي) وما استنبطه بفكره، مزجا غير مُمَيَّز، فصار كتابا كالشرح للإشارات» (حاجي خليفة، كشف الظنون الجزء ١، ص ٣٠٣، رقم ٧٤٣).

١١) L. Nemoy, *op. cit.* راجع أيضًا للمؤلف نفسه، الترجمة الانكليزية للرسالة في *Ignaz Goldziher Mémorial*, volume 2, Jérusalem 1958, p. 83-99.

١٢) L. Massignon, *Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane*, Paris 1954, p. 61, nº 7. راجع ايضا Steinschneider, *Die ar. lit. der Juden, Frankfurt 1902, p. 240, nº 5.*

١٣) من المستبعد جدا ان يكون ابن كمونه قد وجّه هذه الرسائل الى ابنه، كما يتوهم موشي برلمان في المقدمة التي وضعها لكتاب التنقيح، ص XII راجع *Brockelmann, G A L SI*, p. 769, nº 9.

٨–**رسالَةٌ في العَقْلِيّات**: وهو كِتابٌ مجهول العُنْوان، غَرَضُهُ «ذِكْرُ مُهِمّاتِ العَقائِدِ والأَعْمال». وَيقولُ المُؤَلِّفُ في مُقَدِّمَتِهِ: «أَكْثَرُهُ مُلْتَقَطٌ من كَلامِ مَنْ تقدّم. إنّما الأقلُّ النَزْرُ مِنْهُ هُو الذي أَدْرَكْتُهُ بِفِكْري أَو سَنَحَ لِخاطِري...» وَيَعْتَرِفُ فيهِ بالتَّقْصيرِ «وَقِلَّةِ البِضاعَةِ مِنَ العِلْم»[١٤].

وأما مُؤَلَّفاته الكَلامِيَّةُ فالمَعْروفُ مِنها ثَلاثَة:

٩ – **فَوائِدُ من تَلْخيصِ المُحَصَّل**: وهو مَجْمُوعَةُ مُقْتَطَفاتٍ من «تَلخيصِ المُحَصَّلِ» لِنَصيرِ الدّينِ الطُوسِيّ (١٢٠١ – ١٢٧٤م) «والمُحَصَّل» كِتابٌ لِفَخْرِ الدّينِ الرازِيّ وَصَفَهُ الطُّوسِيُّ بِأَنَّ «اسْمَه غَيْرُ مُطابِقٍ لِمَعْناه»[١٥].

١٠ – **كِتابُ الرَّبانِيّينَ والقَرّائِيّين**: وهو كِتابٌ غُفْلٌ اخْتُلِفَ في نِسْبَتِهِ إلى ابنِ كَمُّونَة، وَيَتَمَيَّزُ بالنَزْعَةِ التَوفيقِيَّةِ الَّتي اتَّصَفَ بِها هَذا الكاتِب[١٦].

١١ – **تَنْقيحُ الأَبْحاثِ لِلْمِلَلِ الثَّلاث**: وَسَوْفَ نُعَرِّفُ به مُسْهَبًا فيمَا بَعْد.

ج – مذهبه

يَبقى سُؤالٌ مَطْروحٌ في شَأْنِ ابنِ كَمُّونَة: هذا الكاتِبُ الذي تُجْمِعُ الوَثائِقُ التَارِيخيَّةُ على تَسْمِيَتِهِ «باليَهُودِيِّ» و«الإِسْرائِيليّ»، هَلِ ارْتَدَّ إلى الإِسْلام؟

(١٤) هذا المصنف هو الجزء الأول من مخطوطة طهران رقم ٥٩٣، وهي تحتوي ايضا في جزئها الثالث نص «التنقيح» وفي جزئها الرابع نص «افحام اليهود» لسموأل المغربي. راجع أيضًا:
Brockelmann, *GAL SI*, p. 769, n° 8.

(١٥) حاجي خليفة/٥، ص ٤٢٢، رقم ١١٥٣٧؛ راجع أيضًا:
Brockelmann, *GAL SI*, p. 769, n° 4.

(١٦) نشره Hartwig Hirschfeld أخذا عن مخطوطة برلين رقم ٢٥٦ التي تحتوي ايضا نص التنقيح لابن كمونة: *Arab. Chrestomatie in Hebrew Characters*, London 1892, p. 69 - 103.
راجع أيضًا برلمان، تنقيح، ص XII

هُناكَ مِنَ المُؤَرِّخينَ والباحِثينَ مَنْ يَظُنُّ ذَلِكَ[١٧]، اسْتِنادًا إلى عباراتِ التَبْجيلِ التي يَسْتَعْمِلُها المُسْلِمونَ عِنْدَ ذِكْرِهِم لِنَبِيِّ الإِسْلام، والتي نَجِدُها في كتابِ «التَنْقيح» وَفي كُتُبٍ أُخْرى مِن مُؤَلَّفاتِ ابنِ كَمُّونَة[١٨].

وَمِنْهُم مَنْ يَذْهَبُ إلى أنَّ ابن كَمُّونَة إنما ارْتَدَّ ظاهِرًا إلى الإِسْلام، بِدافِعِ الخَوْفِ أَو التَقِيَّةِ أَو الانْتِهازِيّة. ولكِنَّنا نَرى، مع د.هـ. بانيث[١٩] في تَحليلِهِ الدَّقيقِ لِنَصِّ «التَنْقيحِ»، أَنَّهُ «مِنَ المُسْتَحيلِ أَن يَكونَ قَدْ وَضَعَ هذا الكِتابَ إِنْسانٌ مُعْتَنِقٌ للدِّينِ الإِسْلامِيِّ وَلَوْ ظاهِرا». فالتَنْقيحُ بالرّغم مِمّا يَدَّعيهِ مِنْ بُغْيَةِ الإِنْصافِ والحِيادِ، يَبدو له «كِتابَ طَعْنٍ في الإِسْلام، أَكْثَرَ مِنْهُ كِتابَ دِفاعٍ عَنِ اليَهودِيّة»[٢٠].

والواقِعُ أَنَّ ابْنَ كَمُّونَة، في مَوْضِعَيْن من كِتابِهِ، يُوردُ بتَهَكُّمٍ الدَّوافِعَ النَفْسِيَّةَ

(١٧) من هؤلاء:
- M. Steinschneider. *Pol, u. ap. lit.*, Leipzig 1877, p. 39
Die. ar. lit. der Jud., Frankfurt 1902, p. 289.
- G. Brockelmann, *GAL SI*, p. 768
- Neubauer, *Cat. of the Heb. Manus. Bodl Libr.* Oxford 1886, p. 453, n° 1281
- Uri, *Cat. of the Manus. Bodl. Libr.* Pars I. Oxonioe 1878, p.66, n° CCCLXI.
- G. Vajda, *Arabica*, vol. IX (1962), p. 392: «Quelques personnalités intellectuelles marquantes comme les philosophes Hibat Allah Abu-l-Barakāt et Ibn Kammuna qui ont, d'ailleurs, au déclin de leur carrière, payé un tribut aux circonstances adverses, plutôt qu'à une conviction intime, en se convertissant à l'Islam».

(١٨) نجد في مستهل الرسالة في بقاء النفس: «والصلاة على ملائكته المقربين وأنبيائه وأوليائه اجمعين وخصوصا على محمد وآله الطاهرين» ص ١ L. Nemoy
وكذلك في مطلع الرسالة في العقليات: «وصلواته على ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وأوليائه المُخْلِصين، وخصوصا على محمد وآله الطاهرين» (مخطوطة طهران ٥٩٣(١)). اما التنقيح فنجد في مطلعه: «وخصوصا على رسوله المصطفى» (تنقيح ص ١)، وفي ختامه، في المخطوطات العبرية: «وخصوصا على محمد وآله الطاهرين».

(١٩) D. H. Baneth, *Ibn Kammuna*, MGWI 69 (1925), p. 295-311.

(٢٠) ذات المرجع ص ٣٠٤

والضُغوطَ المُجْتَمَعِيَّةَ التي تَدْفَعُ بِمَريضي النُفوسِ إلى انْتِحالِ الإسْلامِ بِظاهِرِه، «كَكَثيرٍ مِمَّنْ نجدُهُ في زَمانِنا يَدْخُلُ في دِينِ الإسْلامِ لِيَسْتَظْهِرَ بِذَلِكَ على الأَقْرانِ ويَصيرَ بِطَبْعِهِ مائِلاً إلى نُصْرَةِ ذَلِكَ الدِينِ، مَعَ كَونِهِ لا يَكونُ مُؤْمِنًا بِهِ في الباطِنِ...»(٢١).

وَيَقولُ ابنُ كَمُّونَة، في مَوضِعٍ آخَرَ من كتابِ التَّنْقيح: «ولهذا لا نرى أحدًا إلى اليَوْمِ يَدْخُلُ في الإسلامِ إلّا أن يكونَ عَليهِ خَوفٌ أو في طَلَبِ العِزّ، أو يُؤْخَذَ في خَراجٍ ثَقيل، أو يَهْرُبَ من الذُّلّ، أو يُؤْخَذَ في سَبْيٍ، أو يَعْشَقَ مُسْلِمَةً أو ما أَشْبَهَ ذلك. ولم نَرَ رَجُلاً عالِمًا بدِينِهِ وبدِينِ الإسْلامِ، هُوَ عَزيزٌ موسِرٌ مُتَدَيِّنٌ، انْتَقَلَ إلى دينِ الإسْلامِ بِغَيْرِ شَيْءٍ من الأَسْبابِ المَذْكورَةِ أو ما ماثَلَها»(٢٢).

إلى هذهِ الأَدِلَّةِ المُسْتَقاةِ من تَحليلِ نَصِ «التَنْقيح» يَنْضافُ دَليلُ القرائِنِ التاريخيَّة. فالوَثائِقُ التي اعْتَمَدْناها في تَكْوينِ مَعالِمِ سيرَته، تُجْمِعُ على وَصْفِهِ باليَهودي والإسْرائيلي، ولا تأتي إحْداها على ذِكْرِ اهْتدائِه إلى الإسْلام. والرُدودُ التي أثارَها «التَنْقيحُ» عِبْرَ التاريخ، وفي طَليعَتِها تَعاليقُ ابن المَحرومة على هَذا الكِتاب، تَتَصدَّى كلُّها لِلْمُصَنِّفِ «اليَهودي» وتَعْتَرِضُ على مَوْقِفِهِ المُنْحازِ وَتَعَصُّبِهِ لِلدّينِ اليَهودي(٢٣).

كلُّ هذا يَحْمِلُنا على اسْتِبْعادِ رَأْيِ القائِلينَ بارْتِدادِ ابنِ كَمُّونَةَ إلى دينِ الإسْلامِ، باطِنًا أَو ظاهِرًا. لا بل نَجِدُنا أدْنى الى نَفْيِ هذا المَزْعَمِ نَفْيًا جازمًا. ولكن كَيْفَ نُعَلِّلُ

٢١) تنقيح، ص ٩٢

٢٢) تنقيح ص ١٠٢

٢٣) انظر لاحقا بحثنا في الردود على التنقيح، ص ٥٠ – ٥٢.

وُجودَ عِباراتِ التَحْميدِ لِنَبِيِّ الإسلامِ في كتابِ «التَنْقيح» وفي غَيْرِهِ من مُؤَلَّفاتِ الفَيْلسوفِ اليَهودي وبِخاصَّةٍ في مَطالِعِها وذُيولِها؟

ثَمَّةَ وجوهٌ عَديدَةٌ في تَفْسيرِ هذه الظاهِرة. فَمِنْهُم من يُسنِدُها إلى النَقَلَةِ والنُسَّاخ. ومِنْهُم من يَعْتَبِرها مُحاوَلَةً من مُحاوَلاتِ ابنِ كَمُّونَةَ للتَرْويجِ لِكِتابِهِ في الأَوْساطِ الإسْلاميَّة، مِثالُ ذلِكَ ما رواه ابنُ العِذاري في كِتابِهِ «المُغْرِبُ في أخْبارِ المَغْرِب» عَنِ الكاتِبِ اليَهودِيِّ صموئيل بنِ نَجْدَلا: «وصار يَكْتُبُ... بالعَرَبِيِّ في ما احْتاجَ إليهِ من فُصولِ التَحْميدِ للهِ والصَلاةِ على رَسوله مُحَمَّد»(٢٤).

ومِنْهُم أخيرًا من يَعْزو اسْتِعْمالَ هذهِ العِباراتِ، عِنْدَ ابنِ كَمُّونَة، إلى الانْفِتاحِ الذِهْنِيِّ والتَسامُحِ الدِّينِيِّ اللَذَيْنِ نادى بهِما بَعْضُ الفَلاسِفَةِ من أَمْثالِ الفارابي وابْنِ سينَا ونَصيرِ الدّينِ الطُوسي. فَفي نَظَرِ هَؤُلاءِ الفَلاسِفَةِ ومَن نَهَجَ نَهْجَهُم، كُلُّ الأَدْيانِ مُتَساوِيَةٌ وجَديرةٌ بالاحْتِرام، مِن حَيْثُ هِي وُجوهٌ مُخْتَلِفَةٌ وتَعابيرُ مُتَكامِلَةٌ للأَمْرِ الإلهي.

من هذا المَلْحَظ، يُصْبِحُ طَبيعيًّا ومَفْهومًا أن يُرْدِفَ ابنُ كَمُّونَةَ ذِكْرَ موسى وعيسى ومُحَمَّدٍ بعباراتِ التَقْريظِ والتحميدِ المَألوفَةِ عِنْدَ أتباعِ الأَدْيانِ الثَلاثَة، فَيُعْرِبَ بذلِكَ من جِهَةٍ عن احْتِرامِهِ لِمُعْتَقَداتِهِم ويُحَقِّقَ، من جهةٍ أُخرى، رَواجَ كُتُبِهِ في أَوْساطِهِم.

ولكنَّ هذا التَفسيرَ الذي يَعْتَمِدُه د. هـ. بانيث في البَحْثِ الذي أَشَرْنا إليه، على ما يَتَضَمَّنُه من عناصِرَ إيجابيَّةٍ، لا يَعْكِسُ تَمامًا الصُورَةَ الذِهْنِيَّةَ التي تَمَيَّزَ بها صاحِبُ التَنْقيح. فابنُ كَمُّونَة، بالرَّغْمِ من سَعْيِهِ إلى التَحيُّدِ الدِّينِيِّ وانْتِسابِهِ إلى مَدْرَسَةِ الفارابيِّ

٢٤) راجع كتاب
R.P.A. Dozy, *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne*, Leyden 1848-1851, vol. I, p. 89.

وابنِ سينا والطُّوسيّ، لا يَبْدو لنا – كما يَراهُ د. هـ. بانيث – مِمَّنْ يُؤْمِنونَ بِتكافُؤِ الأَدْيانِ الثَلاثَة. فَطَعْنُهُ الشَّديدُ في الإِسْلامِ وتَجْريحُهُ المُتحامِلُ للمسيحيَّةِ يَرْشَحانِ بِمَا كان يُضْمِرُ لهما من تَصدٍّ مُبيَّتٍ ولِلْيهوديَّة من تَعَصُّبٍ مُنْحاز.

بَيْدَ أَن مَواقِفَهُ الصَّارِمَةَ من الإِسْلامِ والمَسيحيَّةِ لا تَنْفي خُلوصَ نِيَّتِه ونَزاهَةَ بَحثِه في الأديانِ الثلاثَة. «فالمُفاوَضاتُ» التي يَذْكُرُها في مُقدِّمَةِ كِتابِ «التَنْقيح» تُنْبِئُ بِمُناظَراتٍ وحِواراتٍ دِينيَّةٍ مُفيدَة، سوَّغَتْها أَحْوالُ المِنْطَقَةِ الواقِعَةِ تَحْتَ حُكْمِ المَغول. ويُمْكِنُ أَنْ نَتَصوَّرَ تلكَ المُفاوَضاتِ بَيْنَ مُمثِّلي الدِّياناتِ الثَّلاث، وفي أَوْساطٍ مَحْدودةٍ ومُنْتقاة، على جانِبٍ مِنَ المَوَدَّةِ والصَراحَة.

المَوَدَّةُ والصَراحَة: لَفْظتان تُلَخِّصانِ، في النِّهايَة، الذِّهْنِيَّةَ الكَمُّونِيَّةَ والطَابَعَ الحِواريَّ الذي يَتَمَيَّزُ به كِتابُ «التَنْقيح». فإذا كانَتِ الصَّراحَةُ هي التي أَمْلَتْ على صاحِبِ الكِتابِ مواقِفَه النَقْديَّةَ الصَّارِمةَ من الإِسْلام والمَسيحيَّة، فلِمَ لا يَكونُ من بابِ المَوَدَّةِ اسْتِعْمالُه لِعبَاراتِ التَقريظِ لِنَبيِّ المُسْلِمينَ ونَبيِّ المَسيحِيين، لا إِقْراراً بِنُبوَّتِها، بل تَوَدُّداً واحْتِراماً لأَتْباعِها.

هكذا يكونُ ابنُ كَمُّونَةَ قدِ اكْتَشَفَ، مُنْذُ أَواخِرِ القَرْنِ الثالِثَ عَشَرَ، مُسْتَلْزَماتِ الحِوارِ الدِّينيِّ في صِفَتَيهِ الأَساسيَّتَيْن: الصَّراحَةِ في مواجَهَةِ الحَقيقَة، والمَوَدَّةِ في مُخاطَبَةِ المُحاوِر. ولا شَكَّ أَنَّ «الحَكيمَ» و«الفَيْلَسوفَ»، صاحِبَ كِتابِ «التَنْقيح»، في تَنْقيبِه عَنِ الحَقيقَةِ الدِّينيَّة – ورُبَّما عانَى في ذلِكَ صِراعاً ضَميريّاً أَليماً – وفي تَسْليطِهِ النَقْدَ على مُحْتَواها العَقائديّ، لَمْ يَنْجَرِفْ في طَريقِ المُدالَسَةِ والمُداهَنَة. ولكنَّ رَفْضَ المُساوَمَةِ في الدِّينِ لا يَفْرِضُ تَرْكَ اللَّياقَةِ في مُعامَلَةِ أَتْباعِ الدِّين. ومِن مَظاهِرِ هذه اللَّياقَةِ اسْتِعْمالُ عِباراتِ التَبْجيلِ المُتَداوَلَةِ عند المُسْلِمينَ والمَسيحِيينَ في ذِكْرِ أَسْماءِ أَنْبيائِهِم.

تِلْكَ هي المصادِرُ التارِيخيَّةُ التي تُمكِّنُنا من رَسْمِ مَلامِحِ الفَيلسوفِ اليَهوديّ، سَعدِ بنِ مَنْصورِ بنِ كَمُّونَةَ، صاحِبِ كِتابِ «تَنقيحِ الأَبْحاثِ لِلْمِلَلِ الثَّلاث». وقد تَصَدَّى لِهذا المُصنَّفِ كاتِبٌ مارْدِينيٌّ من القرن الرابعَ عَشَر، هو ابنُ الحَسَنِ بنُ المَحْرُومَة، فعَلَّقَ عَلَيهِ بِحواشي بَليغَةٍ مُتَضَمِّنَةٍ في المَخْطُوطة رقم ١٥ من مَكْتَبَةِ الأَنجيليكا في رُومة. ونَقُومُ بِنَشْرِها هنا كامِلَةً لأَوَّلِ مَرَّة.

فَمَن هو ابنُ المَحْرُومة؟ وما قِيمَةُ هَذِهِ الحَواشي الدِّفاعِيَّةِ المَمْزوجَةِ بِنَصِّ «التَنْقيحِ» في بابَيْهِ الثاني (في اليَهودِيَّة) والثالِثِ (في المَسيحِيَّة)؟

أبو الحسن بنُ المحرُومَة

أ – سيرته

هو أبو الحَسَن بنُ إبراهِيمَ بن يَعْقُوبَ بنِ نَخْتوما الخَبّازِ بنِ المَحْرُومَة. وَرَدَ ذِكْرُه في كِتابِ «اللُؤلؤِ المَنْثورِ في تاريخِ العُلومِ والآدابِ السُّرْيانِيَّة» (٢٥). وقد جاء فيهِ أَنَّه «نَسَخَ سَنَةَ ١٢٩٠ «كِتابَ الحَمامة» بالسُّرْيانِيَّة (٢٦) لابنِ العِبْريّ وعَلَّقَ عليه بتعاليقَ عَرَبيَّةٍ بَليغَة». ويَنْقُلُ إلينا صاحِبُ «اللُؤلؤ المَنْثور» في كَلامِهِ عن «كِتابِ الحَمامَةِ» أنه نُقِلَ إلى العَرَبيَّةِ سَنَةَ ١٢٩٩، بِعُنْوانِ «كِتاب الوَرْقاء في عِلْمِ الارْتِقاء»، وأَنَّ ابنَ

---

٢٥) مؤلفه البطريرك اغناطيوس افرام الاول برصوم، حمص ١٩٤٣، ص ٥٤١. أهم الذين اشاروا الى ابن المحرومة قبل البطريرك برصوم وبعده:

Jo. Alb. Fabricius, Delectus argumentorum et Syllabus Scriptorum qui veritatem Religionis Christianae adversus Atheos, Epicureos, Deistas se Naturalistas, Idolatras, Judaeos et Muhammedanos lucubrationibus asseruerunt, Hamburgi 1725, p. 739: «Notas sive breves postillas adjunxit Scriptor Christianus, Abulhasan ben Abraham»

Steinschneider, *Pol. u. Apol. Lit.*, p. 409.

Guidi, *Cat. dei. Cod. Orient. Della Bibl. Angelica di Roma*, Firenze 1878, p. 64-66.

L. Hirschfeld, *Sa'ad b. Mansūr Ibn Kammuna u. seine pol. Schrift*, Berlin 1893, p. 12, n° 4.

Graf, *GCAL 2*, n° 133, Citta del Vaticano 1947, p. 270, n° 90.

M. Perlmann, *Ibn al-Mahrūma, A Christian Opponent of Ibn Kammuna*, Harry Austryn Wolfson Jubilee Volume, vol. II, Jérusalem 1965, p. 641-665.

٢٦) يفيدنا المتروبوليت زكا عيواس الذي قام بنشر النسخة السريانية لكتاب «الحمامة» ان ناسخه هو ابو الحسن بن ابراهيم بن يعقوب **بن نختوما** المعروف بابن المحرومة المارديني،

cf. Zakka 'Iwāṣ, *Bar Hebraeus Book of the Dove*, Baġdād 1975, p. 7

المَحرومَةِ هوَ الذي خطَّ بِيَدِهِ المُقَدِّمَةَ العَرَبِيَّةَ لِهذا الكِتاب ، وقد وُضِعَتْ «بإنْشاءٍ بَليغ».

في أيِّ قَرْنٍ عاشَ ابنُ المَحْرومَة؟ يؤكِّدُ البَطْريركُ بَرْصوم أنَّهُ كانَ في قَيْدِ الحَياةِ في ٥ كانونَ الأَوَّلِ ١٢٩٩ ، وَذلكَ استِنادًا ، على ما نَظُنّ ، إلى التاريخِ المُثْبَتِ في «كِتابِ الوَرْقاءِ» وَهْوَ التَرْجَمَةُ العَرَبِيَّةُ لِكتابِ «الحَمامَةِ» لابنِ العِبْريّ[٢٧].

وأما غْرافْ فَيَذْهَبُ إلى أنَّ ابنَ المَحْرومَةِ كَتَبَ حَواشِيَهُ «يَقينًا قَبْلَ القَرْنِ الرابِعَ عَشَرَ»[٢٨] ولا يُورِدُ أَيَّةَ تَفاصيلَ أُخْرى في هذا الشأن. فَهَلْ من سَبيلٍ إلى الإمعان في تَحديدِ الزَّمَنِ الذي كُتِبَتْ فيهِ الحَواشِي؟

ب – بَعْضُ المعالِمِ التاريخيَّة

ثَمَّةَ مَعالِمُ تارِيخِيَّةٌ تُساعِدُ في حَصْرِ الفَتْرَةِ الزَمَنِيَّةِ التي انْدَرَجَتْ فيها حَياةُ ابنِ المَحْرومَة. فالحَدُّ الأَدْنَى هو تاريخُ تَأْليفِ «التَنْقيح» اي سَنَةَ ١٢٨٠ ، ومن الواضِحِ أنَّ الحَواشِيَ قد وُضِعَتْ حَتْمًا بَعدَ هذا التارِيخ.

وأَمَّا الحَدُّ الأَقْصى فَهْوَ التاريخُ المُدْرَجُ في مَطْلَعِ مَخْطوطَةِ الأَنْجيلِيكا ، أي ٢ كانونَ الثاني ١٣٥٤م. فَفي هذا الوَقْت ، ابنُ المَحْرومَةِ هو ، بلا رَيْبٍ ، في عِدادِ الأَمْوات ، بِشَهادَةِ النّاسِخِ مَسْعودِ بْنِ أرجوكَ المارْدِيني ، الذي يَضُمُّ في صَلاةِ اسْتِرحامٍ واحِدَة ، صاحِبَ التَنْقيحِ ابن كَمُّونَة (+ ١٢٨٤) وصاحِبَ الحَواشي ابنَ المَحْرومَة ، سائِلاً الله ان «يقَدِّسَ أَنْفُسَهُما وَيُنَوِّرَ ضَريحَيْهِما بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ»[٢٩].

---

٢٧) برصوم ، اللؤلؤ المنثور ، ص ٥٤١.

٢٨) GCAL 2, p. 271

٢٩) تنقيح ، ص ١٠٩

بَيْنَ هَذَينِ الحَدَّينِ الثابِتَيْنِ – وبَيْنَهُما فَتْرَةُ ٧٤ سَنَةً – ألا يُمْكِنُ العُثورُ على مَعالِمَ تارِيخِيَّةٍ أخرى؟

في تضاعِيفِ الحَواشي إشاراتٌ تارِيخِيَّةٌ مُفيدَةٌ يُمْكِنُ التَعْويلُ عَلَيها. فَفي الحاشِيَةِ ٦ من حَواشي البابِ الثالِثِ (في مُعْتَقَدِ النَّصارى) ، يأتي ابنُ المَحْرومَةِ على ذِكْرِ الإمامِ العَلاَّمَةِ شَمْسِ الدّينِ السَمَرْقَنْدِيّ مُتَرَحِّمًا بقولِهِ : «بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعَهُ». ولمَّا كانَ ثابِتًا، مِنْ جِهَةٍ أُخْرى ، أَنَّ السَمَرْقَنْدِيَ كان بَعْدُ في قَيْدِ الحَياةِ سَنَةَ ١٢٩١[٣٠] ، ساغَ تَقريبُ الحَدِّ الأَدْنى لِكِتابَةِ الحَواشي الى سنة ١٢٩١.

هُناكَ خُصوصًا نَصّانِ في الحَواشي بِشأْنِ نُبُوءَةِ دانْيالَ النَبِيّ (٩ / ٢٤) ، يُفيدانِ في تَعْيينِ تاريخِ كِتابَتِها.

يَقولُ المُعَلِّقُ المارْديني : «كافَّةُ اليَهودِ في انْتِظارِهِ [المسيح] عَن قَريب ، حَتَّى قَدْ غَلَبَ على ظَنِّ كَثيرينَ من عُلَمائِهِم المُعاصِرينَ أنْ يَكونَ في زَمانِ القِرانِ[٣١] التّالي لِهذا القِرانِ الذي نَحْنُ فيه. وَقَدْ بَقِيَ مِنْ هَذا القِرانِ قَريبُ تِسْعِ سِنينَ ، وَمُدَّةُ القِرانِ التّالي له جَميعُها قَريبُ عِشْرينَ سَنَةً ، فَيَكُونُ المَجْموعُ دُونَ ثَلاثينَ سَنَةً. وهذا المَبْلَغُ يَقْتَضِي قَبْلَ سَنَةِ سَبْعينَ وسَبْعِ مائَةٍ للهِجْرَة»[٣٢].

فإذا كانَتْ الفَتْرَةُ الواقِعَةُ بَيْنَ تاريخِ كِتابَةِ هَذِهِ الأَسْطُرِ والسَّنَةِ ٧٧٠ هـ هي قَرابَةَ ثَلاثينَ سَنَةً ، فَيَكُونُ تاريخُ كِتابَتِها سَنَةَ ٧٤٠ / ٧٤١ هـ ، أي سَنَةَ ١٣٣٩ / ١٣٤٠ م.

---

٣٠) *GAL 1*, p. 468; *GAL S1*, p. 849-850.

٣١) القران هو التقاء زحل والمشتري. ويتم القران مرة كل عشرين سنة وهو القران الاصغر ، ومرة كل ٢٤٠ سنة وهو القران الاوسط ، ومرة كل ٩٦٠ سنة وهو القران الاكبر. ولا شك ان الكلام هنا في القران الاصغر. راجع *Kirān*, E. Wiedemann, dans EI, tome 2, 1927, p. 1082-1083

٣٢) حاشية ١٢٣ ج

ثَمَّةَ إشارةٌ أُخرى إلى نُبُوءَةِ دانْيال. يقولُ ابنُ المَحْرومَة: «مَعْلومٌ أنَّ المَسيحَ قُتِلَ مُنْذُ مُدَّةٍ تُنِيفُ على أَلْفٍ وثَلاثِ مائَةِ سَنَة»[٣٣] فإذا افْتَرَضْنا أنَّ السَّيِّدَ المَسيح، عِنْدَ مَقْتَلِهِ، كان في نَحْوِ الثالِثَةِ والثَلاثينَ من عُمْرِه، رَجَعَ تاريخُ وَضْعِ الحَواشي حَوالَيْ السَّنَةِ ١٣٣٣م.

كلُّ هذا يُعارِضُ رَأْيَ غِرافْ الذي يَعودُ بتاريخ كِتابَةِ الحَواشي الى ما قَبْلَ القَرْنِ الرابعَ عَشَرَ[٣٤]. هذا، ويُشيرُ برلْمانْ الذي يَعُدُّ ابْنَ المَحْرومَةِ «مِن كُتَّابِ القَرْنِ الرابعَ عَشَر»[٣٥] إلى أَنَّ مَخطُوطَتَيْنِ مِنْ بَيْنِ المَخْطوطاتِ التي تَتَضَمَّنُ نَصَّ «التَنقيح» مَصْدَرُها ماردين، وتَعودُ إحداهُما إلى سَنَةِ ١٣٤١، والأُخرى إلى سَنَةِ ١٣٥٤. وثَمَّةَ مَخْطوطَةٌ ثالِثَةٌ ابْتاعَها صاحِبُها سَنَةَ ١٣٥٣[٣٦]. كُلُّ هذا يَدْعَمُ ما ذَهَبْنا إليه مِنْ أنَّ تاريخَ كِتابَةِ الحَواشي يَقَعُ حَوالَيْ سنة ١٣٣٣.

هذا التاريخُ يَنْسَجِمُ أَيْضًا مَعَ الثوابِتِ التاريخيَّةِ الأُخرى المُرْتَبِطَةِ بالنَشاطِ الأَدَبِيِّ لابنِ المَحْرومَة. فالسَّنَةُ ١٢٩٠ هي السَنَةُ التي نَسَخَ فِيها الكاتِبُ المارْدِينيُّ بالسُّرْيانِيَّةِ «كِتابَ الحَمامَة» لابْنِ العِبْرِيّ، كَما مَرَّ بنا. والخامِسُ من كانونَ الأَوَّلِ سَنَةَ ١٢٩٩، هو اليومُ الذي أُنْجِزَ فيه نَسْخُ مُقَدِّمَةِ التَرْجَمَةِ العَرَبِيَّةِ لِنَفْسِ الكِتاب[٣٧].

اسْتِنادًا إلى هذِهِ الدَّلالاتِ، يَسوغُ القَوْلُ إذَنْ إنَّ ابنَ المَحْرومَةِ وُلِدَ في الشَطْرِ الثاني

٣٣) حاشية ١٢٣ د

٣٤) GCAL 2, p. 271

٣٥) التنقيح، ص XI

٣٦) التنقيح، ص XII

٣٧) برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٤١.

من القَرنِ الثالِثَ عَشَرَ، وَتُوُفِّيَ في الشَطْرِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ الرابعَ عَشَر، وَكَتَبَ الحواشِيَ حَوالَيْ سَنَةِ ١٣٣٣.

ج – مَذْهَبُه

سُؤالٌ آخَرُ يُطْرَحُ في شَأْنِ ابنِ المَحْرومَة: ما كانَ مَذْهَبُهُ؟ مِنَ الثّابِتِ أنهُ كانَ مَسيحِيًّا. وَيُؤَكِّدُ البَطْرِيَرْكُ بَرْصوم، صاحِبُ «اللُؤْلُؤِ المَنْثور» أَنَّهُ كانَ سُرْيانِيًّا.

الواقِعُ أَنَّ قِراءَةَ نَصِّ الحَواشي لا تُتيحُ مَعْرِفَةَ مَذْهَبِ صاحِبِها، وَقَدْ عَمَدَ في أُسْلُوبِهِ الدِّفاعِيِّ إلى الطَرِيقَةِ المُتَّبَعَةِ عُمومًا عِنْدَ الكُتّابِ المَسيحِيّينَ آنْذاكَ في مُناظَراتِهِمْ مَعَ غَيْرِ المَسيحِيّينَ، وَهْيَ اعْتِمادُ البَراهِينِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَ جَميعِ الفِرَقِ المَسيحِيَّةِ، وَمُحايَدَةُ ما يُشْتَمُّ مِنْهُ الْتِزامٌ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّن.

وَقَدْ أَعلَنَ ابْنُ المَحْرُومَةِ طَريقَتَهُ هَذِهِ في إِحْدى حَواشِيهِ: «على أَني لا أَلْتَزِمُ رِضى جَميعِ فِرَقِ المِلَّةِ النَصْرانِيَّةِ، لكِنّي أَلْتَزِمُ رضى النَصْرانِيَّةِ مُطْلَقًا لا غَيْر...»[٣٨].

وفي موضِعٍ آخَر: «قَصْدي في هَذِهِ الحَواشي، التَنْبيهُ على غلطِ الطاعِنينَ في مُطْلَقِ المِلَّةِ لا في مَذاهِبِ الفِرَقِ المُنْتَمِيَةِ إلَيْها»[٣٩].

وَقَدْ وفى ابْنُ المَحْرُومَةِ بِوَعْدِهِ، وَظَلَّ سالِكًا في نَهْجِهِ، فَما بَدَرَ مِنْه ما يُثْبِتُ ارْتباطَهُ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ من المَذاهِبِ المَسيحِيَّة. إِلّا أَنَّ هُناكَ قَرائِنَ يُمْكِنُ اعْتِمادُها لِتَرْجيحِ نِسْبَتِه إلى الكَنيسَةِ السُّرْيانِيَّة.

٣٨) حاشية ٩١ ب

Cet irénisme est caractéristique aussi de la pensée de Yaḥyā b. ᶜAdyy qui, dans sa réfutation du livre d'Abū ᶜĪsa al-Warrāq, «se fait tour à tour l'avocat des trois sectes chrétiennes». M. Allard, les Chrétiens à Baġdād, in Arabica (1962) p.375-388.

٣٩) حاشية ١٠١ ب

القَرينةُ الأُولى هِيَ الصِلَةُ القائِمَةُ بَيْنَ نَشاطِهِ الأَدَبِيّ وَمُؤَلَّفاتِ المُفكِّرِ السُّرْيانِيِّ الكَبيرِ ابْنِ العِبْرِيّ. فابْنُ المَحْرُومَةِ نَسَخَ لَهُ بالسُّرْيانِيَّةِ «كِتابَ الحَمامَةِ» والمُقَدِّمَةَ العَرَبِيَّةَ لِتَرْجَمَةِ هذا الكِتاب، على ما مَرَّ بنا. وَنَحْنُ نَعْرِفُ كُتَّابًا من الكَنيسَةِ السُّرْيانِيَّةِ أَمْثالَ دانيالَ المارْدِينيّ وأخي ابْنِ العِبْرِيّ، [٤٠] تَوَفَّروا على اسْتِكْمالِ كُتُبِ ابْنِ العِبْرِيّ والتَعْليقِ عَلَيها. ولكِنَّنا لا نَعْرِفُ مَسيحِيّينَ مِنْ مَذاهِبَ أُخْرى الْتَزَموا بِمِثْلِ هذا النَّشاطِ الأَدَبِي.

القَرينَةُ الأخْرى لِلتَدْليلِ على انْتِسابِ ابْنِ المَحْرُومَةِ إلى الكَنيسَةِ السُّرْيانِيَّةِ هِيَ اعْتِمادُهُ الخَطَّ المُتَّبَعَ عِنْدَ السُّرْيانِ الغَرْبِيِّينَ أَو اليَعاقِبَة [٤١] في المَخْطُوطَةِ السُّرْيانِيَّةِ التي نَسَخَها سنة ١٢٩٠.

وأَمَّا القَرينَةُ الأَخيرَةُ فَهْيَ انْتِسابُ ابْنِ المَحْرُومَةِ إلى مَدينَةِ مارْدين. ولا يَخْفى أَنَّ تاريخَ هَذِهِ البَلْدَةِ، مِنَ المَلْحَظِ الدِّينيّ، مَدينٌ بِكَثيرٍ من مُقَوِّماتِهِ إلى الكَنيسةِ اليَعْقوبِيَّة. فَقَدْ أَصْبَحَتْ، مُنْذُ مُنْتَصَفِ القَرْنِ الحادي عَشَرَ، مَقَرَّ البَطْرِيَرْكِيَّةِ اليَعْقوبِيَّةِ من بَعْدِ نُزوحِها من أَنْطاكِيَةَ [٤٢]. وَقَدْ نَبَتَ حَوْلَها عَدَدٌ مِنَ الأَدْيِرَةِ

---

٤٠) GCAL 2, p. 284-291; GSL, p. 313, nº 2.

٤١) «The Serṭa Script Which is also called jacobite from the name of the sect which used it», W.H.P. Hatch, *An album of dated Syriac Manuscripts*, Boston Mass. 1946, p.27.

٤٢) *Chronique de Michel le Syrien*, éd. par J. - B. Chabot, Paris, 1899 - 1910, livre XIII, chap. VII (566).

- اسحق ارملة : في البطريركية، المشرق ٢١ (١٩٢٣)، ص ٤٠٩ – ٥٠٧، ٥٨٩ – ٥٩٩، ٦٦٠ – ٦٧١.

اليَعْقُوبِيَّةِ أهمُّها دَيْرُ مارْ حَنانِيًّا (دَيْرُ الزَعْفران) [٤٣] الذي امْتَدَّتْ شُهْرَتُهُ إلى جميعِ أَنْحاءِ بِلادِ ما بَيْنَ النَهْرَيْن. وَقَدْ عَدَّدَ إِسْحق أَرْمَلَة [٤٤] لا أقلَّ من ١٧ دَيْرًا يَعْقوبِيًّا مُثْبَتَةً في المَراجِعِ التاريخِيَّة.

كلُّ هذا يَحْمِلُ على القَوْلِ تَرْجيحًا بأَنَّ ابْنَ المَحْرُومَةِ كانَ على المَذْهَبِ اليَعْقوبِيِّ السُّرْيانِيّ. بَيْدَ أَن تَعابِيرَهُ اللاّهوتِيَّةَ هِيَ أَقْرَبُ إلى العَقيدَةِ الخَلْقيدُونِيَّةِ منها إلى المَذْهَبِ الأُوتيخِيّ. فَهْوَ يَأْبى القَوْلَ بامْتِزاجِ الطَبيعَتَيْنِ في السَّيِّدِ المَسيح، ويُوافِقُ النَّصارى بِجَميعِ طَوائِفِهِمْ، على أَنَّ السَّيِّدَ المَسيحَ إِنَّما ساوى النَّاسَ بِناسُوتِهِ في جميعِ أَحْوالِهِمْ ما عَدا الخَطيئَة [٤٥].

د – بيئَتُهُ التاريخِيَّةُ والأَدَبِيَّة

ما هِيَ البِيئَةُ التاريخِيَّةُ والأَدَبِيَّةُ التي نَشَأَ وأَلَّفَ فيها صاحِبُ الحَواشي؟

في سَنَةِ ١٢٩٣، تَمَكَّنَ أُسْقُفُ ماردين بَرْ وَهيب، بِمُعاوَنَةِ الوالي الأُرْتُقِيِّ في المَدينَةِ، أَنْ يُعْلِنَ نَفْسَهُ بَطْرِيَرْكًا بمُبايَعَةِ ثَلاثَةِ أَساقِفَةٍ مِنَ المِنْطَقَة. بَيْدَ أَنَّ المَفريان وَكَنيسَةَ الشَّرْق (المُوصِل) أَبَيا الخُضوعَ لَه، فاسْتَعانَ ثانِيَةً بالوالي الأُرْتُقِيِّ، وتَمَكَّنَ بِمُعاضَدَتِهِ أَنْ يَنالَ الاعْتِرافَ بِوِلايَتِهِ البَطْرِيَرْكِيَّةِ سَنَةَ ١٢٩٨. وَهكذا قامَ في تِلْكَ

---

٤٣) للوقوف على تاريخ دير الزعفران، راجع اغناطيوس افرام برصوم : نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران، ماردين ١٩١٧.

- Paul Kruger, *Das Syrisch - monophysitische Mönchtum im Ṭūr ʿĀbdīn*, dans OCP 4 (1938) p. 5 - 46 (21-22).

٤٤) اسحق أرملة : لمحة تاريخية في أديار ماردين، المشرق ١٢ (١٩٠٩) ص ٧٦٠ – ٧٧٠

٤٥) حاشية ١٠٦

الحِقْبَةِ، بَطْرِيَرْكانِ يَعْقُوبِيّانِ شَرْعِيّان: أَحَدُهُما في قِيليقيا والآخَرُ في مارْدِين[٤٦].

وَلَمْ يَكُنْ بَروهيب، في ذاكَ المُعْتَرَكِ المُضْنِي، لِيُهْمِلَ النَّشاطَ الأَدبي. ومِنْ آثارِهِ نافورَةٌ سُرْيانِيَّةٌ، وَكُتَيِّبٌ بـ٣٦ صَفْحَةً، بِعُنوانِ «كِتاب المَوادّ» يَتَضَمَّنُ تَعْليقًا رَمْزِيًّا صُوفِيًّا على أَحْرُفِ الأَبْجَدِيَّةِ العَرَبِيَّةِ[٤٧].

وَقَدْ بَرَزَ، في تِلْكَ الحِقْبَةِ، طائِفَةٌ مَرْمُوقَةٌ مِنَ الكُتّابِ اليَعاقِبَةِ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ في تَضاعِيفِ المُصَنَّفاتِ التاريخِيَّةِ والأَدَبِيَّةِ، في كِلْتا اللُّغَتَيْنِ السُّرْيانِيَّةِ والعَرَبِيَّةِ، نَخُصُّ بالذِكْرِ مِنْهُم: ابْنَ سَكّا يَعْقُوبَ بْنَ عِيسى البَرْطَلّي (+١٢٤١)[٤٨]، وَقَدْ وَضَعَ خُلاصَةً لاهوتِيَّةً بالسُّرْيانِيَّةِ نُقِلَتْ إلى العَرَبِيَّةِ بِعُنْوانِ «كِتاب الكنوز» او «كِتاب الذَّخائِر»[٤٩].

وفي مارْدِينَ أَيْضًا عاشَ إِسْحَقُ بنُ أَبي الفَرَجِ بنِ القِسّيسِ المُتَطَبِّب، وهو نَسّاخٌ مَعْروفٌ، خَطَّ بِيَدِهِ، سنة ١٢٩٩، النَّسْخَةَ العَرَبِيَّةَ لإِنْجيلٍ مَنْحُولٍ يَروي طُفولَةَ السَّيِّدِ المَسيحِ، وَهُوَ مَحْفُوظٌ في مَخْطُوطَةٍ في فلورَنْسا[٥٠].

وَمِمَّنْ يَجْدُرُ ذِكْرُهُم أَيْضًا، في هَذِهِ الحِقْبَةِ، الرّاهِبُ إبراهيمُ المارْدِينِيّ[٥١]،

٤٦) BO 2, p. 381-382; J.S. Assemani, *De Syris Monophysitis Dissertatio*, Romae 1730, p. 49.

٤٧) GCAL 2, p. 271.

٤٨) حسب غراف. وفي سنة ١٢٩٠ حسب برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٣٩ – ٥٤٠.

٤٩) برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٣٩ – ٥٤٠؛ *GCAL 2*, p. 269

٥٠) Flor. Pal. Med. or. 32 (nº 387); cf. aussi M. Provera, *Il Vangelo arabo dell'infanzia*, Gerusalemme 1973, p. 26-27.

٥١) BO 2; p. 471.

وَدانيالُ المارْدِينِيّ[٥٢]، ويَشوعُ بْنُ خَيْرونَ[٥٣] (١٢٧٥ – ١٣٣٥)، وَقَدْ عاشَ في دَيْرِ القَطْرا، أو دَيْرِ السَّيِّدَةِ في مارْدينَ، وَخَلَّفَ مَجْموعَةً من القَصائِدِ تَتَناوَلُ إِحْداها وَصْفَ الثَّوْرَةِ التي حَدَثَتْ في مارْدينَ سنة ١٣٣٣، وأَدَّتْ إلى هَدْمِ كَنيسَةِ الأَرْبَعين شَهيدًا وكَنائِسَ أُخْرى في المَدينَة، وأَدْيِرَةٍ في مُخْتَلِفِ مَناطِقِ الشَّرْق. وعُرِفَ والِدُهُ، صَليبا بنُ خَيْرون[٥٤] بِمِلْفانِ الشَّرْق، وَتُوُفِّيَ من بَعْدِ ابْنِهِ الرّاهِبِ سَنَةَ ١٣٤٠.

هَذِهِ الاضْطِراباتُ الطائِفِيَّةُ التي حَدَثَتْ في مارْدينَ إِثْرَ وَفاةِ البَطْرِيَرْكِ بَروهيب وَتَنْصيبِ ابْنِ أَخيهِ خَلَفًا له، تَشْهَدُ بِأَنَّ المَسيحِيّينَ في تِلْكَ البُقْعَةِ لَمْ يكونوا بِمَأْمَنٍ حَريزٍ مِنَ المَخاوِفِ والمَكارِهِ، مَعَ أَنَّ الأُرْتُقِيّينَ المُسْلِمينَ الذين حَظِيَ بَروهيب بِحِمايَتِهِمْ وَنِعْمَتِهِم كانوا إِجْمالاً على جانِبٍ مِنَ التَسامُحِ في مُعامَلَةِ رَعاياهُمُ المَسيحِيّين، مُنْتَهِجينَ في ذَلِكَ سِياسَةَ أَسْيادِهِمِ الإِلْخانِيّينَ المَغول.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدِ اتَّفَقَ لِبَنِي أُرْتُق العُدولُ أَحْيانا عَنْ هذا النَهْجِ المُتوازِن، وحَجْبُ عَطْفِهِم وحِمايَتِهِم عن المَسيحِيّين[٥٥] وهذا ما يُعَلِّلُ رُبَّما أَنَّ ابْنَ المَحْرُومَةَ الذي وَضَعَ

٥٢) برصوم يميزه من دانيال الخطاب في اللؤلؤ المنثور، ص ٥٥١

٥٣) برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٥٤٦.

٥٤) المرجع نفسه، ص ٥٤٧.

٥٥) حدث ذلك في حقبة الصراع بين الارتقيين والايوبيين سنة ١٣٣٤، وفي فترات التطاحن بين الارتقيين والمغول والتركمان والماليك للاستيلاء على البقاع العليا من بلاد ما بين النهرين. راجع:
E. Quatremère, *Histoire des Mongols de Perse (de Rašīd al-Din)*, Paris 1836, I, p. 378; Mufaḍḍal Ibn Abī al-Faḍā'il, *Histoire des Sultans Mameluks*, éd. E. Blochet, PO 12 (1919) p. 435; 10 (1920) p. 526; Ibn al-Fuwaṭī (naguère attribué à) *Al-hawādiṯ al-ǧāmiʿa wa-l-taǧārib al-nāfiʿa, fī l-mi'a al-sābiʿa*, éd. par Musṭafā Ǧawād, Baġdād 1351 H / 1932 a. J.C., p. 499-500; B. Spuler, *Die Mongolen in Iran*, Berlin 1955², p. 359; Cl. Cahen, *L'histoire du Diyār Bakr au XIVe* s., dans Journal Asiatique, 243 (1955) p. 65-100; Ibn Tagrībirdī, Abū l-Mahāsin Ǧamāl al-Dīn Yūsuf, *K. al-nuǧūm al-zāhira fi mulūk Miṣr wa l-Qāhira*, viii, Le Caire 1348 H. / 1929 a. J.C.; Rašīd al-Dīn, Faḍl Allāh, *Ǧāmiʿ al-tawārīḫ*, tr. ar., Le Caire 1960, I, p. 326.

حَواشِيَه في تِلْكَ الحِقْبَةِ عَيْنِها ، آثَرَ ألَّا يُجازِفَ في التَّعْليقِ على المُعْتَقَدِ الإسْلامِيِّ في البابِ الرابِعِ من كِتابِ «التَنْقيح».

هذا المَوْقِفُ الحكيمُ جَنَّبَهُ ، وَلا رَيْبَ ، الكارِثَةَ التي تَعَرَّضَ لها ، بَعْدَ ثَلاثِينَ سَنَةً ، ابْنُ مَذْهَبِهِ دانيالُ بْنُ الخَطَّابِ المارْدِينِيّ (+ ١٣٨٢) ، إذْ خَطَرَ لَه أنْ يَضَعَ كِتابًا في الجَدَلِ الدِّينِيِّ ، بِعُنْوانِ «في أُصولِ الدِّين» فاضْطُرَّ إلى المُثولِ أمامَ والي ماردين المَلِكِ الطاهِرِ الأُرتُقِيّ ، فأَمَرَ بِجَلْدِهِ وَجَرِّهِ في الشَّوارِعِ . وَلكِنَّهُ ظَلَّ على المُجاهَرَةِ بإيمانِهِ فَسُجِنَ حَتَّى أَقْبَلَ بَعْضُ المَسيحيِّينَ من المَدينَةِ ، فافْتَدَوه بالمال ، وَهكَذا اسْتَطاعَ أنْ يَكْتُبَ قِصَّةَ جِهادِهِ [٥٦] .

تِلْكَ هي البِيئَةُ التي عاشَ فيها أبو الحَسَنِ بنُ إبْراهِيمَ بن يَعْقُوبَ بنِ نَخْتوما الخبّاز ابنُ المَحْرومة . كان ناشِطًا في التَّأْليفِ سَنَةَ ١٢٩٠ ، وَتُوُفِّيَ أكيدًا قَبْلَ سنة ١٣٥٤ . أَتْقَنَ السُّرْيانِيَّةَ لُغَةً وَخطًّا ، وَنَسَخَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ «كِتابَ الحَمامَة» لابْنِ العِبْرِيّ ، كَما أَتْقَنَ العَرَبِيَّةَ لُغَةً وَخطًّا ، وَنَسَخَ المُقَدِّمَةَ العَرَبِيَّةَ لِتَرْجَمَةِ كِتابِ ابْنِ العِبْرِيّ . وَهُوَ أَيْضًا صاحِبُ الرَّدِّ على كتابِ «تَنْقيحِ الأبحاثِ لِلْمِلَلِ الثَّلاث» ، الذي وَضَعَهُ الفَيْلَسُوفُ اليَهودِيُّ البَغْدادِيُّ ابن كَمُّونَةَ سَنَةَ ١٢٨٠ . وأَغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ تاريخَ هذا الرَّدِّ – او هَذِهِ التَّحْشِيَةِ – يَرْجِعُ إلى الفَتْرَةِ ما بَيْنَ سَنَةِ ١٣٣٣ وسنةِ ١٣٤٠ .

٥٦) F. Nau, *Rabban Daniel de Mardin, auteur syro-arabe du XIVe s.*, dans ROC 10 (1905) p. 314-318; برصوم ، اللؤلؤ المنثور ، ص ٥٤٦ – ٥٥١

كِتابُ «التنقيح» لابنِ كمّونة

أ – وَصْفُ الكِتاب

أَهَمُّ مُؤَلَّفاتِ ابن كَمّونَة ، على الصَّعيدِ الفِكْرِيّ ، كِتابُهُ «تَنْقيحُ الأَبْحاثِ لِلْمِلَلِ الثّلاث» وَقَدْ نَشَرَهُ المُسْتَشْرِقُ اليَهودِيُّ موشي بِرْلْمانْ مُمَهِّدًا له بِصَفَحاتٍ قليلة ، ثُمَّ نَقَلَهُ إلى الإنْكْليزِيَّةِ معَ مُقَدِّمَةٍ وتَعاليقَ وافِيَة [٥٧] .

وَقَدْ وَصَفَهُ العَلّامَةُ الأَلْمانِيُّ شْتَيْنْشْنَيْدِرْ بِقَوْلِهِ : «لَعَلَّهُ أَهَمُّ المُصَنَّفاتِ العَرَبِيَّةِ في الجَدَلِ الدِّينِيّ» [٥٨] وقيلَ فِيهِ أَيْضًا : «إِنَّهُ يَتَميَّزُ بِالبَحْثِ في المُعْضِلاتِ اللّاهوتِيَّةِ على طَرِيقَةِ العالِمِ المُكِبِّ على نَموذَجٍ في المُخْتَبَر» [٥٩] .

وَقَدْ وَصَلَ إلَيْنا «التَنْقيحُ» عِبْرَ مَخْطُوطاتٍ خَمْسٍ ، مِنْها ما هُوَ مَكْتوبٌ بالخَطِّ العِبْرِيّ ومِنْها بالخَطِّ العَرَبِيّ [٦٠] أَحْدَثُها وأَوْضَحُها المَخْطُوطَةُ رقم ١٥ من مَكْتَبَةِ الأَنْجيليكا في رُومة (سنة ٧٥٥ هـ/١٣٥٤ م) «نَسَخَها العَبْدُ الفَقيرُ إلى رَحْمَةِ اللهِ ،

٥٧) راجع حاشية ٢ و٣ في التمهيد

٥٨) *Die pol. u. apol. Lit. in arab. Spr.*, Leipzig 1877, p. 409.

٥٩) L. Nemoy, *The arabic Treatise on the Immortality of the soul*, New-Haven 1944, Introduction.

٦٠) راجع M. Perlmann, Ibn Kammuna's *Examination*, Ed. Introduction.

المُقِرُّ بِذَنْبِه، الرَّاجي عَفْوَ رَبِّهِ، مَسْعُودُ المَعْروفُ بابْنِ أَرْجوك المارْدِيُّ مَوْلِدًا، المَسِيحِيُّ مُعْتَقَدًا» (٦١).

وَيَتَأَلَّفُ «التَنْقيحُ» مِنْ أَرْبَعَةِ فُصولٍ، أَوَّلُها في النُبُوَّةِ، والثَلاثَةُ الأُخْرى، على التَّوالي، في اليَهودِيَّةِ والمَسيحِيَّةِ والإِسْلام.

وتَمْتازُ مَخْطُوطَةُ الأَنْجيليكا، دُونَ غَيْرِها من مَخْطوطاتِ «التَنْقيح»، بأَنَّها تَتَضَمَّنُ رَدَّ ابْنِ المَحْرُومَةِ على صاحِبِ «التَنْقيح» في مَعْرِضِ كَلامِهِ عَنِ اليَهودِيَّةِ والمَسيحِيَّةِ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ أَبْوابِ الكِتاب.

ب – نَهْجُ الكِتاب

وَصَفَ ابْنُ كَمّونَة، في مُقَدِّمَةِ كِتابِهِ، النَهْجَ الذي اتَّبَعَهُ في تَنْقيحِ الأَبْحاثِ لِلْمِلَلِ الثَّلاث. فَبَعْدَ عَرْضِ أَحْوالِ النُبُوّاتِ مُجْمَلاً، في البابِ الأَول، تَناوَلَ ما يَخْتَصُّ بِكُلِّ مِلَّةٍ مِنَ المِلَلِ الثَلاثِ، على تَرْتيبِ أَزْمِنَتِها، أيْ مِلَّةِ اليَهودِ ومِلَّةِ النَصارى ومِلَّةِ المُسْلمين، وَحَكَى «عن كُلِّ واحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ المِلَلِ أُصولَ مُعْتَقَدِها دُونَ التَفاريعِ لِتَعَذُّرِ اسْتِقْصائِها، وَأَرْدَفَ ذلِكَ بحِكايَةِ أَدِلَّةِ أَرْبابِها على صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ الآتي بها، وَأَوْرَدَ ما وُجِّهَ مِنَ المَطاعِنِ عَلَيها، وما ذُكِرَ من الأَجْوِبَةِ عنها، مُنَبِّهًا على مواقِعِ الأَنْظارِ فيها وَمُمَيِّزًا ما يَصْلُحُ لأَنْ يُعَوَّلَ عَلَيْهِ من تلْكَ الأَجْوِبَةِ عَمَّا لا يَصْلُحُ لِذَلِكَ مِنْها» (٦٢).

---

(٦١) تتألف هذه المخطوطة من ١٦٣ ورقة، وفي كل صفحة ١٦ سطرا. وهي مكتوبة بالخط النسخي على يد خطاط واحد. ويقرأ في دقّة المخطوطة: .Abrah. Ecchel وفي ذلك اشارة الى ان المخطوطة مرّت فترة بين يدي العلامة اللبناني ابراهيم الحاقلاني.

(٦٢) مقدمة التنقيح، ص ١

ج – بيئَةُ الكِتاب

كِتابُ «التَنْقيحِ» كَكُلِّ نِتاجٍ أَصيل، يَعْكِسُ البِيئَةَ التي كُتِبَ فِيها: بَغْدادَ في القَرْنِ الثالِثَ عَشَر، تَحْتَ حُكْمِ المَغول.

فَعلى الصَّعيدِ السِّياسيِّ، نَشْهَدُ احْتِضارَ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ وَزَحْفَ المَغولِ في الشَّرْق وما وَاكَبَ ذلِكَ من سُقوطِ عُروشٍ وَسَفْكِ دِماءٍ واندِثارِ حَضارَة، وما عَقِبَ ذَلِكَ من سَعْيٍ إلى تَنْظيمِ الأَقْطارِ المُجْتاحَةِ تَنْظيمًا إدارِيًّا واقْتِصادِيًّا.

على الصَّعيدِ الدِّينِيِّ، تَمَيَّزَ حُكْمُ المَغولِ، في حِقْبَتِهِ الأُولى، بالتسامُحِ في عَلاقاتِ الدَّوْلَةِ بِمُخْتَلِفِ الأَدْيانِ والمَذاهِبِ، وَبِشَيْءٍ مِنَ العَطْفِ على الأَقَلِّيَّاتِ المَسيحِيَّةِ واليَهودِيَّةِ والشِيعِيَّة. هَذا التَّسامُحُ ما عَتَّمَ أَنِ اسْتحالَ، مَعَ أَحْمَدَ (١٢٨٣ – ١٢٨٤) وَمُنْذَ عَهْدِ غازانَ (١٢٩٥) إلى نَمَطٍ مِنَ التَشَدُّدِ على هَذِهِ الأَقَلِّيَّاتِ ورُجوحِ كَفَّةِ الإِسْلام واسْتِعادَةِ مكانَتِهِ وَهَيْمَنَتِهِ من بَعْدِ أنِ اعْتَنَقَهُ الإِلْخاناتُ في بلادِ فارِس.

وأَمَّا على الصَّعيدِ الحَضارِيِّ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ اليَسيرِ التَصَدّي لِعوامِلِ التَفَكُّكِ الاجْتِماعِيِّ والانْحِلالِ الخُلُقِيِّ. فَنَجَمَ عَنْ ذَلِكَ، من بَعْدِ أُفولِ حِقْبَةِ الإِبْداعِ الفِكْرِيِّ والعِلْمِيِّ، عُكُوفُ الأُدَباءِ على التَكرارِ والتَقْليد، واكْتِفاءُ العُلَماءِ بِمُنْجَزاتِ السَّلَف. وَلَمْ يَبْرُزْ من بَيْنِ هذا الحُطامِ إلا المُؤَرِّخُون، وَقَدْ وَجَدُوا في أَحْداثِ تِلْكَ الحِقْبَةِ مادَّةً غَزيرَةً وجَديدَةً لإِنْتاجِهِم، وفي تَشْجيعِ الحُكّامِ حافِزًا لِنَشاطِهِمْ اسْتَغَلَّهُ أُولو السُّلْطانِ لِبَسْطِ نُفوذِهِم وإِعْلاءِ شَأْنِهِم.

د – قيمَةُ الكِتاب

قَدْ يَبْدو لَنا «التَنْقيح» لأَوَّلِ وَهْلَةٍ، مَجْموعَةً مُقَمَّشَةً مِنَ النُصوصِ المُخْتَلَسَةِ

من كُتُبِ السَّلَفِ وَمُصَنَّفاتِ الأقدمين. والواقعُ أَنَّ ابْنَ كَمُّونَةَ، كالكثيرِ مِنْ أَهْلِ زَمانِهِ وأَسْلافِهِ، لا يَتورَّعُ عن الارْتكازِ على غَيْرِهِ والاسْتِعانَةِ بأقْطابِ الفِكْرِ وعِلْمِ الكَلام. وقد يَسْتَشْهِدُ بِهِم أَحْيانًا صَراحَةً بِذِكْرِ أَسْمائِهِمْ وَعناوينِ كُتُبِهِم. وَلكِنَّهُ في مُعْظَمِ الأَحْيانِ، يَقْتَطِفُ من هنا وهُناك من دُونِ ذِكْرِ المراجعِ والمَنابع.

بَيْدَ أَنَّ هذا الكاتِبَ المَوْهوبَ والمُفكِّرَ الأَصِيلَ يَبْرَعُ في فَنِّ التَّصْنيعِ والتَزْويق، وَيَعْرِفُ كَيْفَ يُفْرِغُ على مُقْتَرَضاتِهِ طابَعَهُ الشَّخْصِيّ، وَيَتناوَلُها بالتَرْتيبِ والتَنْضيدِ والتَوْضيحِ، وَيُضْفِي على ذَلِكَ كُلِّهِ طِلاءً أَدَبِيًّا وَفِكْرِيًّا يُمَوِّهُ مواضِعَ التَقْميشِ وَمعالِمَ التَرْكيبِ، وَيَجْعَلُ مِنْهُ مُصَنَّفًا مِنْ أَنْدَرِ المُصَنَّفاتِ الكلامِيَّةِ تَرتيبًا وتَنْسيقًا وَوُضوحًا، ونَموذَجًا خالِصًا من نَماذِجِ البِيئَةِ الفِكْرِيَّةِ والدِّينِيَّةِ في عَهْدِ المَغول.

ويَمتازُ ابنُ كَمُّونَةَ بِمَعارِفِهِ الكِتابِيَّةِ واطّلاعِهِ الدَّقيقِ على التَوْراةِ والإنْجيلِ والقُرآن، ومَهارَتِهِ في عُلومِ التَفْسيرِ وَوُجوهِ اسْتِعْمالِها في مُعْتَرَكاتِ الجَدَلِ الدِّينِيّ.

وَلكِنَّ هَذِهِ الحَذاقَةَ الكِتابِيَّةَ لا تَمْنَعُ صاحِبَ «التَنْقيح» من أَنْ يَبْدُو، في المَرْتَبَةِ الأُولَى، مُمَثِّلًا لِلنَّزْعَةِ العَقْلانِيَّةِ المُعْتَدِلَةِ، على طَريقَةِ الفارابِيّ وابْنِ سينا والطُّوسِيّ والرّازِيّ وغَيْرِهِم. فابْنُ كَمُّونَةَ فَيْلَسُوفٌ وَمُفكِّرٌ، بُغْيَتُهُ «تَنْقيحُ الأَبْحاثِ لِلمِلَلِ الثَّلاث»، أَيْ تَسْليطُ العَقْلِ والبُرْهانِ على ما تَتداوَلُهُ الأَدْيانُ مِنْ أُصولِ مُعْتَقَداتِها، وما تَتَعَرَّضُ لَه من المَطاعِنِ وما تَسْتَنْبِطُهُ مِنَ الأَجْوِبَةِ عَلَيْها [٦٣]. وغايَتُهُ في آخِرِ المَطافِ إِعْلانُ رَأْيِهِ الشَّخْصِيّ في كُلٍّ مِنَ الأَدْيانِ الثَّلاثَةِ، باعْتِبارِ كُلٍّ مِنْها وَحْدَةً مُتَماسِكَةً لَها مُعْتَقَدُها ومُحْتَوى إيمانِها ومُسْتَنَداتُها من ناحِيَةِ الإعْجازِ، مِنْ جِهَةٍ، والتَّواتُرِ من جِهَةٍ أُخرى.

٦٣) مقدمة التنقيح، ص ١

هـ – نزاهَةُ الفِكْرِ الكَمُّونِيّ

أَدْيانٌ ثَلاثَةٌ: أَسْئِلَةٌ ثَلاثَة! وَلكِنَّ الواقِعَ أَنَّ ابْنَ كَمُّونَةَ قد عالَجَ الدِّينَ اليَهودِيّ لا كَمَسْأَلَةٍ مَطْروحَةٍ بل كَحَلٍّ جاهِزٍ وكَجَوابٍ مُسْبَق. وأَمَّا المَسيحِيَّةُ فَقَدْ وَجَدَ لَها، بَعْدَ التَرْكيزِ على المَطاعِنِ المُوَجَّهَةِ إِلَيْها، أَجْوِبَةً سَريعَةً وَغَيْرَ شافِيَةٍ بِوَجْهِ الإجْمال. وَأَمّا الضَرْبَةُ المُوجِعَةُ، في هذا الامْتِحانِ العَقْلانِيّ، فَقَدْ تَلَقَّاها الإسْلامُ فكانَ أَكْثَرَ مَن تَأَذَّى مِنْ عَمَلِيَّةِ التَنْقيحِ التي تَوَخَّاها الفَيْلَسوفُ اليَهودِيّ.

كُلُّ هذا يَطْرَحُ السُّؤال: هَلْ كانَ ابْنُ كَمُّونَةَ مُنْصِفًا نَزيهًا في أَحْكامِهِ على الأَدْيانِ الثَّلاثَة؟ لَقَدْ صَرَّحَ في مَطْلَعِ كِتابِهِ بِقَوْلِهِ: «لَمْ أَمِلْ في شَيْءٍ مِن ذَلِكَ مَعَ الهَوى، ولا تَعَرَّضْتُ لِتَرْجيحِ مِلَّةٍ على أُخرى، بل قَرَّرْتُ مباحِثَ كلِّ مِلَّةٍ إلى غايَتِها القُصْوى» [٦٤]. فَهَلْ وَفى بِوَعْدِهِ؟

لا شَكَّ أَنَّ ابنَ كَمُّونَةَ حاوَلَ الْتِزامَ المَوْضُوعِيَّةِ في عَرْضِهِ وتَمْحيصِهِ لِلأَدْيانِ الثَّلاثَةِ، وتِلْكَ صِفَةٌ قَلَّما نَجِدُها عِنْدَ مَنْ سَبَقَهُ أو عاصَرَهُ من أَصْحابِ المُصَنَّفاتِ المَعْنِيَّةِ بالمُناظَراتِ الدِّينِيَّة، وَقَدْ أَقَرَّها لَه، بِشَيْءٍ مِنَ المُبالَغَةِ، الذينَ أَلَمُّوا بِكِتابِهِ من المُحْدَثينَ والمُعاصِرين. فابْنُ كَمُّونَةَ يَتَحَرَّى الدِّقَّةَ العِلْمِيَّةَ في عَرْضِ المُعْتَقَداتِ وَذِكْرِ البَراهينِ والمَطاعِنِ والأَجْوِبَة. وهو، إلى ذلك، يَتَبَنّى ذِهْنِيًّا مَوْقِفَ أَرْبابِ المِلَّةِ التي يَعْرِضُ لَها، فَيَنوبُ مَنابَهُم في الدِّفاعِ عن مُعْتَقَدِهِم، وَيُكَمِّلُ ما نَقَصَ من أَدِلَّتِهِم [٦٥]، ويُبرِزُ ما فاتَهُم مِن حَسَناتِ دِينِهِم وإيجابِيّاتِه.

وَلكِنْ مَنْ يَجْهَلُ صُعُوبَةَ هذا الرِّهانِ الكَبير، وَوُعُورَةَ التَقَيُّدِ بالنَّزاهَةِ والإنْصافِ

٦٤) مقدمة التنقيح، ص ١

٦٥) يقول ابن كمونة في ختام عرضه للمسيحية: «وأكثر هذه الاجوبة لم أجدها في كلام النصارى، ولكني أجبت بها نيابة عنهم وتتميما للنظر في معتقدهم» (تنقيح ص ٦٦).

في البَحْثِ والتَقْويم، ولا سيَّمَا في أُمُورِ المُعْتَقَدِ والمَذْهَب؟ فالدِّينُ هُوَ مِنَ الشُؤونِ التي يَتَعَذَّرُ فِيها إلْتِزامُ الحِيادِ المُطْلَق. فَهْوَ جزءٌ من ذاتِنا ويتناوَلُ أَعْمَقَ ما في ضَميرِنا وَأَخْطَرَ ما في مصيرِنا، وَأَدَقَّ ما يُمْكِنُ أَنْ يَمَسّ إِحْساسَنا.

وَجُمْلَةُ القَوْلِ أَنَّ ابْنَ كَمُّونَةَ الفَيْلَسُوفَ اليَهُودِيّ، بالرَغْمِ مِن مُحاوَلَتِه الصَّادِقَةِ وَنَهْجِهِ الجَديدِ في الانْفِتاحِ على الغَيْر، لَمْ يُوَفَّقْ في التَجَرُّدِ تماما عن عَصَبِيَّتِهِ، والانْعِتاقِ من مَشاعِرِهِ، فكانَ شَديدَ التَساهُلِ معَ اليَهودِيَّة، مُشكِّكًا في المَسيحِيَّةِ، صارِمًا في حُكْمِهِ على الإِسْلام.

وهذا ما يُعَلِّلُ انْتِفاضَةَ العَوامّ سَنَة ١٢٨٤ على صاحِبِ «التَنقيح»، ومُطالَبَتَهُمْ الحُكَّامَ بالقَضاءِ عَلَيْه.

وهَذا ما يُبَرِّرُ رَدَّ ابْنِ المَحْرُومَةِ على «التَنْقيح»، سِتّينَ سَنَةً من بَعْدِ ظُهورِه، فكانَ آخِرَ الرُدُودِ التي أَثارَها كِتابُ الفَيْلَسوفِ اليَهُودِيّ.

الرُدُودُ على «التَنقيح»

هُناكَ لا أقلَّ مِنْ أَرْبَعَةِ رُدودٍ على كِتابِ «التَنْقيح» آخِرُها تَحْشِيَةُ ابْنِ المَحْرُومَة.

١ – الدُرُّ المَنْضُودُ في الرَدِّ على فَيْلَسوفِ اليَهود (٦٥١ – ٦٩٤ هـ/١٢٣٣ – ١٢٩٥م)

صَاحِبُه مُظَفَّرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَليّ بن تَغْلِبَ بن أَبي الضِّياء ابن السَّاعاتيّ [٦٦]. بَعْلَبَكِيُّ الأَصْلِ وُلِدَ في بَغْداد حَيْثُ اسْتُدْعِيَ والِدُهُ لِوَضْعِ السَّاعاتِ في واجِهَةِ

٦٦) نجد عنه معلومات ضافية في كتاب «تاريخ علماء المستنصرية»، ناجي معروف، بغداد ١٩٥٩، ص ٦٠

المَدْرَسَةِ المُسْتَنْصِرِيَّةِ، فلُقِّبَ وَلَدُهُ بابْنِ السَّاعاتِيّ. وَقَدْ عُيِّنَ أَسْتاذًا في المُسْتَنْصِرِيَّةِ، وانتُدِبَ شاهِدًا في مَحْكَمَةِ قاضي القُضاةِ ابن الزِنْجانِيّ الذي تَوَلَّى النَظَرَ في قَضِيَّةِ ابْنِ كَمُّونَة. وأغْلَبُ الظَنِّ أَنَّ ابْنَ الساعاتِيّ اطَّلَعَ في تِلْكَ المُناسَبَةِ على كِتابِ «التَنْقيح» لابْنِ كَمُّونَةَ وَعَقَدَ العَزْمَ على الرَّدِ عليه.

ولابْنِ السَّاعاتِيّ مُؤَلَّفاتٌ أُخْرى أَشْهَرُها «مَجْمَعُ البَحْرَيْن» [٦٧]، أَنْجَزَهُ سَنَة ٦٩٠ هـ/١٢٩١، ثُمَّ شَخَصَ إلى مِصْرَ فَلَمْ يَكُنْ حَظُّهُ فِيها أَفْضَلَ مِنْه في بَغْدادَ حَيْثُ تَرَدَّتْ، على ما يَبْدو، أَوْضاعُهُ المالِيَّة. تُوُفِّيَ سنة ٤٩٤ هـ/١٢٩٤ – ٩٥ م، عَشْرَ سِنينَ بَعْدَ وَفاةِ ابْنِ كَمُّونَة.

أَمَّا كِتابُه «الدُرّ المَنْضود»، فَلَمْ يَبْلُغْ إِلَيْنا مِنْه سِوى العُنْوانِ، وَقَدْ أَوْرَدَهُ حاجّي خَليفَة في كِتابِهِ «كَشْف الظُنون» [٦٨]، وَذَكَرَهُ ابْنُ الرَّافِعِيِّ في كِتابِهِ «مُنْتَخَب المُخْتار» [٦٩].

٢ – نُهوضُ حَثيثِ النُهودِ إلى خَوْضِ خَبيثِ اليَهود

لا نَعْرِفُ إِلَّا القليلَ عَنْ واضِعِ هذا الكِتابِ، وَهْوَ سَريجَةُ زَيْنُ الدّينِ مُحَمَّدٌ المَلَطِيُّ الشافِعِيُّ المُتَوَفّى سَنَةَ ٧٨٨هـ/١٣٨٦–٨٧م، والأَقلُّ عَنْ رَدِّهِ على كتابِ ابْنِ كَمُّونَة. أَصْلُهُ مِنْ مَلَطْيَةَ في أَرْمينيا الصُّغْرى، وعاشَ في ماردين، وَرُبَّما عَرَفَ فِيها ابْنَ المَحْرومَةَ في أَيَّامِهِ الأَخيرَة. نَجِدُ لائِحَةً بِعَناوين تآليفِهِ في كِتابِ «كَشْفِ

٦٧) انظر جرجس أفندي صفا، في مجلة المشرق ١٩٠٢، ص ١٦٤

٦٨) كشف الظنون، ليبزيغ ١٨٣٥، ص ١٩٣، رقم ٤٨٨٤.

٦٩) انظر ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، بغداد ١٩٥٩، ص ٦١

الظُنون» (٧٠) حَيْثُ نَقَع على عُنْوانِ كِتابِهِ «نُهُوض حَيْثِ النُّهود» ، مَع مُجَرَّدِ الإِشارَةِ إلى أنه رَدٌّ على كِتابِ ابْنِ كَمُّونَة.

وَيَجْدُرُ التَنْبِيهُ إلى أنَّ هَذا الرَّدَّ على «التَنْقيحِ» هُوَ مِن وَضْعِ كاتِبٍ مارْدِينِيٍّ ، وَفي ذَلِكَ ما يُثْبِتُ وَقْعَ كِتابِ ابْنِ كَمُّونَةَ في الأَوْساطِ المارْدِينِيَّة. فَفي مارْدِينَ عاشَ ابْنُ المَحْرُومَةِ صاحِبُ الحَواشي ، وناسِخُ مَخْطُوطَةِ الأَنْجيليكا ابنُ أَرْجوك ، والشَّخْصُ الذي أُهْدِيَتْ إِلَيْهِ المَخْطُوطَةُ البَرْلِينِيَّةُ لِكِتابِ «التَنْقيح» (٧١) .

٣ – كِتابُ إِثْباتِ النُبُوَّة

هو كُتَيِّبٌ غُفْلٌ غَيْرُ ذي شَأنٍ أَلْمَحَ إلى وُجودِهِ الأُسْتاذُ تانْجي في مَجْموعَةِ مَخْطوطاتِ المَكْتَبَةِ السُلَيْمانِيَّة (اسطنبول) (٧٢) .

حَواشي ابن المحرومة

النصُّ الأَهَمُّ الذي بَلَغَ إِلَيْنا في الرَّدِّ على «التَنْقيح» هُوَ مَجْمُوعَةُ الحَواشي أَوِ التَحْشِيَةُ التي وَضَعَها ابْنُ المَحْرُومَةِ في تَضاعيفِ كِتابِ الفَيْلَسوفِ اليَهودِيّ. وَهِيَ تَتَأَلَّفُ من ١٣٣ حاشِيَةً تَتَخَلَّلُ نَصَّ البابِ الثّاني (في اليَهوديَّة) والبابِ الثّالِثِ (في المسيحية) من كِتابِ «التَنْقيح».

وَيُمَهِّدُ ابْنُ المَحْرُومَةِ لِلحَواشي بِذِكْرِ واقِعَةٍ «اقْتَضَتْ كِتابَتَها في أَثْناءِ الكَلامِ على مِلَّتَي اليَهودِ والنَّصارى دُونَ غَيْرِها من هذا الكِتاب» (٧٣) . وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ هَذِهِ

(٧٠) كشف الظنون ٧ ، ص ١٢٥٦ ، رقم ٩٤٦٤.

(٧١) هو عبد الخالق كمال الدولة بريونا الماردبني

(٧٢) التنقيح ، ص XI ، حاشية ٣

(٧٣) حاشية ١

المُلاحَظَةَ هي من قَبيلِ التَورِيَةِ الأَدَبِيَّةِ ، ولا تُفيدُنا شَيْئًا في مَعْرِفَةِ الدَّواعِي الحَقيقِيَّةِ والقَرائِنِ التاريخيَّةِ التي اكْتَنَفَتْ وَضْعَ هَذِهِ الحَواشي.

وَيَتَّضِحُ من هَذِهِ الاشارَةِ التَمْهيدِيَّةِ قَرارُ ابْنِ المَحْرُومَةِ الاقْتِصارَ على «مِلَّتَي اليَهودِ والنَّصارى» دُونَ التَعرُّضِ لِمواقِفِ ابْنِ كَمُّونَةَ مِنَ الإِسْلام. وَهُوَ قَرارٌ فَطِنٌ إذا قِيسَ بِالظُروفِ السِّياسِيَّةِ والدِّينِيَّةِ التي ظَهَرَتْ فِيها الحَواشي (٧٤) .

أ – هَدَفُ الحَواشي

يَبْقى السُّؤالُ الجَوْهَرِيُّ في شَأْنِ هَذِهِ الحَواشي : ما هِيَ الغايَةُ المَقْصودَةُ منها؟ حَسْبُنا قِراءَةٌ لَها سَرِيعَةٌ ، لِلتَثَبُّتِ مِنْ أَنَّ لَها مَقْصَدَيْنِ : الطَعْنَ في اليَهودِيَّةِ والذَّوْدَ عَنِ المَسيحِيَّة.

١) الطَعْنُ في اليَهودِيَّة

فِي التَعْليقِ على كَلامِ ابْنِ كَمُّونَةَ في اليَهودِيَّةِ ، يَتَوخّى الكاتِبُ المارديني إِفْحامَ الدِّينِ المُوسوي ، وَذلِكَ بالنَيْلِ أَوَّلاً مِنْ سِيرَةِ أَتْباعِهِ وَأَخْلاقِهِمْ ، وبالطَّعْنِ ثانِيًا في التَوْراةِ ، رَكيزَةِ دِينِهِمْ وَأَساسِ مُعْتَقَدِهِم.

فاليَهودُ مُنْذُ فَجْرِ تاريخِهِمْ وَعِبْرَ أَجْيالِهِمْ ، مُتَّهَمُونَ بالكُفْرِ بِرَبِّهِم وعِصْيانِ أوامِرِهِ

(٧٤) ثمة حاشيتان وجيزتان في هامش الباب الاول ، وكأنهما عارضتان او مضافتان ، وتشيران ، بطريقة حاسمة ، الى هوية ابن كمونة اليهودية :

١ – اذا كان الامر هكذا ، فلماذا خلت توراة المصنف عنه بالكلية ، ولم يذكر فيها من هذه الكلمات؟ وكفى بذلك تبكيتا للمصنف وتسكيتا له وردّا عليه وعلى كل من يوافقه ، غير الوحدة ونفي التشبيه وكفى !

٢ – فلم خلت توراتك عن ذكر الصلاة والصيام وغيرهما كالمعاد؟

والتَنكُّرِ لِمُعْجزاتِهِ والانْجرافِ وَراءَ الأَوْثانِ والأَصْنامِ ، وهذا ما يُعَلِّلُ تَعرُّضَهُم ، خِلالَ تاريخِهِم الطَويل ، لِعِقابِ الذُّلِّ والنَّفْيِ والتَشْريد ، تَحْقيقًا لِلنُبُوَاتِ الواقِعَةِ عَلَيْهِم .

وأَمَّا زِيادَةُ التَكاليفِ المَفْروضَةِ على الأُمَّةِ اليَهوديَّة ، فَلَيْسَتْ مِنْ دَواعِي «التَشْريفِ» ، كَما يَتَوهَّمُ ابْنُ كَمُّونَة . «فَكَثْرَةُ التَكاليفِ إِنَّما تَحْتاجُها الأَنْفُسُ الشِرّيرَةُ التي تَمَكَّنَتْ مِنْها الأَخْلاقُ الرَديئَة ... وعلى هَذا ، لا تَكونُ الزِيادَةُ المَذْكُورَةُ تَشْريفًا لَهُمْ – كما قال المُصَنِّف – بَلْ إِنَّما تَكونُ قُيودًا تَمْنَعُهُم عَن سُلوكِ السُّبُلِ الرَديئَةِ التي في طِباعِهِم المَيْلُ إلى سُلوكِها ...» (٧٥) .

ثُمَّ «لِمَ لا يَجوزُ – يَقولُ ابْنُ المَحْرومَةِ – أَنْ تكونَ زِيادَةُ التَكاليفِ جُعِلَتْ لَهُم عَثْرَةً تَتَضاعَفُ أَوزارُهُمْ بِتَجاوُزِها ، فَيَشْتَدُّ بِها عذابُهُم في الدُّنيا وَعُقُوبَتُهُمْ في الآخِرَة ...» (٧٦) .

وقُصارى القَوْلِ أَنَّهُ مِنْ نِعَمِ اللهِ على البَشَرِ أَنَّهُ أَراحَهُمْ مِنْ حَمْلِ أَثْقالِ الشَّريعَةِ المُوسَوِيَّة ، وأَعْفاهُمْ مِن الدُّخولِ تَحْتَ اللَّعْنَةِ التي ... لا بُدَّ وأَنْ تَلزَمَ أَهْلَ المِلَّةِ اليَهُودِيَّةِ إِذا خالَفُوا شَيْئًا مِنْ أَوامِرِ التَوْراةِ ونَواهِيها ...» (٧٧) .

هَذا ولا يَقْتَصِرُ ابْنُ المَحْرومَةِ على الطَّعْنِ في أَتْباعِ المِلَّةِ اليَهوديَّة بل يَتَناوَلُ

٧٥) حاشية ٩ أ

٧٦) حاشية ١٠

٧٧) حاشية ٨ هـ

التَوْراةَ نَفْسَها بالثَلْبِ والتَجْريح (٧٨) . فالتَوْراةُ ، في نَظَرِ صاحِبِ الحَواشي ، كِتابٌ مَشْبُوهٌ مُلَفَّقٌ ومَنْسوخ .

أَمَّا الشُبْهَةُ الواقِعَةُ على التَوْراةِ فلاشْتِمالِها على الكَثيرِ مِنَ القَصَصِ الخَلاعِيّ ، وَلِدَعْوَتِها إلى المَخازي واتِّباعِ الهَوى وسَفْكِ الدِّماء ، وَلِتَضَمُّنِها جَمًّا مِنَ الأَخْطاءِ والمُغالَطاتِ والتَناقُضاتِ وعِباراتِ التَشْبيهِ والتَجْسيم ، وَلِخُلُوِّها من بَعْضِ ما يُعْتَبَرُ من أَرْكانِ الدِّينِ كالدَعْوَةِ إلى الصلاةِ والصَّوْم ، والإيمانِ باليَوْمِ الأَخير ... (٧٩) .

مِثْلُ هذا الكِتابِ الحافِلِ بالمَفاسِدِ والمَغالِطِ – في نَظَرِ ابْنِ المَحْرومَة – لا يُمْكِنُ إِلَّا أَنْ يَكونَ مُلَفَّقا . وَهَذا ما يُعَلِّلُ مواقِفَهُ الصّارِمَةَ مِنَ التَوْراةِ وَتَهَجُّماتِهِ المُتَمادِيَةَ عَلَيْها . وفي ذَلِكَ ما يَتَعارَضُ والتَقْليدَ المَسيحِيّ في الشَّرْقِ الذي لَمْ يُخامِرْهُ شَكٌّ – في ما عَدا بَعْضَ الأَحْوالِ النادِرَةِ – في صِحَّةِ التَوْراةِ وُوُجوبِ إِيلائِها الحُرْمَةَ المَرْعِيَّةَ في تَداوُلِ الكُتُبِ المُنْزَلَة .

صِفَةُ التَلْفيقِ هَذِهِ يُعْلِنُها ابْنُ المَحْرومَةِ صَراحَةً في غَيْرِ مَوْضِعٍ من حَواشيهِ ؛ فالتَوْراةُ لَيْسَتْ كِتابَ مُوسى بَلْ كِتابَ عَزْرا : «فهَذا الذي نَقَلْناهُ وَأَمْثالُه يَدُلُّ على صِدْقِ قَوْلِ المُعْتَرِضِ أَنَّ التَوْراةَ كِتابُ عَزْرا لا كِتابُ الله» (٨٠) .

وَلَيْسَ المَقْصودُ بالتَلْفيقِ هُنا إِدْخالَ التَحْريفِ أَوِ التَبْديلِ على نَصِّ التَوْراة ، بَل

٧٨) سوف نعرض لاحقا للأسباب التي دفعت هذا الكاتب المسيحي الى الوقوف من التوراة هذا الموقف المستغرب .

٧٩) «فان كانت هذه التوراة هي التي انزلت فكيف استجاز موسى عليه السلام الاخلال بذكر هذا الامر (المعاد والثواب والعقاب الاخروي) ، الذي هو أهم مهات الشرائع الصحيحة ، مع انه ذكر اشياء لا فائدة منها» (حاشية ١٣ ز). انظر ايضًا حاشية ٤٧ .

٨٠) حاشية ١٧ ت. انظر ايضا الحواشي ٢٣ ، ٣٢ ، ٨٧

اسْتِبْدالَ النَّصِّ المُنْزَلِ كُلِّهِ بِنَصٍّ مُسْتَحْدَثٍ لا يَمُتُّ إلى التَوْراةِ بِصِلَة. وَعَبَثًا يُحاوِلُ الفَيْلَسُوفُ اليَهودِيُّ اسْتِبْعادَ تُهْمَةِ التَجْديدِ عَن عَزْرا، وَهْوَ الرَّجُلُ «المَشْهُورُ بالتَعْظيمِ وَكَثْرَةِ الخَيْرِ والدِّينِ... فَلا يُتَصَوَّرُ في حَقِّهِ أَنْ يَسْتَحِلَّ تَحْريفَ كِتابِ الله تعالى وَتَجْديدَهُ...»(٨١) فَدِيانَةُ عَزْرا وَخَيْرِيَّتُهُ – يُجيبُ ابْنُ المَحْرُومَةِ – «هِيَ مِنْ أَعْظَمِ البَواعِثِ على تَلْفيقِ كِتابٍ يَنوبُ عَنِ الكِتابِ الذي ذَهَبَ، إِشْفاقًا على المِلَّةِ لِئَلَّا تَضْطَرِبَ أُمُورُهُمْ وَتَفْسُدَ مَصالِحُهُم وَتَميلَ قُلوبُهُم إلى مُتابَعَةِ بَعْضِ الأُمَم. وفي هَذِهِ الأُمورِ مِنَ المَحْذورِ أَضْعافُ ما في تَلْفيقِ كِتابٍ تَنْضَبِطُ فيهِ أُمُورُهُمْ إلى أَنْ يَبْعَثَ الله رَسولاً يُجَدِّدُ لَهُمْ شَريعَةً تُغْنيهِمْ عَنْ هَذا الكِتابِ المُلَفَّق»(٨٢).

هذا الكِتابُ، على عِلاَّتِهِ، لَم تَنِ الأُمَّةُ اليَهودِيَّةُ عَنْ مُخالَفَتِهِ والخُروجِ على شَرائِعِهِ وعِصيانِ أَوامِرِهِ والانْحِرافِ بِهِ عَنْ مَقاصِدِهِ، والزِّيادَةِ على فَرائِضِهِ. فَفَريضَةُ مُوسى قَدِ انْتَسَخَتْ من تِلْقاءِ ذاتِها، بِتَنَكُّرِ أَصْحابِها لَها، وانْتِقادِهِمْ لِمُعْتَقَداتِها وتَشْريعاتِها، ذَلِكَ بِشَهادَةِ الأَنْبِياءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَمْثالِ إِرْمِيا وأَشْعْيا وميخا...(٨٣)

فالشَّريعَةُ المُوسَوِيَّةُ، قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ المَسيحُ بِنَقْضِها، كانَتْ تَحْمِلُ في ذاتِها جُرْثومَةَ الانْتِساخِ، سَواءٌ بِتَطاوُلِ أَصْحابِها عَلَيْها، زِيادَةً وَنُقْصانًا، أو بِسَماحٍ مِن بَعْضِ أَوْلِياءِ

---

٨١) تنقيح، ص ٣٢

٨٢) حاشية ٢٣. من الممكن ان يكون ادعاء التلفيق هذا مستوحى من كتاب «إفحام اليهود» لسموأل المغربي وكتاب «الفصل» لابن حزم، الجزء الأول، القاهرة ١٣٢٠ هـ، ص ١٨٦ – ٢٠٣. راجع أيضًا:

M. Schreiner im *ZDMG 42* (1888) p. 658 (arabe), 617 (allemand); M.Perlmann, in *Journal of Jewish Bibliography*, New-York 1942, p. 71-74; id. in *Studi Orientalistici in onore di Giorgio della Vida*, vol. II, Roma 1956; Id. in Samaw'al al-Māgribī, *Ifḥām al-Yahūd*, New York 1964, p. 50-51.

٨٣) حاشية ١٥ و٥٥

الأَمْرِ فيها، كانْتِقاضِ السَّبْتِ يَوْمَ حِصارِ أَريحا، وَتَقْريبِ الذَّبيحَةِ خارِجَ الهَيْكَلِ على يَدِ إيليَّا، وإقْدامِ داوودَ وَصَحْبِهِ على تَناوُلِ خُبْزِ التَقْدِمَةِ، وما سِوَى ذَلِكَ مِمَّا يُسْهِبُ ابنُ المَحْرُومَةِ في تَعْدادِهِ(٨٤).

٢) الذَّوْدُ عَنِ المَسيحِيَّة

ثَمَّةَ طائِفَةٌ أُخرى مِنَ الحَواشي – وَمُعْظَمُها في مَعْرِضِ الرَّدِّ على كَلامِ ابْنِ كَمُّونَةَ في المُعْتَقَدِ المَسيحِيِّ (البابِ الثالِث) – تَتَميَّزُ بالغايَةِ والمَنْهَجِيَّةِ الدِّفاعِيَّة. فَبَيْنَما ابْنُ المَحْرومَةِ في تَعاليقِهِ على البابِ الثاني (في المُعْتَقَدِ اليَهودِيِّ)، مُتَهَجِّمٌ لاذِعٌ، نَراهُ في دِفاعِهِ عَنِ المَسيحِيَّةِ يَنْتَهِجُ أُسْلوبَ التَشَكّي مِنْ خَصْمِهِ والتَبَرُّمِ بِجَهْلِهِ والتَنْديدِ بِتَعَصُّبِهِ، والتَظَلُّمِ مِنْ تَحَيُّزِهِ وتَغَرُّضِهِ، وَيَجْهَدُ في الذَّوْدِ عن مُعْتَقَدِهِ المَسيحِيِّ بِطَرائِقَ شَتَّى مِنَ التَهَكُّمِ والسُخْرِيَّة.

وَيَتَمَيَّزُ أَيْضًا هذا القِسْمُ مِنَ الحَواشي بالمَوْقِفِ المَسيحِيِّ المُوَحَّد. فَقَدْ أَعْلَنَ الكاتِبُ المارْدينِيُّ مُنْذُ البَدْءِ قَصْدَهُ التَنْبيهَ على غَلَطِ الطاعِنينَ في مُطْلَقِ المِلَّةِ النَصْرانِيَّةِ لا في مَذاهِبِ الفِرَقِ المُنْتَمِيَةِ إِلَيْها(٨٥).

والواقِعُ أَنَّ ابْنَ المَحْرومَةِ، في مُواجَهَتِهِ لِلْخَصْمِ اليَهودِيِّ، بَرَّ بِوَعْدِهِ في الْتِزامِ النَظْرَةِ المَسيحِيَّةِ المُوَحَّدَةِ، فَدَأَبَ بِكَثيرٍ مِنَ الحِنْكَةِ واللَّباقَةِ، بَلْ مِنَ التَعَنُّتِ والتَحايُلِ أَحْيانًا، في تَجَنُّبِ مواقِعِ الخِلافِ بَيْنَ الفِرَقِ المَسيحِيَّةِ، والبُروزِ لِنِدِّهِ

---

٨٤) حاشية ١٥ و، ز

٨٥) حاشية ١٠١ أ

بمواقفَ وبَراهِينَ تَعْكِسُ مُعْتَقَدًا مَسيحِيًّا مُتَماسِكًا، مُتَوَخِّيًا بِذَلِكَ «رِضى النَصْرانِيَّةِ مُطْلَقًا لا غَيْرَ، لا رِضى جَميعِ فِرَقِ المِلَّةِ النَصْرانِيَّة» [٨٦].

وَلَعَلَّ في هذا الرَفضِ الحازِمِ للصُورَةِ المَسيحِيَّةِ المُتَصَدِّعَةِ، مَكْمَنَ الصُعوبَةِ في الوُقوفِ على هُوِيَّةِ ابْنِ المَحْرومَةِ الطائِفِيَّة، انْطِلاقًا مِن نَصِّ الحَواشي.

أَمَّا المَباحِثُ الرَئيسيَّةُ التي تَنْتَظِمُ حَوْلَها الحَواشي الدِّفاعِيَّةُ فَلَيْسَ باليَسيرِ ضَبْطُها وتَحْديدُها. ولا غَرْوَ، فالتَحْشِيَةُ، من طَبيعَتِها، لَوْنٌ عَفْوِيٌّ، لا يَدْخُلُ في قالَبٍ ولا يَخْضَعُ لِقاعِدَةٍ إلَّا لِقاعِدَةِ المُبارَزَةِ الفِكْرِيَّةِ والتَّصَدّي الآنِيِّ لِتَحدِّياتِ الخَصْمِ. ومَعَ ذَلِكَ، فَهُناكَ مَسائِلُ ثَلاثٌ تَسْتَقْطِبُ شَتاتَ الحَواشي:

١ – نَقْضُ السَّيِّدِ المَسيحِ للشَريعَةِ المُوسَوِيَّة

٢ – حَقيقَةُ المُعْجِزاتِ المَنْسوبَةِ إلى السَّيِّدِ المَسيحِ وأَصْحابِهِ

٣ – الدِّفاعُ عَنِ التَثْليثِ والتَأَنُّس.

١ – نَقْضُ السَّيِّدِ المَسيحِ للشريعَةِ المُوسَوِيَّة

لا يَمَلُّ ابْنُ كَمُّونَةَ مِنَ التَأْكيدِ أَنَّ السَّيِّدَ المَسيحَ لَمْ يَنْقُضِ التوراةَ بَلْ ظَلَّ «مُتَمَسِّكًا بِفَرائِضِها إلى آخِرِ وَقْتِهِ، وكَذا أَصْحابُهُ بَعْدَ رَفْعِهِ. إلَّا أَنَّ بُولُس مَنَعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ بَعْدَ زَمانٍ طَويلٍ، عِنْدَ احْتِياجِهِمْ إلى مُخالَطَةِ سائِرِ الأُمَم» [٨٧].

فَيُجيبُ صاحِبُ الحَواشي على ذَلِكَ بِأَنَّ أَصْحابَ المَسيحِ، فَوْرًا مِنْ بَعْدِ حُلولِ الرُّوحِ القُدُسِ عَلَيْهِم، تَفَرَّقوا في البِلادِ وَدَعوا النَّاسَ إلى دِينِ النَصْرانِيَّة، وكانَ ذَلِكَ

٨٦) حاشية ٩١ ب

٨٧) تنقيح صفحة ٤٨، ٥٤

قَبْلَ دُخولِ بُولُسَ في دِينِ النِصْرانِيَّةِ بِسَنَواتٍ كَثيرة» [٨٨]، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ سِوى أَقْوامٍ ظَلُّوا في البِقاعِ القَريبَةِ مِنَ القُدْسِ، على طاعَةِ الشَّريعَةِ المُوسَوِيَّة.

والسَّيِّدُ المَسيحُ نَفْسُه، أَلَمْ يَأْمُرْ بِحَلِّ السَبْتِ، فكانَ تَشْنيعُ اليَهودِ به عاقِبَةَ نَقْضِهِ للشَريعَةِ المُوسَوِيَّة [٨٩]. «فَإِنَّ السَّيِّدَ المَسيحَ لَوْ تَمَسَّكَ بِفَرائِضِ التَوْراةِ، كَما ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ، لَما كانَ لِليَهودِ إلى قَتْلِهِ مِن سَبيل. فَإِنَّ أَعْظَمَ ما شَنَّعُوا عَلَيْهِ بِهِ كانَ حَلَّ السَبْتِ، لِأَنَّهُ في سُبوتٍ مُتَفَرِّقَةٍ فَتَحَ عَيْنَيِ الأَكْمَهِ وَأَبْرَأَ يَدَ الأَشَلِّ وَأَقامَ المُحَلَّلَ الذي كانَ مُلْقًى مُنْذُ ثَلاثينَ سَنَةً، وَأَمَرَهُ بِحَمْلِ سَريرِهِ، وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا نُقِلَ عَنْه» [٩٠].

هَذا، وَلَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ المَسيحُ بِحاجَةٍ الى نَقْضِ شَريعَةٍ كانَ أَصْحابُها وَأَوْلياءُ أَمْرِها مِنْ قَبْلِهِ قَدْ أَنْجزوا عَلَيْها، كَما سَبَقَ القَوْل. وإذْ أَقْبَلَ الرُّسُلُ على فَرْكِ السُّنْبُلِ يَوْمَ السَّبْتِ وَأَخَذَ عَلَيْهِم اليَهودُ هذا النَقْضَ السَّافِرَ للشَريعَةِ المُوسَوِيَّةِ، اكْتَفى السَّيِّدُ المَسيحُ، دِفاعًا عَنْ أَصْحابِهِ، بالتَذْكيرِ بِما فَعَلَهُ داوُود وَأَصْحابُهُ يَوْمَ أَكَلوا مِنْ خُبْزِ التَقْدِمَةِ الذي لا يَحِلُّ أَكْلُهُ، بِمُقْتَضى الشَريعَةِ المُوسَوِيَّة، إلا لِلْكَهَنَةِ وَحْدَهُم.

وَلَكِنْ كَيْفَ نُفَسِّرُ قَوْلَ السَّيِّدِ المَسيح: «إِنّي ما جِئْتُ لِأَنْقُضَ التَوْراةَ وَلَكِنْ جِئْتُ لِأُتَمِّمَها»؟ النَقْضُ، في نَظَرِ ابْنِ المَحْرومَةِ، يَكونُ إِمَّا لِلْهَدْمِ وإِمَّا لإعادَةِ البِناء. وظاهِرٌ أَنَّ المَسيحَ لَمْ يَنْقُضِ الشَريعَةَ المُوسَوِيَّةَ إلا لِتَتْميمِها بِذِكْرِ ما أَغْفَلَتْهُ مِنْ شُؤونِ

٨٨) حاشية ٨٦ أ، ب

٨٩) حاشية ٨٥، ٨٨، ١٢٦

٩٠) حاشية ٨٥ ب

الصَوْمِ والصَلاةِ والبَعْثِ والمُجازاةِ الأُخْرَوِيَّة. فالذي يَهْدِمُ جداراً لِيَبْنِيَ فَوْقَهُ لا يُدْعَى ناقِضًا بل مُتَمِّمًا[٩١].

تفسيرٌ بارعٌ، وَلكِنَّهُ يُحمِّل ابْنَ المَحْرومَةِ وِزْرَ التَناقُضِ مع ذَاتِه. فإذا كانَ السَّيِّدُ المَسيحُ لَمْ يَنْقُضْ مِنَ الشَّريعَةِ المُوسَوِيَّةِ إلَّا بِمِقْدارِ ما يُمَكِّنُهُ مِنْ رَفْعِ بِنائِها والبُلوغِ بِها إلى غايَتِها القُصْوى فَذلِكَ الدَّليلُ عَلى أَنَّ التَوْراةَ لَيْسَتْ كُلُّها، كَما صَوَّرها لَنا صاحِبُ الحَواشي، مَفْسَدَةً للمُعْتَقَداتِ والأَخْلاقِ.

٢ - مُعجِزاتُ السَّيِّدِ المَسيحِ وَأَصْحابِهِ

هُناكَ مَبْحَثٌ آخَرُ مِن مَباحِثِ ابْنِ المَحْرومَةِ في دِفاعِهِ عَنِ المَسيحِيَّة، وَهْوَ التَنويهُ بِحَقيقَةِ المُعْجِزاتِ المَنْسوبَةِ إلى المَسيحِ وَأَصْحابِهِ.

هَذا اللَّوْنُ مِنَ الدِّفاعِ مَبْعَثُهُ ادِّعاءُ ابْنِ كَمُّونَةَ في غَيْرِ مَوضِعٍ مِنَ «التَنْقيح» أَنَّ مُعْجِزاتِ مُوسى أَعْظَمُ وَأَقَلُّ تَعَرُّضًا لِشُبْهَةِ الحيلَةِ والتَواطُؤِ مِنْ مُعْجِزاتِ المَسيحِ وَأَصحابِهِ.

وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْعَنَ ابْنُ المَحْرومَةِ في مُعْجِزاتِ مُوسى – الذي يُجلّه وَيُؤْثِره على غَيْرِهِ مِنْ أَنْبِياءِ العَهْدِ القَديمِ – نَراهُ يُجابِهُ بِشِدَّةٍ مُحاولاتِ ابْنِ كَمُّونَةَ النَّيلَ مِنْ مُعْجِزاتِ السَّيِّدِ المَسيحِ وَأَصْحابِهِ. «فَمُوسى ما أَبْرَأَ أَكْمَهَ ولا أَحْيا مَيْتًا ولا أَقامَ زَمِنًا ولا طَهَّرَ أَبْرَص»[٩٢].

وَأَمَّا أَنْ تَكونَ مُعجِزاتُ السَّيِّدِ المَسيحِ وَأَصْحابِهِ قَدْ وَقَعَتْ بالحيلَةِ أو بالتَواطُؤِ

٩١) حاشية ١٢٥

٩٢) حاشية ٩١

فَمَرْدُودٌ بِدَليلِ أَنَّها تَمَّتْ بِمَشْهَدٍ مِن المُقاوِمينَ والمُعارِضِينَ، وَأَنَّها «عَمَّتْ في الأَصْقاعِ أَضْعافَ ما عَمَّتْهُ مُعْجِزاتُ مُوسى. وَعَمَّتْ مِنَ البَشَرِ... خَلْقًا يَزيدُ مَبْلَغُ بَعْضِهِ عَلى جُمْلَةِ أَهْلِ زَمانِ مُوسى... وَفي طَيِّ ذَلِكَ الخَلْقِ مِنَ الأُمَمِ المُخْتَلِفَةِ والمَمالِكِ العَديدَةِ التي دَخَلَتْ في دِينِ النَصْرانِيَّةِ بِسَبَبِ تِلْكَ المُعْجِزاتِ ما لا يَسَعُ المُعانِدَ النِزاعُ في أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ جُمْلَةِ اليَهودِ الذينَ كانوا في زَمانِ مُوسى بِأَضْعافِ الأَضْعافِ»[٩٣].

٣ - التَثْليثُ والتَأَنُّس

المَوْضُوعُ الثالِثُ الذي تَعرِضُ له حَواشي ابنِ المَحْرُومَة، يَتَّصِلُ بالدِّفاعِ عن سِرَّي الثَّالوثِ والتَأَنُّس. في هذا المَجال، يَلْتَزِمُ صاحِبُ الحَواشي خَطًّا من القَناعَةِ والاقْتِضابِ «والاقْتِصارِ على القَليل» يُنَبِّه إليه في مَطْلَعِ تَعْليقاتِه على البابِ الثَّالِث، مُعْرِبًا عن اقْتِناعِهِ «بالأَجْوِبَةِ التي ذَكَرَها المُصَنِّفُ [ابنُ كَمُّونَة] إلَّا في مَواضِعَ قَليلَةٍ أَهْمَلَها أو لَمْ يَسْتَوْفِ الجَوابَ عَنْها»[٩٤].

وَيَرى الكاتِبُ المارْدِينِيُّ أَنَّ «إِشْباعَ الكَلامِ في دِينِ النَّصارى تَضيقُ عَنْهُ هَذِهِ الحَواشي لِوُجوهٍ يَطولُ ذِكْرُها...» وَأَنَّ جُلَّ مُبْتَغاهُ «تَنْبِيهُ القارِئِ على حالِ الطّاعِنينَ في هذا الدِّينِ هل أَنْصَفوا في الطَعْنِ أَم لا...»[٩٥] مَعَ العِلْمِ، أَخيرًا، أَنَّ الدِّينَ المَسيحِيَّ يَشْتَمِلُ على وُجوهٍ من المُعْتَقَدِ تَتَجَلَّى فيها «حِكْمَةُ اللهِ الخَفِيَّةُ عن عُقولِ العُقَلاءِ من البَشَر، بل عَنِ المَلائِكَةِ المُقَرَّبين»[٩٦].

٩٣) حاشية ٧ ب

٩٤) حاشية ٩١ أ

٩٥) حاشية ٩١ ب

٩٦) حاشية ١٢٠

وَمَعَ ذَلِكَ يَبقى في الدِّينِ هامِشٌ يَسوغُ فيهِ إِعْمالُ البُرْهانِ والتَذَرُّعُ بالأَقْيِسَةِ العَقْلِيَّةِ. فالعَدَدُ الثُّلاثيُّ للأَقانِيمِ الإِلَهِيَّةِ مَثَلاً يُفسِّرُهُ التمْييزُ بَيْنَ الصِّفاتِ الذَّاتِيَّةِ «وَهِيَ الصِّفاتُ التي تَصْدُقُ عَلَيْهِ تعالى أَزَلاً وأَبَدًا، سَواءٌ وُجِدَتِ المَخْلوقاتُ أم لا ... والصِّفاتِ الفِعْلِيَّةِ الفَقيرَةِ إلى التَعلُّقِ بِشَيْءٍ من المَخْلُوقاتِ» [٩٧].

وَيَكْتَفي ابْنُ المَحْرُومَةِ بِهذا البُرْهانِ مُعْرِضًا عَنِ الخَوْضِ في تَفاصِيلِ بَحْثٍ لاهوتِيٍّ كانَ بإمْكانِهِ أَن يُجابِهَ بِهِ اعْتِراضاتِ خَصْمِهِ بِطَرِيقَةٍ أَقْرَبَ إلى الإِقْناعِ.

أَمَّا وَحْدَةُ الجَوْهَرِ في اللهِ فهي – على حَدِّ قَوْلِ ابْنِ المَحْرُومَةِ – مُعْتَقَدٌ مَسيحيٌّ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ جَميعُ النَّصارى على اخْتِلافِ فِرَقِهِم. وَلكِنَّ وَحْدَةَ الجَوْهَرِ، بِتَثْليثِ الأَقانِيمِ، لا تَعْني أَنَّ الآبَ هُوَ الإِبْنُ وأَنَّ الابْنَ هو الآب. فَوَحْدَةُ الجَوْهَرِ وتَمَيُّزُ الأَقانِيمِ هُما رَكيزَةُ سِرِّ التَّثْليثِ [٩٨].

وَيُؤَيِّدُ ابْنُ المَحْرُومَةِ، في تَفْسيرِ سِرِّ الثالوث، نَظَرِيَّةَ ابنِ عَدِيٍّ، «أَنَّ اللهَ كَوْنَه عَقْلاً مُجَرَّدًا هُو الآب، وَكَوْنُهُ عاقِلاً لِذاتِهِ هُوَ الإِبْن، وَكَوْنُ ذاتِهِ مَعْقُولَةً له فَهُوَ الرُّوحُ القُدُس» [٩٩].

***

مَوْقِعٌ آخَرُ من مواقِعِ الالْتِباسِ في فَهْمِ العَقيدَةِ المَسيحِيَّةِ، هو سِرُّ اتِّحادِ الطَبيعَتَيْنِ في السَّيِّدِ المَسيح. فاعْتِبارُ الاتِّحادِ لَوْنًا من أَلوانِ «المُمازَجَةِ أو المُخالَطَةِ أَو التَّرْكيبِ» – كما يَتَوَهَّمُ المُعْتَرِضُ – «لا يَجوزُ في دِينِ النَّصارى»، وابْنُ

٩٧) حاشية ٩٢

٩٨) حاشية ٩٧

٩٩) حاشية ١٠٠ أ

المَحْرُومَةِ يَتَصَدَّى لِهذِهِ النَظَرِيَّةِ أَشَدَّ التَصَدِّي، مُنْكِرًا على «بَعْضِ عُلَماءِ فِرْقَةٍ من فِرَقِ النَّصارى» تَشْبيهَ اتِّحادِ اللاَّهُوتِ والنَّاسُوتِ «باتِّحادِ نَقْشِ الفصِّ بالشَّمْعِ». فَهَذا التَشْبيهُ – في نَظَرِ ابْنِ المَحْرُومَةِ – إِنَّما هو على سَبيلِ «التَقْرِيبِ إلى أَذْهانِ العَوامِّ، وَلَيْسَ مِن شَرْطِ المِثالِ المُماثَلَةُ مِن جَميعِ الوُجوه» [١٠٠].

وَيَتَّضِحُ مِنَ الحَواشي أَنَّ لُبابَ المُعْضِلَةِ، في المَطاعِنِ المُوَجَّهَةِ إلى عَقيدَةِ التَأَنُّس، هُوَ عَدَمُ التَمْييزِ «بَيْنَ أُقْنومِ الابْنِ الأَزَلِيِّ المُتَّحِدِ بالسَّيِّدِ المَسيحِ وأُقْنُومِ الآبِ المُنَزَّهِ عَنْ ذَلِكَ وَحَمْلُ الكَلامِ المَنْسوبِ إلى السَّيِّدِ المَسيحِ باعْتِبارِ ناسُوتِهِ على أَنَّهُ مَنْسوبٌ إلى الآبِ باعْتِبارِ مُجَرَّدِ لاهوتِه» [١٠١].

فالخَصْمُ الذي يَسْتَعْرِضُ «التَنْقيحُ» اعْتِراضاتِهِ على السَّيِّدِ المَسيحِ يُرَكِّزُ انْتِقادَهُ على فِكْرَةِ إِلهٍ خاضِعٍ لأَحْوالِ البَشَرِ، فَيَحْصُرُ ابْنُ المَحْرُومَةِ هَمَّهُ في رَفْعِ هذا الالْتِباسِ الصَّفيقِ وَهَذِهِ المُغالَطَةِ المُغْرِضَةِ الدَّالَّةِ على «قِلَّةِ إِنْصافِهِ وَكَثْرَةِ مَيْلِهِ مَعَ هَوى نَفْسِهِ طَلَبًا لِرِضى اليَهود» [١٠٢].

وَلكِنَّ ابْنَ المَحْرُومَةِ لا يَجِدُ لِدَفْعِ هَذِهِ الاعْتِراضاتِ سِوى بَراهِينَ بَسيطَةٍ وسَرِيعَةٍ، بَعيدَةٍ عن مُجاراةِ العُمْقِ الفَلْسَفِيِّ الذي تَتَمَيَّزُ بِه، مَثَلاً، كِتاباتُ ابْنِ قُرَّةَ وابنِ عَدِيٍّ وبُولُسَ الأَنْطاكِيِّ وَغَيْرِهِم مِمَّنْ تَطَرَّقُوا إلى هَذا المَوْضوع. فالكاتِبُ المارْدِينيُّ لا يَنِي يُرَدِّدُ في وَجْهِ الذينَ يُنْكِرُونَ على اللهِ تَرَدِّيَهُ في أَحْوالِ البَشَرِ وَخُضوعَهُ لِعَوامِلِ الطَبيعَةِ «أَنَّ النَّصارَى لا يَنْسُبونَ ذَلِكَ إِلَّا إلى ناسُوتِ المَسيح، وَهُم عَن

١٠٠) حاشية ٩٦

١٠١) حاشية ١١٨

١٠٢) حاشية ١١٨

آخرهم يُنزّهون اللهَ تنزيهًا»[١٠٣] وأنَّ المَسيحَ ، باتّفاقِ الطَوائفِ المَسيحيَّةِ كُلِّها ، «إنَّمَا ساوى الناسَ بناسُوتِهِ في جَميعِ أحْوالِهِمْ ما عَدا الخَطيئةَ»[١٠٤] .

فَإذا ثَبَتَ ، بإجْماعِ المَسيحيّينَ كُلِّهِم ، أنَّ جَسَدَ المَسيحِ شَبيهٌ بسائِرِ الأجْسادِ البَشَريَّةِ ، في ما هُوَ مِنْ حاجاتِ البَدَنِ وَمُقْتَضَياتِ المادَّة ، فَلِمَ التَنكُّرُ لِلْمَلامِحِ البَشَريَّةِ التي وَسَمَتْ سيرَةَ المَسيحِ الأرْضيَّة؟ «ومَعْلُومٌ أنَّ البَدَنَ لا بُدَّ لَهُ مِنَ الأكْلِ والشُرْبِ وسائِرِ الضَروريَّاتِ ، والنَّصارى جَميعُهُم يَعْتَرِفُونَ بِأنَّ بَدَنَ السَّيِّدِ المَسيحِ يُساوي أبْدانَ النَّاسِ في الأُمورِ الضَّروريَّةِ التي لا يَسْتَغْني عَنْها البَدَنُ ما دامَ حَيًّا... فَهَذا الاعْتِراضُ لا يُقِرُّهُ النَّصارى لأنَّهُ مَخصوصٌ بالبَدَنِ وَحْدَهُ ، ولا تَعلُّقَ لَهُ بالنَفْسِ النَّاطِقَةِ ، فكَيْفَ يَتَعلَّقُ ذَلِكَ وأمْثالُهُ بالسِرِّ العَزيزِ؟»[١٠٥] .

وَيَتَحاشَى ابْنُ المَحْرُومَةِ ، كَعادَتِهِ ، التَوَغُّلَ في تَفاصيلِ نِقاشٍ نَظَريٍّ في طَبيعَةِ جَسَدِ المَسيحِ[١٠٦] ، مُكْتَفِيًا في تَفْسيرِ فِكْرَتِهِ بالتَمْثيلِ على اتّحادِ الطَبيعَتَيْنِ ، «باتِّحادِ النَّارِ بالفَحْمَةِ وَصَيْرورَتِها جَمْرَةً»... فَكَمَا أنَّهُ لا يَجوزُ عِنْدَ العاقِلِ الحُكْمُ على النَارِ بمَا يَجُوزُ بِهِ الحُكْمُ على الفَحْمَةِ المُتَجَمِّرَةِ من أنها تَنْسَحِقُ أو يَكونُ وَزْنُها كَذا

---

١٠٣) حاشية ١٠٤

١٠٤) حاشية ١٠٦

١٠٥) حاشية ١٠٧

١٠٦) من المفيد لفت النظر هنا الى بحوث الأب بنيامينو إمّي في مفهومي «جسد انسان» «وجسد انسانيّ» كما وردا في كتابات اوتيخا . ويرى إمّي ان الفرق الذي يقيمه اوتيخا بين هاتين العبارتين ، يمكن فهمه بوجه صحيح لا يتنافى والتعليم الرسمي في الكنيسة . فهو اذ ينكر ان يكون للمسيح «جسد انسان» بل «جسد انسانيّ» ، انما يتصدى بذلك للنظرية النسطورية ، منكرا ان يكون في المسيح ذات انسانية قائمة بذاتها .

P. Benjamino Emmi, o.p., *Leone ed Eutiche,* in Angelicum XXIX (1925), p. 3-42.

وكذا ، فكذلِكَ لا يَجوزُ عِنْدَهُ الحُكْمُ على لاهوتِ السَّيِّدِ المَسيحِ بمَا يَحْكُمُ بِهِ على ناسوتِهِ مِنَ الأُمورِ البَدَنيَّةِ كالجُوعِ والتَعَبِ والنَوْمِ والسَّهَرِ وما يُشْبِهُ ذَلِكَ...»[١٠٧] .

أمَّا لاهوتُ السَّيِّدِ المَسيحِ فابْنُ المَحْرومَةِ يُبَرْهِنُ عليهِ بأدِلَّةٍ سَريعَةٍ ، يَسوقُها في مَعْرِضِ الرَّدِّ على ادِّعاءاتِ ابْنِ كَمُّونَةَ بِأنَّ موسى أسْمَى شأنًا من السَّيِّدِ المَسيحِ ، «وَقَد كَلَّمَهُ اللهَ مِرارا لا تُحصَى وَلَمْ يُكَلِّمْ وَلَدَهُ وَحَبيبَهُ إلّا مَرَّةً واحِدَةً ، اذ جاءَهُ صَوْتٌ مِنَ السَّماءِ يَقول : «مَجَّدْتُ وأيْضًا أُمَجِّدُ» (يوحنا ١٢/٢٨)»[١٠٨] .

فَيُجيبُ ابْنُ المَحْرُومَةِ أن «في شَرَفِ السَّيِّدِ المَسيحِ الباطِنِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَرَفٍ ظاهِرٍ»[١٠٩] «وأنَّ المُخاطَبَةَ تَكونُ لِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُخاطَبِ حِجابٌ يَسْتُرُ عَنْهُ الأمْرَ المُخاطَبَ بِهِ. ونَحْنُ لا نَعْتَقِدُ أنَّ بَيْنَ السَّيِّدِ المَسيحِ وبَيْنَ اللهِ حِجابًا ، وإلّا لَتَكَرَّرَتِ المُخاطَبَةُ مِرارًا عَديدَةً»[١١٠] .

وأمَّا جَهْلُ السَّيِّدِ المَسيحِ لِبَعْضِ شُؤونِ الغَيْبِ «كَأَهْوالِ السَّاعَةِ وأشْراطِها» ، فَلَهُ مَحامِلُ في التَفْسيرِ لا مَجالَ لِذِكْرِها في الحَواشي. وَعلى كُلٍّ فالتَوْراةُ قَدْ ألْصَقَتْ باللهِ مِرارًا مِنَ التَعابيرِ ما يُوهِمُ بِأنَّ مِنَ الأُمورِ ما يَخْفَى عَلَيْهِ تَعالى...[١١١] .

خُلاصَةُ القَوْلِ أنَّ الدِّفاعَ عَنْ أُلوهيَّةِ السَّيِّدِ المَسيحِ لا نَجِدُ له في الحَواشي سِوى أدِلَّةٍ سَطْحِيَّةٍ ، ودائمًا في مَعْرِضِ الرَّدِّ على الشُبَهِ المُوَجَّهَةِ إلى بَشَرِيَّةِ المَسيحِ وَخُضوعِها لِشَوائِبِ المادَّة . ولا غَرْوَ ، فابْنُ كَمُّونَةَ لَمْ يَتَناوَلْ سِرَّ السَّيِّدِ المَسيحِ إلّا مِنْ

---

١٠٧) حاشية ١٠١ ج

١٠٨) تنقيح ص ٦١

١٠٩) حاشية ١٢٠

١١٠) حاشية ١١٩

١١١) حاشية ١٠٩

هذا المَلْحَظ ، فكانَ لا بُدَّ لصاحِبِ الحَواشي مِنْ أَنْ يَنْحُوَ مَنْحاه مُعْتَمِدًا السَّطْحيَّةَ والعَفْويَّةَ في رَدِّ التُّهَم وإفْحامِ الخَصْم . والمَوْضِعُ الوَحيدُ الذي يَتَّخذُ فيهِ الاعْتِراضُ على أُلوهيَّةِ السَّيِّدِ المَسيح طابَعَ الجِدِّيَّة [١١٢] ، لا يُثيرُ عِنْدَ ابْنِ المَحْرومَةِ سوى رَدٍّ سَريعٍ وَمُبْهَم [١١٣] .

هذا ولا يَقْصُرُ «التَنْقيحُ» اعْتِراضاتِهِ على المُعْضِلاتِ اللاَّهوتيَّةِ الناجمَةِ عن سِرِّ اتِّحادِ اللاهوتِ والنَّاسوتِ في الكَلِمَةِ المُتَجَسِّد ، بَلْ يَتَخَطَّاها إلى المُعْضِلَةِ التاريخيَّةِ والتَساؤلِ عَنْ واقِعِ ظُهورِ السَّيِّدِ المَسيحِ في الأَرْض . هذا الواقِعُ يَنْكِرُهُ المُعْتَرِضُ باعْتِبارِ أَنَّ الآياتِ والنُبُؤاتِ المُتَّصِلَةَ بِمَجيءِ الماسيَّا لم تَتَحَقَّقْ في عَهْدِ السَّيِّدِ المَسيح [١١٤] .

ولا يَرى صاحِبُ الحَواشي رَدًّا على هذا الاعْتِراضِ سِوى التَدْليلِ بِنُبُوءَةِ دانْيالَ النَبيّ : فإمَّا المَسيحُ قَدْ أَتى ، وإمَّا يَجِبُ انْتِظارُهُ بَعْدَ ٤٧ أَلْفَ سَنَة [١١٥] . هذا ، وَخرابُ مَدينَةِ القُدْسِ دَليلٌ آخَرُ على أَنَّ نُبُوءَةَ دانْيالَ قد تَحَقَّقَتْ في السَّيِّدِ المَسيح .

خُلاصَةُ القَوْلِ أَنَّ ابْنَ المَحْرومَةِ الذي يبرع بِمَقْدُرَتِهِ التَفْسيريَّةِ ومَعارِفِهِ الكِتابيَّة ، يَبْدو لَنا على جانِبٍ من السَطْحيَّةِ في عِلْمِهِ اللاَّهوتي . هذا مع الإِقْرارِ بِأَنَّ المَضامينَ اللاهوتيَّةَ التي يَلْتَزِمُها لا تَبْتَعِدُ عَنْ جَوْهَرِ العَقيدَةِ الرَسْميَّة . فَهْوَ ، مَعَ انْتِمائِهِ إلى المَذْهَبِ المُونُوفيزيّ ، قَد وَفى بِوَعْدِهِ بِأَنْ يُدافِعَ عَنِ النَصْرانيَّةِ مُطْلَقًا لا عَنْ هَذِهِ أو تِلْكَ مِنَ الفِرَقِ النَصْرانيَّة . وقد يَكونُ التَقَيُّدُ بِهذا القَرارِ القاضي بالدِّفاعِ

---

١١٢) تنقيح ص ٥٧ ، الفقرة الاخيرة.

١١٣) حاشية ١٥٥

١١٤) تنقيح ص ٦١ ، الفقرة ٤

١١٥) حاشية ١٢٣

عَنْ مُجْمَلِ الدِّينِ المَسيحيّ هُو الذي مَنَعَهُ مِنَ التَغَلْغُلِ في تَعاريجِ البَحْثِ اللاَّهُوتيّ . فالقَوْلُ بِأَنَّ لِلْمَسيحِ طَبيعَتَيْنِ ، إلٰهيَّةً وإنْسانيَّةً هُو ، ولا شَكَّ ، جَوْهَرُ الإيمَان . وَلكِنّ النَظَرَ في كَيْفيَّةِ هذا الاتِّحادِ هُو مادَّةُ البَحْثِ اللاَّهوتيّ . وَهْوَ مِن ثَمَّ مُنْطَلَقُ المَذاهِبِ المُخْتَلِفَةِ والصِّراعاتِ التي صَدَّعَتِ المَسيحيَّةَ مُنْذُ القَرْنِ الخامِس .

لَنْ نَسْتَعْرِضَ المَسائِلَ الثانَويَّةَ الأُخرى التي عَرَضَ لها ابْنُ المَحْرومَةِ في حَواشيهِ الدِّفاعيَّة . فالأَهَمُّ قد لَخَّصْناه في ما سَبَق ، وخُلاصَتُهُ أَنَّ السَّيِّدَ المَسيح قد نَسَخَ الشَّريعَةَ المُوسَويَّةَ التي كانَ أَصْحابُها وأولياءُ أَمْرِها قد نَقَضوها من قَبْلِه ، وبَرْهَنَ عن صِحَّةِ رِسالَتِهِ بِمُعْجِزاتٍ فاقَتْ مُعْجِزاتِ مُوسى سُمُوًّا وبُعْدًا عن احْتِمالِ التَواطُؤِ أَوِ التَزْوير .

وهذا النَبيُّ هو الأُقْنومُ الثَّاني مِنَ الثالوثِ الأَقْدَس ، كَلِمَةُ اللهِ المُتَأَنِّس ، إلهٌ تامٌّ وإنْسانٌ تامٌّ ، تَلَبَّسَ الطَبيعَةَ البَشَريَّةَ وما يَقْتَرِنُ بِها من ضَروراتِ الجَسَدِ ما عدا الخَطيئَة . وقد أَنْبَأَ بِمَجيئِهِ الأَنْبياء ، وبِخاصَّةٍ دانيالُ النَّبيُّ الذي حَسَبَ بِالأَرْقامِ تاريخَ وُرودِهِ إلى الأَرض .

*****

ب – أُسْلوبُ الحَواشي

ما هِيَ الوَسائِلُ التي يَعْتَمِدُها ابْنُ المَحْرومَةِ لِلْبلوغِ إلى غايَتِهِ؟

إنَّ ما يَلْفِتُ النَّظَرَ في أُسْلوبِ الحَواشي هُو ، كَما مَرَّ بِنا ، اللَّوْنُ التَهَجُّميّ وما يَسْتَتْبِعُهُ من وَسائِلِ التنديدِ والتَهَكُّمِ والتَّحدّي ، مُتَوَخِّيًا لَيْسَ فَقَطْ الأُمَّةَ اليَهوديَّةَ والشَّريعَةَ المُوسَويَّةَ بَلِ المُصَنِّفَ نَفْسَه .

فابنُ المَحْرومَةِ، على ما يُقِرُّ بهِ لِصاحِبِ «التَنْقيح» من فَضيلَةٍ[١١٦] ورزانَةٍ تَشْهَدُ بِها سائِرُ مُؤَلَّفاتِهِ[١١٧]، يَأْخُذُ عَلَيْهِ في هَذا الكِتابِ إغْراقَهُ في التَعَصُّبِ لِليَهودِ على النَّصارى[١١٨] واسْتِعْمالَهُ أَساليبَ التَمْويهِ والمُغالَطَةِ والتَحَكُّمِ والإدِّعاءِ والتَغافُلِ عَنِ الحَقِّ والتَفَوُّهِ بِغَيْرِ الصِّدْقِ، تَقَرُّبًا إلى أَهْلِ مِلَّتِهِ وَمَيْلاً مع هَوى أَنْفُسِهِم[١١٩].

وَيَأْخُذُ عَلَيهِ أَيْضًا التَلاعُبَ بِنُصوصِ الإنْجيلِ زِيادَةً وَنَقْصًا، وَتَحْريفَ الكَلامِ مُتابَعَةً للمُغالِطينَ، «كُلُّ ذلِكَ مُبالَغَةٌ في التَشْنيعِ على النَّصارى وسَوْقِ كَلامِهِمْ إلى الباطِلِ بالحِيَلِ السوفِسْطائِيَّة»[١٢٠].

ولا يَكْتَفي ابْنُ المَحْرومَةِ بِتَقْريعِ خَصْمِهِ، بَلْ يَتَناوَلُهُ بالتَّهَكُّمِ والسُّخْرِيَّة. فَهْوَ «أَعْمى يَعيبُ أَعْوَرَ، وزَمِنٌ يَعيبُ أَعْرَجَ»[١٢١] وَلَيْسَ لَه في الإنْسانِيَّةِ نَصيبٌ ولا يَسْتَحِقُّ أَبَدَ الآبِدينَ أَنْ يُخاطِبَهُ لَبيب»[١٢٢] بل هُوَ سَكْرانُ ومُصابٌ بالماليخُوليًا، يَتَفَوَّهُ بأقاويلَ يُدْرِكُ فَسادَها الأَطْفالُ أَنْفُسُهم[١٢٣].

وَيَعْمِدُ ابْنُ المَحْرومَةِ أَحْيانًا، في حُمَيّا الجَدَلِ، إلى مُناداةِ خَصْمِهِ من وَراءِ القَبْرِ وَتَحدّيهِ للنِزالِ الفِكْرِيّ، فَيَنْعَقِدُ الحِوارُ بَيْنَ الفَيْلسوفِ اليَهوديّ ونِدِّهِ، حَيًّا نابِضًا مُتَخَطِّيًا هُوَّةَ الزَمانِ الفاصِلِ بَيْنَهُما.

---

١١٦) حاشية ١٠٥

١١٧) حاشية ٢٧

١١٨) حاشية ٢٨، ٧٠ أ، ١٠١ أ، ج، ١١٥ ب، ١١٨، ١٢٧، ١٣٠

١١٩) حاشية ٦٧، ٧٠ أ، ٧٣، ٧٤، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ١١٨، ١٢٨

١٢٠) حاشية ١٠٥، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥ ب

١٢١) حاشية ١٧ خ

١٢٢) حاشية ١٢١

١٢٣) حاشية ١٨

ولكِنَّ ابْنَ المَحْرومَةِ لا يَكْتَفي، في رَدِّهِ على صاحِبِ «التَنْقيح»، باسْتِعْمالِ التَعابيرِ الهِجائِيَّة. فَفي مَعْرِضِ الجَدَلِ الدِّينيّ – وَمِحْوَرُهُ الحقائِقُ المُنْزَلَة – لا بُدَّ مِنَ الاحْتِكامِ إلى الكُتُبِ السَّماوِيَّة. وَقَدْ رَأَيْنا بَراعَةَ ابْنِ كَمُّونَة في اسْتِعْمالِ البُرهانِ الكِتابِيّ وعِلْمِ التَفْسيرِ، وَعُمْقَ مَعْرِفَتِهِ لِلنُصوصِ المُنْزَلَة، فكانَ على ابْنِ المَحْرومَةِ أَنْ يُجارِيَهُ في هَذا المِضْمارِ أَيْضًا.

والواقِعُ أَنَّ الحَواشي تُبْرِزُ لَنا كاتِبًا مُتَضَلِّعًا مِنْ عِلْمِ الكِتابِ المُقَدَّس، في عَهْدَيْهِ القَديمِ والجَديد، وفي جَميعِ أَجْزائِهِ القَصَصِيَّةِ والنَبَوِيَّةِ والتَشْريعِيَّة، بارِعًا في التَنْقيبِ عَنْ أَخْطاءِ خَصْمِهِ، وتَصْحيحِ تفاسيرِهِ المُغْرِضَة، وَمُعارَضَةِ نُصوصِهِ المُسْتَغَلَّةِ بِنُصوصٍ أُخْرى تُبَيِّنُ مَضامينَها الصَّحيحَة[١٢٤].

إلى هذا الاطِّلاعِ الكِتابِيِّ الواسِع، يَجْمَعُ الكاتِبُ المارْدينيُّ مَقْدُرَةً نادِرَةً في عِلْمِ التَفْسير، يُوَظِّفُها في تَحْقيقِ غَرَضَيْهِ مِنَ الحَواشي: التَصدّي لِليَهودِيَّةِ والذَوْدِ عَنِ المَسيحِيَّة. وَيَبْرَعُ خُصوصا في اسْتِعْمالِ النُصوصِ النَبَوِيَّةِ الناطِقَةِ بالحُكْمِ على إسْرائيل، وَنَقْضِ الشَّريعَةِ المُوسَوِيَّة، كَما يَبْرَعُ في التَنقيبِ عَنِ الشَوائِبِ العَقائِدِيَّةِ والشُبُهاتِ المَسْلَكِيَّةِ التي تُثْبِتُ انْتِسابَ التَوراةِ إلى واضِعِها البَشَرِيّ، وَتَفْرِضُ مِنْ ثَمَّ ضَرورَةَ الاسْتِعاضَةِ عَنْها بِشَريعَةٍ أَفْضَل.

بَيْدَ أَنَّ ابْنَ المَحْرومَةِ، في غَمْرَةِ الجَدَلِ وَفَوْرَةِ الدِّفاع، يَغْلو وَيَشْتَطُّ أَحْيانًا في اسْتِعْمالِ البُرهانِ الكِتابِيّ، فَيَسْقُطُ في التَفاهَةِ والتَعَنُّتِ، وَيَنْساقُ إلى ما انْساقَ إلَيْهِ صاحِبُ «التَنْقيح» مِنْ تَحَيُّزٍ وَتَحامُل[١٢٥].

---

١٢٤) حاشية ١، ٢، ٣

١٢٥) حاشية ١٧، ٧٥، ١٢٨، ١٣١

وتَمْتازُ الحَواشي بالبراعَةِ الجَدلِيَّةِ المُستَمَدَّةِ مِنْ قُوَّةِ المَنْطِقِ وَصلابَةِ الحُجَّةِ ورَهافَةِ الذِّهْن.

لا شكّ أن التَسلْسُلَ المَنْطقيّ لا يَظْهَرُ في الهَيْكَلِيَّةِ العامَّةِ لِنصّ الحَواشي. فالتَحْشِيَةُ مُرْتَبطَةٌ في سِياقِها بالنَّصّ المُتَناوَلِ بالتَعْليق. وإنَّما هُناكَ تَسلْسُلٌ باطِنٌ يُهَيْمِنُ على نَصّ كُلّ حاشِيَةٍ، ولا سيَّما الحَواشي الطَويلَة. وَيَظْهَرُ الكاتِبُ المارْدينيّ، من خلال مُمارَسَتِهِ لأُصولِ المَنْطِقِ وَقواعِدِ الجَدَلِ، تِلْميذاً لامِعاً لأَئِمَّةِ الفِكْرِ الجَدَليّ العَرَبيّ، المُسْلِمين مِنْهُم والمَسيحِيّين.

هَذِهِ البَراعَةُ الجَدَلِيَّةُ تَتَجَلّى خُصوصًا في صِياغَةِ البَراهِينِ والأَقْيِسَة. فالأَدِلَّةُ التي يَعْمِدُ إِلَيْها ابْنُ المَحْرومَةِ، وإنْ أَفْضَتْ إلى نَتائِجَ خاطِئَةٍ أَحْيانا، تَبْقى سَليمَةً في سِياقِها وَتَرابُطِها. هَذِهِ البراعَةُ تَتَجلّى خُصوصا في مَعْرِضِ بَحْثِه في مُعْجِزاتِ السَّيِّدِ المَسيحِ [١٢٦] وَزِيادَةِ التَكاليفِ المَفْروضَةِ على الأُمَّةِ اليَهودِيَّةِ [١٢٧] والتَحَقُّقِ مِنَ النُبُوَّةِ عَنْ طَريقِ الذَوْقِ الباطِنِ والحِسّ الوُجْدانِيّ [١٢٨] وَغَيْرِها من المَباحِثِ الدَّقيقَة.

على هَذِهِ الأَساليبِ الجَدَلِيَّةِ يُضْفي الكاتِبُ المارْدِينيُّ مِنْ رَهافَةِ ذِهْنِه وَدِقَّةِ حِسّه ما يُمكِّنُه من اكْتِشافِ حِيَلِ خَصْمِهِ وَدَوافِعِهِ المُبَطَّنَة [١٢٩] والأَساليبِ التَمْويهِيَّةِ التي يَتَلَطّى من وَرائِها، كالتَعابيرِ الرَيْبِيَّةِ والاسْتِشْهاداتِ المُبْهَمَةِ [١٣٠] والمُغالَطاتِ

١٢٦) حاشية ٧

١٢٧) حاشية ٩

١٢٨) حاشية ٦٨

١٢٩) حاشية ١٠١

١٣٠) حاشية ٣٠، ٤٠، ٥٠، ٧٨

المُتَعَمَّدَةِ والتَأْكيداتِ الاعْتِباطِيَّةِ [١٣١] وَمُعاوَدَةِ التَهَجُّمِ على الدّينِ المَسيحيّ حَتّى في مَواطِنِ الدِّفاعِ عَنْهُ [١٣٢].

وَلكِنَّ ابْنَ المَحْرُومَةِ، في خِتامِ حَواشيهِ، يُخلِدُ إلى شَيءٍ مِنَ الهُدوءِ في مُخاطَبَةِ نِدِّهِ. فَهْوَ يُقِرُّ للكاتِبِ اليَهودِيّ اسْتِدْراكَهُ، في سُطورِهِ الاخيرَة، «لِما كانَ أَسْلَفَهُ مِنَ الكَلامِ الباطِلِ في حَقّ النَّصارى، لأَنَّه لَوْ لَمْ يَتَيَقَّنْ وُقوعَ التَعَصُّبِ عَلَيْهِم، لَما كانَ قَدِ انْتَصَرَ لَهُمْ بِذِكْرِ بَعْضِ الأَجْوِبَةِ نِيابَةً عَنْهُم» [١٣٣]. وَمِن ثَمَّ، يَجِبُ عَلَيْنا، نَحْنُ مَعْشَرَ النَّصارى، «أَنْ نَسْأَلَ اللهَ في غُفْرانِ ما بَدا من هذا الرَّجُلِ في حَقّنا، بِما أَكالَ عَلَيْنا وغالَطَنا في كِتابِهِ هَذا» [١٣٤].

خلاصة

ما هِيَ الحَصيلَةُ التي يُمْكِنُ اسْتِخْراجُها من مُقارَنَةِ هَذَيْنِ الأَثَرَيْنِ: «تَنْقيح» ابْنِ كَمُّونَةَ «وَتَحْشِيَةِ» ابْنِ المَحْرومَةِ، على صَعيدِ الحِوارِ الدّينِيّ، وما يَفْتَرِضُهُ من شُروطٍ وَمُقْتَضَيات.

في هذا الزَمَنِ الذي نُواجِهُ فيهِ مُعْضِلَةَ الحِوارِ الدّينيّ وما يَنْجُمُ عَنْها من عَقَباتٍ شاقَّةٍ وآمالٍ شَيِّقَةٍ، لا بُدَّ مِنَ الاتِّعاظِ بالعِبَرِ المُتَضَمَّنَةِ في هذا الأَثَرِ «المَمْزوج».

لَقَدْ حَدَّدَ البَيانُ المَجْمَعِيُّ «في عَلاقَةِ الكَنيسَةِ بالأَدْيانِ غَيْرِ المَسيحِيَّةِ» شُروطَ التَقارُبِ المُمْكِنِ، على صَعيدِ الفِكْرِ والعَمَلِ، بَيْنَ مُمَثِّلي الدِّياناتِ التَوْحيدِيَّةِ

١٣١) حاشية ٦٩

١٣٢) حاشية ١٢٧

١٣٣) حاشية ١٣٣

١٣٤) حاشية ١٣٣

التَّلاث. هَذا التَقارُبُ قِوامُهُ وَمُنْطَلَقُهُ في نَظَرِ الوَثيقَةِ المَجْمَعِيَّةِ تَبادُلُ المَعْرِفَةِ والاحْتِرامِ بَيْنَ أَتْباعِ المَذاهِبِ المُخْتَلِفَة.

من هذا المَلْحَظِ، نَتَعَلَّمُ مِنَ الحَواشي، بالوَجْهِ السَّلْبي، الأَنْماطَ الخاطِئَةَ والدُّروبَ المَسْدُودَةَ التي يَجِبُ الإِقلاعُ عَنْها في كُلِّ حِوار، وَبِخاصَّةٍ الحِوارِ الدِّينِيّ. فالأُسْلوبُ الدِّفاعِيُّ الذي اعْتَمَدَهُ ابْنُ المَحْرومَةِ في حَواشيهِ هُوَ السَّدُّ الذي يَقِفُ عِنْدَهُ كُلُّ حِوارٍ، والعَقَبَةُ التي تَتَصَدَّى لِكُلِّ أَمَلٍ في التَفاهُم. وَقَدْ بَرْهَنَتْ خِبْرَةُ الأَجْيالِ أَنَّ العِلَّةَ الكُبْرى في هذا النَمَطِ من الحِوارِ الدِّفاعِيِّ، هِيَ في «اسْتِبْعادِ ما يَنْبَغي استيعابُه والتَهَجُّمُ على ما يَنْبَغي تَفَهُّمُهُ» (١٣٥).

وَالواقِعُ أَنَّ ابْنَ المَحْرومَةِ على ما تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ فِكْرٍ ثاقِبٍ وَعِلْمٍ راهِنٍ، لَمْ يُفْلِحْ في تَوْظيفِ مواهِبِهِ لاكْتِشافِ العَناصِرِ الجامِعَةِ ما بَيْنَ مُعْتَقَدِهِ وَمُعْتَقَدِ نِدِّه. وَكَأَنِّي بِهِ قَدِ اسْتُغْرِقَ في مُجابَهَةِ الخَصْمِ فَأَغْفَلَ التَنَبُّهَ للإِنْسانِ الذي يُواجِهُهُ ولِلتُراثِ المُشْتَرَكِ القائِمِ إلى جانِبِ الخِلافاتِ والنِّزاعات.

هَلْ كانَ ابْنُ كَمُّونَةَ أَوْفَرَ حَظًّا في فَهْمِ شُروطِ الحِوارِ وَأَساليبِه؟

لَقَدْ قيلَ: «إِنَّ الشَرْطَ الأَوَّلَ لِكُلِّ حِوارٍ صَحيحٍ هُوَ الأُهْبَةُ لِلصَمْتِ والإِصْغاءِ إلى الغَيْرِ مِنْ حَيْثُ هُوَ غَيْر» (١٣٦). مِنْ هَذا المَلْحَظِ، لا يُمْكِنُ أَنْ نُنْكِرَ على صاحِبِ «التَنْقيح» فَضْلَهُ في إِفساحِ مَجالِ الكَلامِ لِلْمُتَكَلِّمينَ مِنْ غَيْرِ أَبْناءِ مِلَّتِه. فَكِتابُهُ «تَنْقيحُ الأَبْحاثِ لِلْمِلَلِ الثَّلاث» يُعْتَبَرُ، مِنْ غَيْرِ مُنازِعٍ، مُلْتَقًى مِنْ أَنْدَرِ مُلْتَقَياتِ الفِكْرِ الدِّينِيِّ التليد، اسْتَطاعَتْ فيهِ الدِّياناتُ التَوْحيدِيَّةُ الثَّلاثُ الإِفْصاحَ عَنْ هُوِيَّتِها

١٣٥) J.A. Cuttat, Introduction à l'ouvrage de R.C. Zaehner, *«Inde, Israël, Islam»* p. 19-20.

١٣٦) نفس المرجع.

والنُطْقَ بِلِسانِ حالِها، كُلٌّ بِمُوجَبِ عَبْقَرِيَّتِها وَأَساليبِها الخاصَّة.

لا شَكَّ أَنَّ ابنَ كَمُّونَةَ لَمْ يُفْلِحْ دائمًا في تَنْحِيَةِ اعْتِباراتِهِ الشَخْصِيَّةِ وتَحْييدِ قَناعاتِهِ الباطِنَة. فَوَلاؤُهُ لِلْيَهودِيَّةِ لَمْ يُمَكِّنْهُ دائمًا مِنْ تَخَطِّي انْتِمائِهِ إلى مَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ، وَتَبَنِّي المَسيرَةِ الرُّوحِيَّةِ التي اعْتَنَقَها غَيْرُهُ مِنْ أَصْحابِ الدِّيانَتَيْنِ الأُخْرَيَيْن. وَلَكِنْ أَلَيْسَ هذا التَجَرُّدُ الرُّوحِيُّ أَكْثَرَ مِمَّا يَسوغُ أَنْ نَتَوَقَّعَهُ مِنْ مُفَكِّرٍ عاشَ في القَرْنِ الثالِثَ عَشَرَ؟ فالإِنْسانِيَّةُ قَدِ اجْتازَتْ قُرونًا مِنَ المُعاناةِ الجَدَلِيَّةِ الدِّينِيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَعِيَ شُروطَ الحِوارِ الصَّحيح، وَقَبْلَ أَنْ يَثْبُتَ لَها أَنَّ مُنْطَلَقَ كُلِّ حِوارٍ دِينِيٍّ هُوَ القَبولُ – إلى حينٍ – بِغَيْرِ ما أَلِفْناهُ مِنْ أَشْكالِ الانْتِماءِ إلى المُطْلَق.

وإِنَّما يَبْقى أَنَّ ابْنَ كَمُّونَةَ قد حاوَلَ جادًّا تَخَطِّي حُدودِ الجَدَلِ الدِّينِيِّ في أَساليبِهِ التَقْليدِيَّة، والانْتِقالَ بِهِ من مَرْحَلَةِ التَهَجُّمِ إلى مَرْحَلَةِ التفَهُّم، ومِنْ مَرْحَلَةِ الدِّفاعِ عن الذّاتِ إلى مَرْحَلَةِ التَنَبُّهِ لِلْغَيْرِ وما يَقْتَضيهِ من صَمْتٍ وإِصْغاء.

مِنَ الثّابِتِ، ولا شَكَّ، أَنَّ ابْنَ كَمُّونَة – تِلْميذَ ابْنِ سينا والطُّوسِيِّ – لم يَكُنْ لِيَتَخَلّى عن طَريقَتِهِ العَقْلانِيَّةِ في مُعالَجَةِ القَضايا الدِّينِيَّةِ بِتَسْليطِ وَسائِلِ النَّقْدِ والتَمْحيص، والتَذَرُّعِ بالشَّجاعَةِ والصَّراحَةِ في قَوْلَةِ الحَقِّ وإِبداءِ الرَّأْي.

ولا شَكَّ أَيْضًا أَنَّ هَذِهِ الصَّراحَة، بِدافِعِ غَريزَةٍ طائِفِيَّةٍ غَيْرِ مُحْكَمَةِ الإِلْجام، قد أَدَّتْ بِالفَيْلَسُوفِ اليَهودِيِّ إلى مواقِفَ موسومَةٍ بالتَحَيُّزِ والتَحامُل. بَيْدَ أَنَّ ابْنَ كَمُّونَةَ قد وُفِّقَ في التَلْطيفِ مِنْ نَقْدِهِ والتَخْفيفِ من طَعْنِه، باعْتِمادِ ذاكَ اللَّوْنِ من التَأَدُّبِ والاحْتِرامِ الذي يُمَيِّزُ الحِوارَ الحَقيقِيّ.

مِنْ هُنا، في كُلِّ صَفْحَةٍ تقريبًا مِنْ صَفَحاتِ «التَنْقيح»، تَواتُرُ عِباراتِ التَبجيلِ والتَقْريظِ في ذِكْرِ المَسيحِ وَمُحَمَّدٍ، وغايَتُها تَأْكيدُ المَوَدَّةِ لأَتْباعِها، بِصَرْفِ النَظَرِ عن النِّزاعاتِ العَقائِدِيَّةِ والخِلافاتِ المَذْهَبِيَّةِ القائِمَةِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الأَدْيان.

وَهَذِهِ هِيَ العِبْرَةُ التي يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُها من كِتابِ «التَنْقيح» لِفائِدَةِ أَبْناءِ عَصْرِنا، وبِخاصَّةٍ قادَةِ الحوارِ الرُّوحيّ وَرُوّادِهِ وَسائِرِ المَعْنِيِّين بِهِ والسّاعِين لَهُ.

فابْنُ كَمُّونَةَ، بِمُحاوَلَتِهِ الجَريئَةِ تَبَنّي المَسيرَةِ الرُّوحِيَّةِ لِلدّيانَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ، والقِيامَ مَقامَ أَتْباعِها في التَعْبيرِ عَنْ مُقَوّماتِها العَقائِدِيَّةِ والمَسْلَكِيَّة، وَكَأَنَّها انْعِكاسٌ لِيَقينٍ شَخْصِيٍّ، قَدْ بَلَغَ بالحِوارِ إلى إحدى مَحَطّاتِهِ القُصْوى. عِنْدَ هَذا الحَدِّ، يَكْتَشِفُ الإنْسانُ المُؤْمِنُ عِنْدَ غَيْرِهِ مِنَ المُؤْمِنينَ بالمُطْلَقِ، مُعْتَقَداتٍ واخْتِباراتٍ أُخْرى تَحُدُّ مِنْ مُطْلَقِيَّةِ تُراثِهِ الدّينِيّ، وَتَجْعَلُهُ قابِلاً لِلتَبادُلِ والتَكامُل.

ولِأَنَّ ابْنَ كَمُّونَةَ، أَحَدَ مُفكّري القَرْنِ الثالِثَ عَشَرَ، أَقْدَمَ على الخَوْضِ في هذِهِ المُغامَرَةِ، فقد جَرَّ على نَفْسِهِ ثَوْرَةً شَعْبِيَّةً عارِمَةً، وعلى كِتابِهِ رَدًّا قاسِيًا. وفي هذا دَليلٌ مُؤْسِفٌ على أَنَّ الدَعْوَةَ إلى الحِوارِ الصَّريحِ لا تُوَرِّثُ أَصْحابَها دائِمًا رَغْدَ العَيْشِ وسَلامَةَ المَصير.

القِسمُ الثاني

حَواشي آبنِ المحرومة على البابِ الثاني من كتابِ «تنقيح الأبحاث للمِلَلِ الثلاث» (في اليهوديّة)

حَواشي ٱبن المحرومة
على الباب الثاني من كتاب
« تنقيح الأبحاث للملل الثلاث »
(في اليهوديّة)

في ذِكْرِ أدِلَّةِ اليهودِ على نُبُوَّةِ موسى ، عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام ، وذِكْرِ أُصولِ الشرائعِ التي شرَعَهم بها ، على الوَجْهِ الذي نَقَلوهُ ، وما يَتَعَلَّقُ من الأسئِلةِ والأَجْوِبَةِ ، على وَجْهِ الاختصار.

قالت اليهود

إنّ الأمرَ الإلهيَّ اتَّصَلَ أوّلاً بآدمَ أبي البَشَرِ ، عليه السلام. فكانَ نَبيًّا ، وكانَ هابيلُ خليفةً له. ولمّا قَتَلَهُ قاينُ أخوهُ ، غيرَةً على رُتْبَتِهِ ، عُوِّضَ بِشيتٍ الشبيهِ بآدم. فكانَ صَفْوتَه ، وصفْوةُ شيتٍ أنوش. وكذلِكَ اتَّصَلَ الأمرُ إلى نوحٍ ، بأفرادٍ كانوا لُبابًا ، ولَهُمْ الكمالُ في الخَلْقِ والأخلاقِ وطُولِ الأعمارِ وعُلومٍ وقُدْرَة. وكذلكَ من نُوحٍ إلى إبرٰهيم. وربمَا كانَ فيهم مَنْ لَمْ يَتَّصِلْ به الأمْرُ الإلهيُّ مِثْلُ تارَحَ أبي إبرٰهيم. وكان إبرٰهيمُ تِلميذَ جَدِّه عابَرَ وهو صَفْوتُه وتلميذُه. ولذلِكَ تَسَمَّى عبرانيًّا. وعابَرُ صَفْوَةُ سامٍ ، وسامُ صَفْوَةُ نوحٍ أبيه. وصَفْوَةُ إبرٰهيمَ من جَميعِ بنيهِ إسحقُ ، وصَفْوَةُ إسحقَ يَعقوبُ ، وهُو المُسَمّى إسرائيلَ ، وأولادُه كلُّهم صَفْوَةٌ صالِحونَ للأمْرِ الإلهي.

[قال صاحِبُ الحواشي قدَّسَهُ اللهُ تعالى] :

حاشية ١ أ – وَقَعَتْ واقِعَةٌ اقْتَضَتْ أن أَكْتُبَ هذهِ الحَواشيَ في أَثْناءِ الكَلامِ على مِلَّتَي اليَهودِ والنَّصارى دونَ غيرِهما من هذا الكِتاب. واللهَ أَسْتَلْهِمُ إصابةَ الصَّوابِ فأَقول :

ب – إن كلامَ المُصَنِّفِ هَهُنا يَحتَمِلُ وَجْهَيْنِ : الوَجْهُ الواحِدُ أن يَكونَ مُرادُه بأَولادِ يَعقوبَ يوسفَ وإِخْوَتَه. والوَجْهُ الآخَرُ أَنْ يكونَ مُرادُهُ ذُرِّيَّةَ يَعقوبَ. فإنْ كانَ مُرادُ المُصَنِّفِ هو الوجهَ الأَوَّلَ ، يُنتَقَضُ كلامُه بالذي جَرى في حقِّ يوسُفَ من إخوته ، على ما هو مذكورٌ في التوراةِ من تَصْميمِ عَزْمِهم على سَفْكِ دَمِهِ ظُلْماً وَبَيْعِهِمْ إيَّاه بالثَمَن البَخْسِ ، وجَعْلِهِ عَبدًا بعد أنْ كانَ حُرًّا ، حتى لو انَّه كانَ عبدًا لكادَتْ قِيمتُه تُنيفُ على ألفِ مِثْقالٍ من الذهب ، لِعَظَمَةِ جَمالِهِ المَشْهورِ ذِكرُهُ بَيْنَ الناس.

ج – ثم إنَّ رؤوبيلَ – وَهْوَ مِن أَولادِ يَعْقوب – حَكَتْ عَنْهُ التوراةُ أَنَّهُ ضاجَعَ سُرِّيَّةَ والِدِهِ ، وهَذِهِ رَذيلةٌ لا يَتَجاسَرُ عَلَيها إلّا الخارِجُ عَن حُكْمِ سُلْطانِ عَقْلِهِ ودِينه. وشَمْعُونُ ولاوي هُما أَيضًا من أَولادِ يَعْقوبَ ، وقد حَكَت التَوراةُ ما جَرى مِنهما في حقِّ أَهْلِ القَرْيَةِ المَحكيَّةِ في التَوراةِ ، تِلكَ التي احتالا على أَهْلِها بالخِتانَة ، ولمَّا اختُتِنَ[1] رِجالُ القَرْيَةِ عن آخرِهم ، أَظْهَرَ[2] شَمْعُونُ ولاوي ما كانا أَبْطناهُ وَهَجَما على القَرْيَةِ في جَماعَةٍ كثيرةٍ وقَتَلا جَميعَهُم ظُلْمًا وعُدْوانًا على غَيْرِ جُرْمٍ اجْتَرَمُوهُ ، واستَباحا الأَمْوالَ ، وسَبَيا

١) اختتنوا

٢) أظهرا.

الحَريمَ. ولو سَلَكا سَبيلَ العَدْلِ والإِنْصافِ لما آخَذا[1] غَيْرَ[2] غَريمِهِما شَخيمَ الذي جَرى منهُ ما جَرى. وهذا يَدُلُّ على فسادِ قولِ المُصَنِّف على تَقْديرِ أنْ يَكونَ مُرادُه بأَولادِ يعقوبَ يوسفَ وإخْوَته.

د – وأَمّا أن يكونَ مرادُ المُصَنِّفِ بأَولادِ يعقوبَ ذُرِّيَّةَ يَعقوبَ ، فَيَدُلُّ على فَسادِ كَلامِهِ ما جَرى من أَكْثَرِهم عَدَدًا مِنَ الخُروجِ عن عِبادَةِ اللهِ الذي أَظْهَرَ لَهُم الآياتِ على يَدِ نَبِيِّهِ مُوسى في مِصرَ وفي البَحْرِ وفي القَفْرِ ، وبَعْدَما شاهَدُوا جَميعَ ذَلِكَ عَبَدُوا العِجْلَ المَعْمُولَ من المَعْدِنِ المَواتِ ، وقالوا : هذا إلَهُكَ يا إسْرائيلُ الذي أَخرَجَكَ مِن مِصر ، ولَمْ يَخْطُرْ لَهُم أَنَّهُم لمَّا أُخرِجُوا مِن مِصْرَ لَمْ يَكُنْ هذا العِجْلُ مَوْجودًا.

هـ – وما مِن عاقِلٍ مُنْصِفٍ إلَّا وَهْوَ يَعْلَمُ عِلْمًا يَقينًا أَنَّهُ لو شاهَدَ تِلْكَ المُعْجِزاتِ التي شاهَدَها هؤلاءِ القَوْمُ ، بَعْضُ الكَفَرَةِ من الشُعوبِ المَرْذولَةِ عِنْدَ اليَهودِ لكانَ قد خَرَجَ عَنْ كُفْرِهِ وآمَنَ باللهِ ، وبَذَلَ نَفْسَهُ في سَبيلِهِ وما انْثَنَى عن عِبادَتِهِ وَلَوْ أَكْرَهَهُ على الانثِناءِ عَنها الأَكاسِرَةُ والقَياصِرة.

و – ومَعْلومٌ أَنَّ الذين يكونُونَ مِن الصالِحينَ للأَمْرِ الإِلٰهِيِّ لا يَرْتَكِبُونَ هَذِهِ الكَبائِرَ التي ارْتَكَبَها هؤلاءِ القَومُ الذينَ هُمْ من ذُرِّيَّةِ يَعْقوبَ. فَلا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُم أَثْقالَ العَذابِ فإنَّهم أَضَلُّ سَبيلاً من الدَوابِّ. وإذا عَرَفْتَ ذَلِكَ ظَهَرَ لَكَ فَسادُ قَوْلِ المُصَنِّفِ القائِلِ : وَأَوْلادُهُ كُلُّهُمْ صَفْوَةٌ صالِحونَ للأَمْرِ الإلهِيِّ.

١) واخذا.

٢) لغير.

فَتَوَلَّى اللهُ حِفْظَهُم وإنماءَهُم وتَدْبيرَهم بِمِصْرَ كما تُرَبّى الشَجَرةُ الطيِّبَةُ الأصْل حَتى تُثْمِرَ ثمرًا كامِلاً يُشْبِهُ الثمرَ الأَوَّلَ الذي مِنْهُ غُرِسَتْ – أعني إبرٰهيمَ وَاسحَقَ ويعقوبَ ويوسفَ وإخْوتَه. فجاءَت الثَمرَةُ بِمُوسى وهٰرون ومَرْيَمَ وبِمثْلِ رُؤساءِ الأَسْباطِ والسَبْعينَ شَيْخًا الذين صَلُحُوا للنُبُوَّةِ وبِمِثْلِ يُوشَعَ بنِ نُونَ وكَالِبَ وحُورٍ وغَيْرُهُمْ كَثير.

فكانَ بنو إسرائيلَ مُسْتَعْبَدينَ بِمِصْرَ، وكانَتْ عدَّةُ رِجالِهِم الذين هم من أبناءِ العِشْرِينَ عامًا والى الخمسينَ فَقَطْ زيادةً على سِتمائَةِ الفِ رَجُل، وذَلِك ما عدا الشبابَ والصبيانَ والمشائخَ والنِسوانَ، وكانوا مُنْتَسِبِينَ إلى اثني عَشَرَ سِبْطًا. وكانوا موعُودينَ عن أَجدادِهم أن يَرِثوا الشام. وكانَ الشامُ حينئذٍ بِيَدِ سبعِ أُمَمٍ في غايةِ الكَثْرَةِ والقُوَّةِ والإقْبال، وكان بنو إسرائيلَ في غَايةِ الذِلَّةِ والشَقاءِ مع فِرْعونَ يَقْتُلُ أولادَهُم كيلا يَكثُروا.

فأَرْسَلَ اللهُ موسى وهرونَ، على ضُعفِها، وكان موسى، حينَ أُرسِلَ، ابنَ ثمانينَ سنة. وكان هٰرُونُ قد نَيَّفَ على الثَمانين. وواقفا فرْعونَ، على قُوَّتِهِ، بالآياتِ والمُعْجِزاتِ وخَرْقِ العاداتِ، ولم يَقْدِرْ أَنْ يَأْمُرَ فيهما بِسوءٍ، ولا أَن يَحْجِبَ نفسَه عن الآفاتِ العَشْرِ الحالَّةِ بِأَهْلِ مِصْر في مِياهِهِم، ثم في أَرْضِهِم، ثم في هَوائِهم وفي نَباتِهم وفي حَيوانِهم وفي أَبدانِهم، ثم في أَنْفُسِهِم، اذ ماتَ في طَرْفَةِ عينٍ في شَطْرِ الليلِ أجَلُّ من كانَ في مَنازِلِهِم وأحبُّهم إليهم، وهو كُلُّ وَلَدٍ بِكْرٍ، ولم يَبْقَ لهم دارٌ دونَ مَيِّتٍ، حاشى دُورَ بني إسرائيل. وتفاصيلُ كُلِّهِ مَذْكورةٌ في التَّوراةِ، فلهذا لم أُثْبِتْهُ وكلٌّ واحدٍ من هذهِ الآفاتِ كان يَنْزِلُ بإِذْنٍ وإِنْذارٍ وَوَعْدٍ، ويَرْتَفِعُ كَذَلِكَ، بِحَيْثُ يُعْتَقَدُ أنها مَقصودَةٌ من إلهٍ مُريدٍ يَفْعَلُ ما يَشاءُ متى يَشاء.

وخَرَجَ بنو إسرائيلَ بأَمْرِ اللهِ في تِلْكَ اللَيلَةِ من عُبوديَّةِ فِرعونَ وصاروا إلى ناحِيةِ بَحْرِ القُلْزُمِ، وقائِدُهم عَمودُ غَمامٍ، وعمودُ نارٍ سائِرٌ أمامَهُم، وموسى وهٰرونُ يُدَبِّرانِهِم. فَتَبِعَهُم فِرْعَونُ بِجُنُودِهِ فَلَمْ يَلْتَجِئوا إلى سِلاحٍ، ولا كانوا مِمَّن يَدْري الحَرْب!

حاشية ٢

أ – قَوْلُ المُصَنِّفِ: «وَلا كانوا مِمَّنْ يَدْرِي الحَرْب» قَوْلٌ غَيرُ صَحيحٍ لأَنَّ التَوْراةَ شَهِدَتْ بِأَنَّهُم قاتَلوا عَمالِيقَ، فَقَالَتْ ما حِكايَتُه: «فجاءَ عَماليقُ لِيُقاتِلَ بَني إسرائيلَ في رِفْدَيْنِ فانْكَسَرَ وخُزِيَ بِحَدِّ السِلاح.

ب – وفي التَوراةِ أَيضًا أَنَّ موسى عليه السلامُ أَمَرَ بَني لاويَ قائِلاً: لِيَتَقَلَّدْ كُلُّ رَجُلٍ منكُم سَيْفَه. وجُوزوا في المَحَلَّةِ من بابٍ إلى بابٍ، ولْيَقْتُلِ الرَجُلُ أَخاهُ وصاحِبَهُ وذَوي قَرابَتِهِ. فَفَعَلَ بَنو لاويَ حَسْبَمَا أَمَرَهُمْ مُوسى، فقُتِلَ من الشَعبِ يَومَئِذٍ ثَلاثونَ أَلْفَ رَجُل.

ج – هَذا حِكَايَةُ ما في التَوْراة. فَلو كانوا مِمَّنْ لَمْ يَدْرِ الحَرْبَ كَما قالَ المُصَنِّف، لما كانَ قَد جَرى مِنْهُمْ ذَلِكَ، ولا وَقَعَتْ هَذهِ المَقْتَلَةُ المَحْكِيَّةُ في كِتابِهِم، فَيَظْهَرُ فَسادُ كَلامِ المُصَنِّفِ لِكلِّ عاقِلٍ مُنْصِفٍ.

فَشَقَّ لَهُم البَحْرَ وجاوزُوه، وغَرِقَ فرعَونُ وحَشْدُهُ[1]، وَقَذَفَ بِهِم البَحْرُ أمواتًا إلى بني إسرائيلَ حتى رَأَوهُم عِيانًا.

ثُمَّ حَصَلَ بَنو إسرائيلَ في البَرِّ حَيْثُ لا زَرْع. فأَنْزَلَ عَلَيْهِم المَنَّ يومًا فيومًا سوى يومِ السَبْت، فأَكَلُوهُ طُولَ أَرْبَعِينَ عامًا، إلى أن مات مُوسى عليه السلامُ مَوتًا اختِياريًا

١) حشوه (برلمان)

حاشية ٣

أ – إنَّ كلامَ المُصنِّفِ هَهُنا ليس بِصَحيحٍ ، لِأَنَّ موسى عليهِ السَّلامُ ، لم يَمُتْ مَوْتًا اختياريًا ، والدَّليلُ على صِدقِ دَعْوى العَبْدِ ما جاءَ في التَّوراةِ القائِلَةِ : وقَالَ اللهُ لموسى اصْعَدْ إلى هذا الجبَلِ – وهو جَبَلُ العِبرانيينَ – فانْظُرْ إلى الأَرْضِ أَرْضِ كنعانَ التي وَهَبْتُ لِبَنِي إسرائيلَ وأَبْصِرْها ثم الحقْ بِشَعْبِكَ كما لَحِقَ هٰرونُ أُخوكَ ، من أَجْلِ أنَّكُم مَرْمَرْتُم كَلِمَةَ فَمي في بَرِّيَّةِ سِينٍ في خِصامِ الجَماعَةِ هذا.

ب – والعَبْدُ يقول : «إنَّ في هذا الكلامِ دَلالَةً واضِحَةً على أَنَّ موسى عليهِ السلامُ لم يَمُتْ مَوْتًا اختياريًا كما ادَّعاهُ المُصَنِّفُ. ألا ترى أَنَّه ماتَ وفي قَلْبِهِ حَسْرَةٌ من الدُخولِ إلى أَرْضِ كَنْعانَ ، على ما هُوَ مَذْكورٌ في السِفْرِ الخامِسِ مِنَ التوراةِ القائِلَةِ على لِسانِ موسى : أَسْأَلُكَ أَنْ تَأْذَنَ لي حتى أَعْبُرَ فأَنْظُرَ إلى الأَرْضِ الصالِحَةِ التي في عِبْرِ الأُرْدُنِّ ، إلى هذا الجَبَلِ الصالحِ ولُبْنانَ. فَغَضِبَ اللهُ عَلَيَّ ولم يَسْمَعْ مِني ، وقالَ لي : حَسْبُكَ لا تَعُدْ أيضًا أن تَقولَ مِثْلَ هذا القَوْلِ قُدّامي ، ولكِنِ ارْتَفِعْ فَوْقَ الرامَةِ ، وارْفَعْ عَيْنَيْكَ إلى المَشْرِقِ وإلى المَغْرِبِ وإلى الشِمالِ وإلى اليَمينِ ، فانْظُرْها بِعَيْنَيْكَ فإِنَّكَ لا تَخْطُو في هذا الأُرْدُنِّ.

ج – ثم جاءَ في السِفرِ الخامِسِ بِعَيْنِهِ ما هذهِ حِكايَتُه : ثمَّ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى في ذَلِكَ اليوم وقالَ له : اصعَدْ هَذا الجَبَلَ جَبَلَ العِبْرانِيينَ ، جَبَلَ نابو في أَرْضِ مُوابَ تِلْقاءَ إيريحا ، ثم انظُرْ إلى أَرْضِ كَنْعانَ التي أُعْطِيتْ[1] إسْرائيلَ ميراثًا ثُمَّ مُتْ في الجَبَلِ الذي تَصْعَدُ عَلَيهِ ، واسْلُكْ[2] سَبيلَ أَصْحابِك كما ماتَ

---

١) أعطي

٢) ويسلك.

هٰرونُ أَخوكَ في طُورِ هُور. هذا حِكايَةُ كَلامِ التَّوْراةِ ، وفيهِ دَلالَةٌ واضِحَةٌ على أَنَّ موسى لم يَمُتْ مَوْتًا اختِيارِيًّا. فمَا ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ هَهُنا لَيْسَ بِصَحيحٍ ، فاعْلَم ذَلِك.

> مِنْ غَيرِ مَرَضٍ ولا هَرَمٍ ، وقد بَلَغَ من السِنينَ مائةً وعِشْرينَ سَنَةً شَمْسِيَّةً ، كَمَنْ يَصْعَدُ إلى فِراشِهِ لِيَنامَ في يَوْمٍ مَعْلومٍ وساعَةٍ مَعْلومَةٍ . ولم يَعْلَمْ أَحَدٌ قَبْرَهُ. وهَذِهِ رُتْبَةٌ مُفارِقَةٌ في الجَوْهَرِ لِرُتَبِ سائِرِ الناس .
>
> وكَانَ بَعْدَ خُروجِ بني إِسْرائيلَ من مِصْرَ بِقَليلٍ أَمَرَهُمْ اللهُ ، على لسانِ موسى ، بالتَأَهُّبِ بالطَهارَةِ الظاهِرَةِ والباطِنَةِ واعتِزالِ النِساءِ – لِسَماعِهِمْ الخطابَ كُلِّهِمْ جَهْرَةً حتى لا يَبْقى في نُفوسِهِمْ شَكٌّ أَنَّ اللهَ يُخاطِبُ البَشَر. وكانَ ذَلِكَ بَعدَ ثَلاثَةِ أيامٍ من تَأَهُّبِهم بِمُقَدِّماتِ هَوْلٍ عَظيمٍ من بُروقٍ ورُعودٍ وزَلازِلَ ونيرانٍ حَفَّتْ بِطور سِنين. وبَقِيَتْ تِلْكَ النارُ طولَ أَربَعينَ يومًا على الجَبَل. يَراها القَوْمُ ويَرونَ موسى داخِلاً إليها وخارِجًا عنها. وسَمِعَ القَوْمُ الخطابَ فَصيحًا ، بِعَشْرِ كَلِماتٍ هي أُمَّهاتُ الشرائعِ وأُصُولُها – ورَسَمَ هَذِهِ الكَلِماتِ في لَوحَيْنِ مِن حَجَرٍ رَفيع . ودَفَعَهُما إلى موسى فرأَوها كِتابًا إلهيًّا ، كما سَمِعُوها خِطابًا إلهيًّا.

حاشية ٤

وبَعْدَما عايَنوا وسَمِعُوا ما حَكاهُ المُصَنِّفُ خالَفوا ما جاءَ في أَثْناءِ العَشْرِ الكَلِماتِ مِن النَهْيِ عن عِبادَةِ غيرِ اللهِ ، وعَبَدوا العِجْلَ بَدلاً عَنِ اللهِ من[1] قومٍ قد عَدِمُوا عُقولَهُم إلى هذِهِ الغايَةِ ولم يَثْبُتْ في أَذْهانِهِم من هَذِهِ الآياتِ ولا آية.

---

١) ربما المراد : يا لهم من قوم.

وعَمِلَ لهم موسى بأمر اللهِ تابوتًا ، وأقامَ عليه القبَّةَ المَشْهُورة. وبقي ذلك بَيْنَ بني إسرائيلَ نحوَ تِسْعِمائَةِ سَنةٍ حتى اختَفى التابوتُ لعِصْيانِهِم وظَفِرَ[1] بِهِم بَخْتَنَصَّرُ وأجْلاهُم.

حاشية ٥

أ – إنَّ هؤلاءِ القومَ لما عَصَوُا اللهَ العِصْيانَ الذي اعْتَرَفَ بهِ المُصَنِّفُ، اسْتَوْجَبوا بِسَبَبِهِ جَلاءَ بَخْتَنَصَّر. وأمَّا العِصْيانُ الآخَرُ الذي ما ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ، فهو الذي اسْتَوْجَبُوا بِسَبَبِهِ جَلاءَ طِيطُس[2] مَلِكِ الرُّومِ ، وخَطَرُهُ أَعْظَمُ من خَطَرِ العِصيانِ السابِقِ على جَلاءِ بَخْتَنَصَّر.

ب – وممّا يَدُلُّ على صِدْقِ هذِهِ الدَعْوى أن جَلاءَ بَخْتَنَصَّر لم يَطُلْ عليهِ زَمانُ الغَضَبِ على القَوْمِ عِشْرَ طُولِ الزَمانِ على جَلاءِ طيطُوس. ومَعلومٌ أَنَّ الذي جَرى من واقِعَةِ بَخْتَنَصَّرَ يَدُلُّ على أَنَّ العِصيانَ الذي كان قَبْلَها لَمْ يَبْلُغْ مِنَ الرَداءَةِ مَبْلَغًا أَوْجَبَ استِمْرارَ الغَضَبِ على القَوْم. ولهذا أَعادَهُم اللهُ تعالى إلى أَرْضِهِم بَعْدَ سَبْعينَ سَنَةً. وأمَّا العِصيانُ السابِقُ على جَلاءِ طيطوسَ فهو الذي أَوْجَبَ استِمْرارَ الغَضَبِ عَلَيهِم إلى أَبَدِ الآبدينَ ، لِأَنَّه كانَ عِصيانًا قد بَلَغَ من شِدَّةِ الرَداءَةِ أَقْصَى حَدّ. كيفَ لا وقد انْدَرَجَ فيهِ تكذيبُهم للسَيِّدِ المَسيحِ والحَوارِيينَ أَبادَ اللهُ باغِضَهُم. وهذِهِ كبيرَةٌ لا مَزيدَ عليها ، حتَّى إنَّ القَوْمَ لَوْ لَمْ يَرْتَكِبُوا من الذُنوبِ غيرَ هذا الذَّنْبِ العَظيمِ ، لكانَ هذا الذَنْبُ وَحْدَهُ كافِيًا[3] في سَلْبِ ما مَنَحَهُمُ اللهُ من المَواهِبِ ، وموجِبًا لِطَرْدِهِم من بابِهِ الكَريم ، وقاطِعًا لهم عن العَوْدَةِ إلى الأَرْضِ التي كانوا فيها ، أَعْني الأَرْضَ المُقَدَّسَة.

١) ظفر.

٢) وردت طيطوس في سائر النص.

٣) كافٍ.

ج – وفي كُتُبِهم النَبَوِيَّةِ أَشْياءُ تَدُلُّ على أَنَّهُم لا عَوْدَةَ لهم إلى تِلكَ الأَرْضِ ، أيَ بَعْدَ جَلاءِ تِيطوسَ ، أَبَدَ الآبدِين ، فَمِنْ ذَلِكَ قولُ التَوْراةِ : كما أَرادَ اللهُ لَكُم الخَيْرَ وَفَرِحَ بِكَثْرَتِكُم ، فكَذَلِكَ يَفْرَحُ إذا حَلَّ بكم البَلاءُ حتَّى تَهْلِكوا[1] وتَفْنَوا[1] مِنَ الأَرْضِ التي جَعَلَها اللهُ لكم ميراثًا. ويُفَرِّقُكُمْ اللهُ في الأَرْضِ كُلِّها من الشَرْقِ إلى الغَرْب. ولا كَذَلِكَ جَلاءُ بَخْتَنَصَّرَ لِأَنَّهُم ما تَفَرَّقوا فيه هذا التَفَرُّقَ ولا طالَتْ مُدَّةُ غَيْبَتِهِم عَن أَرْضِهِم عِشْرَ طُولِها بَعْدَ جَلاءِ طِيطوس. وهذا أَمْرٌ لا يَسَعُ المُكابِرَ جَحْدُهُ ولا يُطيقُ المُنازِعُ رَدَّه.

د – وقال إرْميا النَبيُّ عن الله تعالى في حَقّ بني إسرائيل : فَإِنَّهُمْ إنْ صامُوا وإن صَلَّوا لم أَسْمَعْهم ، وإن قَرَّبُوا القَرابينَ لم أَقْبَلْها ، وبالحَرْبِ والجَزَعِ والمَوْتِ أُبيدُهُم. لا تَطْلُبْ إليَّ فيهم فإني لا أَسْتَجيبُ لَكَ. وقالَ أيضا : وأَنْتَ أَيُّها النَبِيُّ فلا تُصَلِّ قُدَّامي في سَبَبِ هذا الشَعبِ ، ولا تَطْلُبْ إليَّ في أَمْرِهِم ؛ ولا تَتَشَفَّعْ فيهم فإني لَسْتُ أَسْتَجيبُ لَكَ فِيهم.

هـ – وقالَ أيضًا : كما لا يَسْتَطيعُ الحَبَشيُّ أَنْ يَصيرَ أَبْيضَ ، هَكَذا بَنو إسرائيلَ لا يَدَعُونَ خُبْثَهُم وغَدْرَهُم ، ولِذلكَ لا أَرْحَمُهُمْ ولا أَرْؤُفُ عَلَيْهِمِ الشَعْبِ الخَبيثِ ولا أُشْفِقُ عليهم قالَ الله.

و – وقالَ أيضًا : قالَ لي الرَّبُّ اشْتَرِ كُرّازَ خَزَفٍ واكْسِرْه بَيْنَ يَدي الرُؤَساءِ والكَهَنَة ، وقُلْ لهم : هَكَذا قَالَ الرَّبُّ القَوِيّ : هَكَذا أَكْسِرُ هذا الشَعْبَ مِثْلَما كسَرْتُ هَذا الفَخّارَ الذي لا يُوجَدُ له عِلاجٌ أبدًا. وقالَ هُوشَعُ عن اللهِ تعالى : إني لا أَعودُ أَرْحَمُ بني إسْرائيلَ ومِنْ قَلْبي أُخْرِجُهُم ولا أَتَعَطَّفُ عَلَيهم. وقالَ أيضًا : سَيأتي زَمانٌ يَطلُبونَ اللهَ فلا يَجِدُونَهُ ، لأَنَّ اللهَ تبرّأ مِنهم

١) تهلكون وتفنون.

لِغَدْرِهِم. وأَوْلَدوا أَوْلادَ الخَطيئَةِ والفُجور، ولا يَسْمَعُ اللهُ دُعاءَهم إذا دَعَوْه، ولا تَصْعَدُ إِلَيهِ طِلْبَتُهم ويَبْقَونَ في الخِزْيِ والهَلاكِ إلى أَبَدِ الآبِدين.

ز – وقالَ أيضًا: كما زَنَتْ صورُ وأُخْرِبَتْ بِلادُها وأُيْتِمَتْ أَوْلادُها، هَكَذا إِسرائِيلُ بالقتالِ بَنوهُ يموتونَ بالسَّيْفِ، ويَهْلِكونَ بالحَرْبِ لأَنَّ لَعْنَةَ اللهِ حَلَّتْ فيهم، واللهُ كَرِهَهُم ومن بَيْتِهِ أَخْرَجَهُم ولا يَعودُ يَرْحَمُهم أَبدًا ولا يَغْفِرُ لَهُم، وكبارُهُمْ مَرَدَة، ولِذَلِكَ يُهْلِكُهُمُ اللهُ ويُفَرِّقُهُم في الشُعوبِ ولا يَرْحَمُهُم ولا يَنْظُرُ إِليهم بِرَأْفَةٍ إلى دَهْرِ الداهِرين.

ح – وقَالَ أَشَعْيا عن اللهِ تعالى: نَصَبْتُ كَرْمًا وعَمَّرْتُهُ وجَعَلْتُ لَهُ سِياجًا وبَنَيْتُ فيهِ مَجْدَلاً لِيَحْمِلَ فيه العِنَبَ فَأَخْرَجَ الخُرْنوبَ. أَنا الآنَ أَنْقُضُ المَجْدَلَ وأَقْلَعُ السِياجَ وأَمْنَعُ السَحابَ أَن يُنزِلَ عليهِ القَطْرَ. هذا بنوإسرائيلَ. وقال أَيْضًا: هذا الشَعْبُ يُحِبُّني بِفَمِهِ وقَلْبُهُ مني بَعيدٌ، ولِذَلِكَ سَأَفْضَحُهُ وأُهْلِكُهُ وأَجْعَلُهُ عَجَبًا لِمَنْ تَعَجَّبَ ولَعْنَةً لِمَنِ التَعَن. وقال حِزْقِيالُ: لو قامَ مِنْهُم نُوحٌ ودانيالُ وأَيُوبُ لم يَنْفَعُوهم.

ط – هذا انْموذَجٌ من كَلامِ الأَنْبياءِ في هذا المَعْنى، وقد ظَهَرَ مِنْهُ صِدْقُ الذي ادَّعيناهُ، ولَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَتَأَوَّل كَلامَ الأَنبياءِ تَأْوِيلاً يُخرِجُهُ عن فَحْواهُ، كما قَدْ تَأَوَّلَهُ بَعْضُ عُلَماءِ اليَهودِ هَرَبًا من التِزامِ هَذِهِ المَحذوراتِ المخُوفَةِ، لأني أقولُ للمُتَأَوِّلِ: إِنَّكَ إِنْ تَأَوَّلْتَ ما يَتَوَجَّهُ عَلَيْكَ من الإِلْزاماتِ طَمَعًا في التَخَلُّصِ منها، أَلْزَمْناكَ أَن تَتَأَوَّلَ جميعَ الكَلامِ الذي تَدَّعيهِ انَّهُ حُجَّةٌ لَكَ، كما تَأَوَّلْتَ الذي هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْكَ، لأَنَّ تَأَوُّلَ البَعْضِ لما نَحنُ فيه دونَ البَعْضِ الآخرِ تَحَكُّمٌ، والتَحَكُّمُ من شِيَمِ المكابِرينَ الذينَ يَرومونَ نَصْرَ الباطِلِ على الحَقِّ وتَرْجيحَ الكَذِبِ على الصِدْق.

ي – فإذن لا بُدَّ وَأَن تَخْتاروا[1] إما تَرْكَ تَأْوِيلِ الكَلامِ الذي نَقَلْناهُ وأَمْثالِهِ، فَتَلْتَزِمُوا[2] ما يَلْزَمُكُمْ مِنه، وإِمَّا أن تُجرُوا[3] التَأْوِيلَ في سائِرِ ما تَتَضَمَّنُهُ كُتُبُكُم، وحِينَئِذٍ تَتَزَلْزَلُ أَرْكانُ شَرِيعَتِكُمْ وَيَتَبَدَّلُ كثيرٌ من فَرائِضِها أو يَبْطُلُ بالكُلِّيَّة. فكَمْ من فَرِيضَةٍ في التَوراةِ يُمْكِنُ إِخْراجُها بالتَأْوِيلِ إلى غَيْرِ الذي تَدَّعِيهِ اليَهودُ في تِلْكَ الفريضَة. ومِثالُ ذَلِكَ أَنْ يُقالَ لَهم: إِنَّ الختانَةَ لَيْسَتْ هي الفِعْلَ الذي تَفْعَلُونَ بَل إِنما المُرادُ بها غيرُ ذَلِكَ بِدَليلِ قَوْلِ التَوْراةِ: واختُنُوا غُرَلَ قُلوبِكُم. ثُم نَقولُ: لَيْس المُرادُ بالذَبائِحِ سَفْكَ دِماءِ الحَيوانِ كما تَزْعَمُونَ بَل إِنّمَا المرادُ بها ما أشارَ إِليهِ دَاودُ النَبيُّ عليه السلامُ حَيْثُ قَالَ: إن ذَبائِحَ اللهِ هي الروحُ المُتَواضِعَة. وقَوْلُه أَيضًا: اذبحوا للهِ ذَبائِحَ الشُكْرِ. فإِلَيْكُم الخِيارُ في التَأْوِيلِ وتَرْكُهُ، فَعَلى التَقْدِيرَيْنِ لَيْسَ لَكُم من يَدَيِ المَحْذورِ خَلاصٌ ولا من سِهامِ المَطاعِنِ مَناصٌ.

والمُعْجِزاتُ التي ظَهَرَتْ على يَدِ موسى عَم كَثيرةٌ وعَظيمَةُ الشأْنِ، مِثْلُ قَلْبِ العَصا ثُعْبانًا، وصَيرورَةِ يَدِهِ الكَريمَةِ بَيْضاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ، وإِخْراجِ الماءِ من الصَخْرَةِ الصَّمّاءِ حَتَّى اسْقَى جَميعَ بني إِسرائيلَ، وإِحضارِ شَيءٍ كَثيرٍ من الطائِرِ المُسَمَّى بالسَلْوى وإِطعامِهِمْ إِيَّاهُ، والتَظْليلِ عَلَيْهِمْ بالغَمَامِ ومَا ظَهَرَ من النُورِ على وَجْهِهِ بِحَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِليهِ فاحْتاجَ أَن يَستُرَ وَجْهَهُ لِيُكَلِّمَهُم، وَغَيرِ ذَلِكَ مِمَّا تَتَضَمَّنُهُ التَوْراةُ المُقَدَّسَةُ وَهْوَ مَشهورٌ فيها.

وكلُّ مُعْجِزَةٍ لِنَبيٍّ جاءَ بَعْدَهُ – وَهْوَ عَلى دِينِ مُوسى ويَدْعو إِليهِ –

١) تختارون

٢) فتلتزمون.

٣) تجرون.

فَهِيَ كالمُعْجِزَةِ له، كما فَعَلَهُ يُوشَعُ بنُ نُونٍ وَصِيُّهُ عم حينَ أَمَرَ الشَّمْسَ فَتَأَخَّرَتْ وَلَمْ تَغِبْ حَتَّى نُصِرَ عَلى أَعْدائِه؛ وَيَبِسَ له نَهْرُ الأُرْدُنِ وَحَبَسَ جَرَيانَ الماءِ حَتَّى أَجازَ تابوتَ السَّكِينَةِ وجَميعَ بَني إسرائيلَ؛ وكَما فَعَلَهُ إليّا النَّبيّ عم مِنْ إحياءِ ابنِ الأَرْمَلَةِ، وإفاضَةِ خابِيةِ الزَّيْتِ، وحَبْسِ الأَمْطارِ ثَلاثَ سِنينَ ونِصْف، وأَمَرَ الأَرْضَ أَنْ لا تُنْبِتَ شيئاً، ثُمَّ قَرَّبَ قُرباناً ودَعا اللهَ فَفَتَحَ له أَبوابَ السَّماءِ وقَبِلَ قُربانَهُ فمُطِرَتِ الأَرْضُ، وتَسَلَّمَ أَعْداءَهُ عُبّادَ الأَوْثانِ وَذَبَحَهُمْ على جَبَلِ كَرْمَل.

حاشية ٦ فلِمَ لَمْ يَذْبَحْ آحابَ[1] المَلِكَ عابِدَ الوَثَنِ كما ذَبَحَ هؤلاءِ، وما الذي مَنَعَهُ عن ذلِكَ وأَجازَ عِندَهُ هَلاكَ الخَلْقِ الذينَ هَلَكُوا بِسَبَبِ حَبْسِ الأَمطارِ مَعْ أَنَّهُمْ ما كانَ فِيهِمْ عابِدُ وَثَنٍ. فَبِأَيِّ ذَنْبٍ هَلَكوا وسَلِمَ آحابُ الذي هُوَ صاحِبُ الذَّنْب.

ثمّ إنَّ اللهَ رَفَعَهُ بِكَرامَتِهِ، وكما أَحْيا أَليشَعُ النَّبِيُّ مَيْتًا حالَ حَياتِهِ وآخَرَ بَعْدَ وَفاتِهِ عِنْدَ مُقارَبَتِهِ لِقَبْرِه. ومُعْجِزاتُ الأنبياءِ المُتَّبِعينَ لِشَريعَةِ مُوسى كَثيرةٌ، مَشْهُورَةٌ في كُتُبِهِمْ، يَطولُ استِقْصاؤُها.

ومِنْ جُمْلَةِ ما يُعَدُّ مِنْ مُعْجِزاتِ موسى عم أَنَّهُ وَعَدَ بَني إسرائيلَ في التَّوْراةِ بِأَنَّهُم، إن أَطاعوا، اخْتَصَّهُم بالعِناياتِ والكَراماتِ ويَدومُ بَقاؤُهُم في الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ التي وُعِدُوا بِها ويَتَعَلَّقُ خِصْبُها وجَدْبُها وخَيْرُها وشَرُّها بِأَمْرٍ إلاهيٍّ بِحَسَبِ أَعْمالِهِمْ، فيُشاهِدونَ، مَعَ حُلولِ السَّكِينَةِ بَيْنَهُم، مِنْ خِصْبِ بِلادِهِمْ وانتِظامِ أَمْطارِهِم، وأَنَّها لا تَتَعَدَّى أَوقاتَها المُحتاجَ إلَيها، وظَفَرِهِمْ بِعَدُوِّهِمْ دُونَ اعتِدادٍ، ما يَدْرونَ بِهِ أَنَّ أَمْرَهُمْ لا يَجْري على قانونٍ طَبيعيٍّ ولكِنْ إراديٍّ؛ كما

١) لآحاب.

سَيَرَوْنَ مِنَ الجَدْبِ والقَحْطِ والمَوَتانِ والحَيَوانِ المُهْلِكِ، وغَيْرُهُم في دَعَةٍ، ما يَعْلَمونَ به أَنَّ أَمْرَهُمْ يُدَبِّرُهُ ما هو أَرْفَعُ مِنَ الأَمْرِ الطَبيعي. فَجَرَيانُ الأَمْرِ مَعَهُمْ على وَفْقِ وَعْدِهِ وَوَعيدِهِ هُوَ مِنَ المُعْجِزاتِ العَظيمَةِ له. ومُعْجِزاتُهُ أَكْثَرُها غَيْرُ مُحْتَمِلٍ أَنْ تَكونَ وَقَعَتْ بِحيلَةٍ أو تَواطُؤٍ، لِأَنَّها عَمَّتْ صُقْعًا كَبيرًا مِنَ الأَرْضِ وخَلْقًا كَثيرًا مِنَ البَشَر.

حاشية ٧ أ – إنَّ المُصَنِّفَ هَهُنا قَدْ طَعَنَ في مُعْجِزاتِ موسى وَهْوَ لا يَدْري، ويَظْهَرُ ذَلِكَ مِن قَولِه: وأَكْثَرُها غَيْرُ مُحْتَمِلٍ أَن تَكونَ وَقَعَتْ بِحيلَةٍ أَوْ تَواطُؤٍ، لِأَنَّ هَذا يُفْهَمُ مِنهُ أَنْ يَكونَ أَقَلُّها مُحتَمَلُ الوُقوعِ بِالحيلَةِ والتَّواطُؤِ، حاشى مُوسى عَنْ ذَلِكَ. ولكِنَّ المُصَنِّفَ أَتى هَهُنا بِلَفْظَةِ «أَكْثَرُها» مُتابَعَةً لِعادَتِهِ في هذا الكِتابِ، أَعْني الخُروجَ عَنِ الجادَّةِ المُسْتَقيمَةِ وتَرجيحَ العَقائِدِ السَقيمَة.

ب – ثُمَّ إنَّهُ اسْتَدَلَّ على نَفْيِ وُقوعِ مَعاجِزِ موسى بالحيلَةِ بِقَوْلِهِ: لِأَنَّها عَمَّتْ صُقْعًا كَبيرًا مِنَ الأَرْضِ وخَلْقًا كَثيرًا مِنَ البَشَر. والمُصَنِّفُ مَعَ سائِرِ أَهْلِ مِلَّتِهِ يَزْعُمونَ أَنَّ مُعْجِزاتِ السَّيِّدِ المَسيحِ وكافَّةِ الحَوارِيينَ – طَهَّرَ اللهُ الأَرْضَ مِن[1] باغِضِيهِمْ جَميعَها! – وَقَعَتْ بالحِيَلِ والتَّواطُؤ. فَلْيُقَل[2] لِلْيَهودِ: إنَّ الأَمْرَ الذي اسْتَدْلَلْتُم[3] بِهِ على نَفْيِ الحيلَةِ والتَّواطُؤِ في مُعْجِزاتِ مُوسى، أَعْني قَوْلَكُمْ إنَّها عَمَّتْ صُقْعًا كَبيرًا مِنَ الأَرْضِ وخَلْقًا

١) ما.
٢) فليُقال.
٣) استدلّيتم.

كثيرًا من البشرِ هُوَ في مُعجزاتِ أتباعِ السيّدِ المسيحِ ، أعني حواريّيهِ[1] عليهِم الصلاةُ والسلام ، أشدُّ ظهورًا وأوضحُ وجودًا . لأنَّ مُعجزاتِهِم عمّتْ مِن الأصقاعِ أضعافَ ما عمّتهُ مُعجزاتُ موسى ، وعمّتْ مِن البشرِ الذين في تلكَ الأصقاعِ خلقًا يزيدُ مبلغُ بعضِهِ على جُملةِ أهلِ زمانِ موسى مِن بني إسرائيلَ . وفي طيِّ ذلكَ الخلقِ مِن الأُممِ المُختلفةِ والممالكِ العديدةِ التي دخلتْ في دينِ النصرانيّةِ بِسببِ تِلكَ المُعجزاتِ ما لا يسعُ المُعاندَ النزاعُ في أنّهُ أكثرُ من جُملةِ اليهودِ الذين كانوا في زمانِ موسى بأضعافٍ مُضاعفةٍ . وهذا يُكذّبُ قولَ اليهودِ القائلينَ بأنَّ مُعجزاتِ أتباعِ السيّدِ المسيحِ لمْ تكنْ وقعتْ بالتأييدِ الإلهيِّ والعنايةِ الربّانيّةِ .

> ومنها ما استمرَّ حُدودَ أربعينَ سنةً . والذي منها ليسَ كذا فهوَ قليلٌ ، مِثلُ قلبِهِ العصا حيّةً تسعى ، ومثلُ إخراجِ يدِهِ بيضاءَ ، ومِثلُ النورِ على وجهِهِ . فإنَّ هذهِ ، لو وقعَ الاقتصارُ عليها وعلى أمثالِها ، لجازَ أنْ يُقالَ إنّها بتحيُّلٍ . وأمّا تلكَ الأُخرى فغيرُ مُحتملةٍ لذلك .
>
> وأتاهُم موسى ، عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلام ، أعني بني[2] إسرائيلَ ، بالشريعةِ المُقدّسةِ ، ولم ينسخِ الشريعةَ التي أمرَ بها الأُممَ مِن لدُنْ آدمَ ونوحٍ ، عليهِما السلام ، ولم يفسخْها ، ولكنْ أكّدَ الوصيّةَ بها ، وزادَ عليها ما خصّص به بني إسرائيلَ دونَ غيرِهِم مِنَ الأُمم .

حاشية ٨ أ – قدْ غلبَ على ظنّي أنَّ المُصنّفَ لمّا سطّرَ هذا الكلامَ ، إمّا إنّهُ قد كانَ سكرانَ أو كانَ قد عرضَ لهُ طرفُ ماليخوليا . وإلّا فكيفَ تجاسرَ على

١) حواريته.
٢) لبني

التفوّهِ بهذا الكلامِ الذي فسادُهُ ظاهرٌ لبعضِ الأطفالِ ، فضلًا عن المُحنّكينَ والرجالِ ، أعني قولَه : ولمْ ينسخِ الشريعةَ التي أُمِرَ بها الأُممُ من لدُنْ آدمَ ونوحٍ عليهما السلام . ألا يرى أنَّ موسى نسخَ في التوراةِ شريعةَ آدمَ وشريعةَ نوحٍ معًا؟

ب – أمّا نسخُهُ لشريعةِ آدمَ فلأنّهُ حرّمَ في التوراةِ من الحيوانِ ما كانَ حِلًّا لآدمَ وأهلِ زمانِهِ . كيفَ لا والتوراةُ نفسُها تشهدُ بأنَّ اللهَ تعالى قالَ لآدمَ عليهِ السلامُ[1] ولحواءَ : هوذا أعطيتُكما كُلَّ عُشبٍ يُزرعُ على وجهِ الأرضِ كُلِّها وكُلَّ شجرةٍ مُثمرةٍ ، فلْتكُنْ لكُم لتأكُلوها ، وكلَّ دوابِّ الأرضِ وطيرِ السماءِ وكُلَّ ما يتحرّكُ على الأرضِ فيهِ نفسٌ حيّةٌ ، وكلَّ خُضرةِ العُشبِ ليأكُلوهُ .

ج – وأمّا نسخُهُ لشريعةِ نوحٍ فلأنَّ موسى نفسَهُ حرّمَ في التوراةِ مِن الحيوانِ أيضًا ما لمْ يُحرّمْهُ اللهُ تعالى على موسى وقومِهِ ، وذلكَ لأنَّ التوراةَ تشهدُ بأنَّ اللهَ تعالى قالَ لنوحٍ : وكُلُّ دابّةٍ حيّةٍ فهيَ لكُم لمأكلِكُم كمِثلِ خُضرةِ العُشبِ أعطيتُكُمْ لتأكُلوا فكُلوا ، ولكنْ لا تأكُلوا اللحمَ الذي فيه نفسُهُ دمُهُ فلا تأكُلوهُ ! هذا نُقِلَ مِنَ التوراةِ ، فإذا عرفتَ ذلكَ ظهرَ لكَ أنَّ كلامَ المُصنّفِ لا شكَّ في فسادِهِ .

د – وأزيدُ فأقول : إنَّ موسى نسخَ شريعةَ إبراهيمَ أيضًا لأنه نسخَ فريضةَ الختانةِ المأخوذةَ عن إبراهيمَ حتى في ولدَيْهِ . أمّا الولدُ الواحدُ فما ختنَهُ بالكُلّيّةِ ، وأمّا الولدُ الآخرُ فختنَتْهُ أُمُّهُ لا عن إذنِ موسى ولا في اليومِ الثامنِ من ولادتِهِ ، لكنْ بعدَ سنواتٍ مضتْ مِنْ عُمرِهِ على ما هوَ ظاهرٌ من

١) السلم.

كَلام التَوراةِ. ومَعَ ذَلِكَ نَسَخَ هَذِهِ الفَرِيضَةَ في كلِّ مَوْلودٍ وُلِدَ في القَفْرِ، وما نَهاهُ اللهُ تعالى عن نَسْخِها، واستَمَرَّتْ مَنْسوخَةً إلى حِينَ جَدَّدَها يُوشَعُ بَعْدَ مَوْتِ موسى بزمانٍ. فَقَدْ ظَهَرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فَسادُ قَوْلِ المُصَنِّفِ حَيْثُ قالَ:

وَلَمْ يَنْسَخِ الشَرِيعَةَ التي أَمَرَ بَها الأُمَمَ.

هـ – وأَمَّا قَوْلُهُ: «ولَكِنْ أَكَّدَ[1] الوَصِيَّةَ بها» فَهْوَ أَوْغَلُ في الفَسادِ وَأَوْضَحُ بُطْلانًا. ولِظُهورِ كَذِبِهِ لا يُحْتاجُ إلى الكَلامِ عَلَيه. وأَمَّا قولُه: «وزادَ عَلَيها ما خَصَّصَ بهِ بَني إسرائيلَ دُونَ غَيْرِهِمْ من الأُمَمِ» فَهْوَ كَلامٌ صَحيحٌ، ولِهذا يَجِبُ على الأُمَمِ الحَمْدُ والشُكْرُ لله تَعالى بِغَايَةِ جُهْدِهِمْ، لأَنَّهُ أَراحَهُمْ من حَمْلِ أَثْقالِ الشَرِيعَةِ المُوسَوِيَّةِ، وأَعْفاهُمْ من الدُخولِ تَحْتَ اللَعْنَةِ التي في السِفْرِ الخامِسِ من التَوْراةِ التي لا بُدَّ وأَنْ تُلْزِمَ أَهْلَ المِلَّةِ اليَهودِيَّةِ، إذَا خالَفوا شَيْئًا من أَوامِرِ التَوْراةِ ونَواهِيها.

و – والمُصَنِّفُ قد شَهِدَ في هذا الفَصْلِ بِأَنَّ فَرائِضَ التوراةِ الزَائِدَةَ على فَرائِضِ الأُمَمِ السالِفَةِ تَخْتَصُّ بِبَنِي إسرائيلَ دُونَ غَيْرِهِم. ويَلْزَمُ من ذلكَ أَنْ تكونَ اللَعْنَةُ التي في السِفْرِ الخامِسِ مَخْصوصَةً بالمُخالِفينَ من بَني إسرائيلَ دُون غَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ التي لا تَعْتَقِدُ وُجوبَ التَقَيُّدِ بالشَرِيعَةِ المُوسَوِيَّة. ومِمّا يُؤَيِّدُ ذَلكَ أنْ يُقالَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرادُ مُوسى عليه السَلامُ تَخْصيصَ اللَعْنَةِ باليَهودِ المُخالِفينَ دُونَ سائِرِ الأُمَمِ المُخالِفينَ لأَحْكَامِ التَوْراةِ لَكَانَ قد جاءَ بِعِبارَةٍ تَتَناوَلُ اليَهودَ وَغَيْرَهُم، لكِنَّهُ لم يَفْعَلْ ذَلِكَ أَحْسَنَ اللهُ مكافَأَتَه عن الأُمَم!

---

١) أخذ.

وَخَصَّصَ سِبْطَ ليوي، لا سِيَّمَا هرونَ ونَسْلِهِ، بِفَرائِضَ وتَكالِيفَ غَيْرِ لازِمَةٍ لسائِرِ بَني إسرائيلَ.

فكُلُّ الأُمَمِ داخِلونَ تَحْتَ التَكْليفِ بِمَا أَمَرَهُمْ اللهُ به، على لِسانِ أنبيائِهِ قَبْلَ مُوسى عَم وعلى لِسانِهِ أَيضًا. وبنو إسرائيلَ مُكَلَّفونَ بما أُمِرَ به الأُمَمُ قَبْلَ موسى، وبِزِيادَةٍ خَصَّهُمُ اللهُ بها على لِسانِ رَسُولِهِ مُوسى عَم، تَشريفًا لهم وعِنايَةً بهم.

حاشية ٩ أ – أَمَّا قَوْلُهُ: «وبَنو إسرائيلَ مُكَلَّفونَ بمَا أُمِرَ بهِ الأُمَمُ قَبْل موسى»، فَقَدْ ظَهَرَ فسادُهُ في الحاشِيَةِ السابِقَةِ على هذه. وأَمَّا قَوْلُه: «وبزيادةٍ خَصَّهُمُ اللهُ بها على لِسانِ رَسولِهِ موسى عليه السلامُ تَشْريفًا لهم» فلِقائلٍ أنْ يَقولَ عليه: إنَّ نِسْبَةَ التَكاليفِ إلى نُفوسِ الناس كَنِسْبَةِ الأَدْوِيَةِ إلى أَبْدانِهِم. فكَمَا أنَّ البَدَنَ القريبَ من الصِحَّةِ لا يَحتاجُ من الأَدْوِيَةِ إلَّا إلى السَهْلِ اليَسير، فكذا النَفْسُ القَرِيبَةُ إلى الخَيْرِيَّةِ لا تَحْتاجُ من التَكاليفِ إلَّا إلى اليَسيرَةِ السَهْلَةِ. وأَمَّا كَثْرَةُ التَّكاليفِ فإنَّمَا تحتاجُها الأَنْفُسُ الشِرِّيرَةُ التي تَمَكَّنَتْ مِنها الأَخْلاقُ الرِدِيئَةُ تَمَكُّنَ الأَمْراضِ الخَبيثَةِ من البَدَن. فإنَّ الطَبيبَ حِينَئِذٍ يَحتاجُ في العِلاجِ إلى تَكْثيرِ الأَدْوِيَةِ واستِعْمَالِ القَوِيِّ منها دُونَ الضعيف. وعلى هذا لا تكونُ الزيادَةُ المَذكورَةُ تَشْريفًا لهم، كما قَالَ المُصَنِّفُ، بل إنَّمَا تكونُ قُيودًا تَمْنَعُهُمْ عن سُلوكِ السُبُلِ الرَديئَةِ التي في طِباعِهِم المَيْلُ إلى سُلوكِها.

ب – فإِنْ نازَعَني في ذٰلِكَ مُنازِعٌ وقالَ: إنَّ هذا الذي ذَكَرْتَهُ غَيْرُ لازِمٍ لِكَلامِ المُصَنِّفِ فَجوابُهُ أَنَّ هذا يَلْزَمُ المُصَنِّفَ وسائِرَ الذينَ يَقولونَ مَقالَتَهُ لُزومًا لا خَلاصَ لَهُمْ مِنْهُ. وذَلِكَ لأَنَّ المُصَنِّفَ قد قالَ في جَوابِ الاعْتِراضِ الخامِسِ ما حِكايَتُه: «إنَّ الأنبياءَ أَطِبَّاءُ النُفوسِ بإِرْشادِ اللهِ تعالى إيَّاهُم. وكما

أنَّ طبيبَ الأَبْدانِ إنَّما يُعالِجُ المَرَضَ الحاضِرَ في البَدَنِ لا غَيْرَهُ، فكَذا طَبيبُ النفوسِ الذي هو النَبيُّ إنَّما يُداوي مَرَضَ نُفوسِ الناسِ على حَسَبِ ما يَجِدُهُ في زَمانِه».

ج – هذا كَلامُهُ بعَيْنِه، فعلى هذِهِ القاعِدَةِ نَقول: لو لم تَكُنْ أَمْراضُ نُفوسِ اليَهودِ أَكْثَرَ مِنْ أَمْراضِ نُفوسِ الأُمَمِ السالِفَةِ وأَشَدَّ رَداءَةً، لَما كانَ طَبيبُها – وهو موسى عليه السلام – مُحْتاجًا إلى تَكْثيرِ الأَدْوِيَةِ والمُبالَغَةِ في المُعالَجَةِ إلى حَدٍّ يَزيدُ على كلِّ عِلاجٍ سَبَقَ عَلَيه. ومن هذا يَظْهَرُ فَسادُ قَوْلِ المُصَنِّفِ حَيْثُ قال: إن الزيادَةَ تَشْريفٌ[1] لَهُمْ.

واختَصَّ هَرونَ وبَنيهِ بِزيادَةِ تكاليفَ عَلَيهِم، تَمييزًا لهم عَنْهُمْ بِمَزيدِ تَشْريفٍ واخْتِصاصٍ وتَعْظيمٍ.

وَجَعَلَ مَن التَزَمَ مِنَ الأُمَمِ بِما كُلِّفَ به بنو إسرائيلَ، كالسَبْتِ وغَيْرِهِ مما يَخُصُّهُمْ، جارِيًا مجراهُم بحَيْثُ، لو عادَ عن التِزامِ ذلك، وَجَبَ قَتْلُه. ولم يَجْعَلْ لأَحَدٍ سَبيلاً إلى الالتِحاق بِبَني هرونَ عليهِم السلامُ، لا مِن بني إسرائيلَ ولا مِنْ غَيْرِهِم. وفُضِّلوا على مَن سِواهُمْ تَفْضيلاً كثيرا. وفُضِّلَ الإمامُ الأَعْظَمُ مِنهم، وهو الذي بِمَنْزِلَةِ هرونَ في البَيْتِ المُقَدَّسِ، بمَزيدِ تَكْليفٍ وتَفْضيلٍ على بَقِيَّةِ الهارُونِيِّينَ. فقد بانَ حينَئِذٍ أنَّ زِيادَةَ التَكاليفِ على حَسَبِ زيادَةِ التَفْضيلِ في الدُنيا وفي الآخِرَةِ.

حاشية ١٠ بَلْ قَدْ بانَ من الحاشِيَةِ السابِقَةِ على هذه ما يَدُلُّ على أنَّ الأَمْرَ بخِلافِ قَوْلِ المُصَنِّفِ هُهنا. وأَزيدُه فأَقولُ: لِمَ لا يَجوزُ أن تَكونَ زِيادَةُ التَكاليفِ جُعِلَتْ لَهم عَشْرَةً تَتَضاعَفُ أَوْزارُهُم بتجاوُزِها فيَشْتَدُّ بها

١) تشريفًا.

عَذابُهُمْ في الدُنْيا وعُقوبَتُهم في الآخِرَة. ومِمَّا يُؤَيِّدُ هذه الدَعوى قَوْلُ حزقيالَ النَبِيِّ عن اللهِ تعالى: أَعْطَيْتُ آباءَكُمْ وَصايا غَيْرَ حَسَنَةٍ ولا يَحْيا بها من عَمِلَ بها.

وَجَميعُ ما وَصّاهُم اللهُ بِهِ عَلَى لِسانِ رَسولِهِ الأَمينِ موسى، صلواتُ اللهِ عليه، هو اعتِقادُ التَوْحيدِ وتَرْكُ عِبادَةِ الأَصْنامِ؛ وأنْ لا يُشْرِكوا باللهِ شَيْئًا، وان يُنَزِّهُوهُ عن الشَبيهِ والنَظيرِ والمُعينِ والمُشيرِ، وأن يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ويُحِبّوهُ بِكُلِّ قلوبِهِمْ وأَنْفُسِهِم وجَهْدِهِم؛ ويَخافُوهُ، ويَستعينوا به، ويَتَوَكَّلوا عليه؛ وأنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّهُ العالِمُ الذي لا يَعْزُبُ عن عِلْمِهِ شَيْءٌ، والقادِرُ على كُلِّ شيءٍ والخالِقُ لِكُلِّ شَيءٍ؛ وأنَّه هُوَ الذي يُميتُ ويُحيي ويُمْرِضُ ويَشْفي؛ ولا مَنجى من قُدْرَتِهِ؛ وأنَّه الأَوَّلُ والآخِرُ، لا إِلهَ آخَرَ سِواه. وأَمَرَهُم بمكارِمِ الأَخْلاقِ وبالصَلاةِ والصَوم.

حاشية ١١ أ – لو أنَّ موسى أَمَرَهُمْ بِكُلِّ واحِدَةٍ واحِدَةٍ من هَذِهِ المَذْكوراتِ لَكانَ ذَلِكَ مَثْبوتًا في التوراةِ مِثْلَ ما هِيَ سائِرُ الأَوامِرِ والنَواهي مَثْبوتَةٌ فيها. ولا شَكَّ أَنَّ التَوراةَ ليسَ فيها من مكارِمِ الأَخْلاقِ الحَقيقِيَّةِ شَيءٌ[1] أبدًا، لكنَّ فيها ما ظاهِرُهُ يُوهِمُ أنه من مَكارِمِ الأَخْلاقِ وباطِنُهُ بخِلافِ ذلِك. فَمِنْهُ قَولُ التوراةِ في السِفْرِ الخامِس: لا يَحِلُّ لكم أَنْ تَأْكُلوا الرُبُوَّ فِضَّةً ولا طَعامًا لا قَليلاً ولا كَثيرًا، فأَمَّا مِنَ الغَريبِ كُلْ، وأَمَّا من إِخْوَتِكَ فلا تَأْكُلْ. ومَعْلومٌ أنَّ ظاهِرَ هذا الكلامِ يُوهِمُ النَهْيَ عن أَكْلِ الرُبُوّ، وباطِنُهُ يَدُلُّ على الأَمْرِ بأَكْلِهِ لِقَوْلِهِ: أَمّا من الغَريبِ كُلْ. ولا شَكَّ أَن مكارِمَ الأَخْلاقِ تَقْتَضي أن لا يَأْكُلَ الإنسانُ الرُبُوَّ لا مِنْ غَريبٍ ولا مِنْ قَريبٍ.

١) شيئًا.

ب – ومِنْ ذلكَ قَوْلُ التوراةِ في السِفرِ الخامِسِ أيضًا: إذا لَقِيتُم عَبْدًا فارًّا من سَيِّدِهِ فلا تَحْبسوهُ ولا تَدُلُّوا عَلَيهِ بَلْ أَجْلِسُوهُ مَعَكُم حَيْثُ أَحَبَّ من قُراكُم. ومَعْلُومٌ أَنَّ مَكارِمَ الأَخْلاقِ الحَقيقِيَّةِ تَقْتَضي أن يُجْمَعَ بَيْنَ العَبْدِ وسَيِّدِهِ ويُسْتَقْصى حالُها بالتَحقيق. فإنْ كانَ العَبْدُ قد فَرَّ من جَوْرِ سَيِّدِهِ فيُجارُ ولا يُسَلَّمُ إلى سَيِّدِهِ. وإن كانَ فَرَّ لِسَبَبِ جريمةٍ اجْتَرَمَها كَسَرِقَةِ مالٍ أَو قَتْلِ نَفْسٍ أو هَتْكِ عَوْرَةٍ، فَيُسَلَّمُ إلى سَيِّدِهِ لِيَنْتَقِمَ منه.

ج – وسأَنْقُلُ مِمَّا في التَوْراةِ من الحَثِّ على سُوءِ الأَخْلاقِ ما يَدُلُّ على فَسادِ قَوْلِ المُصَنِّفِ، فانْتَظِرْهُ وانْظُرْ فيه. وأمَّا الصَلاةُ والصَوْمُ فإنَّ التَوراة خالِيَةٌ عن ذِكْرِهِما بالكُلِّيَّةِ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلُّ من تَصَفَّحَها.

والصَدَقَةِ والعَدْلِ والإِنْصافِ، والوَفاءِ بالعَهْدِ والنَذْرِ، وإِكْرامِ الوالِدينَ والعُلَماءِ، وإطاعةِ الوُلاةِ وإكرامِهِم، وأَن يُحِبُّوا لِغَيْرِهِم من الخَيْرِ ما يُحِبُّونَهُ لأَنْفُسِهِم.

حاشية ١٢

أَلَيْسَ في السِفرِ الخامِسِ من التَوْراةِ: هَؤلاءِ الستُّ[1] الأُمَمُ أَكْثَرُ مِنْكُم وأَشَدُّ. فإذا أَسْلَمَهُم اللهُ رَبُّكَ في يَدَيْكَ فاضربُوهُم ولا تَرْحَموهُم. وفيهِ أيضًا: إذا أَراحَكَ اللهُ من أَعْدائِكَ الذينَ حَوْلَكَ في الأَرْضِ التي يَهَبُ اللهُ لَكَ مِيراثًا، فلا تَنْسَ عَماليقَ وذِكْرَهُ. فامْحوا ذِكْرَهُم من تَحْتِ السَماءِ، فلا تَنْسَهُ ولا تَغْفُلْ عَنْه. وفيه أيضًا: أَبْغِضْ شانِئَكَ واشْنَقْ على أعدائِكَ. وقد سَلَفَ أنَّ التوراةَ أَمَرَتْ بأَكْلِ الرُبُوِّ من الغَريبِ ونَهَتْ عن أَكْلِهِ مِنَ اليَهود. وهَذِهِ الأَقْوالُ بعَكْسِ قَوْلِ المُصَنِّفِ القائِلِ: وأَن يُحِبُّوا[2] لِغَيْرِهِم من الخَيْرِ ما يُحِبُّونَهُ لأَنْفُسِهِم.

١) الستّة.

٢) يحبّون

وعَرَّفَهُم ما يَسْلُكُونَهُ من طَريقِ السياساتِ المَنْزِلِيَّةِ والمَدَنِيَّةِ والنَفْسِيَّةِ. ونهاهُم عن الرذائِلِ والجَوْرِ، والقَتْلِ والسَرِقَةِ والزِناءِ وتَمَنِّي مالِ الغَيْرِ. وأَمَرَهُمْ بأَشْياءَ، ونَهاهُمْ عن أَشْياءَ لا نَعْقِلُ نحن فائِدَةَ التَكْليفِ بها.

وَقَدْ حُصِرَتْ أَوامِرُ التَوراةِ ونَواهيها المُسْتَمِرَّةُ الوُجوبِ في ستمائةٍ وثَلاثَةَ عَشَرَ، وهي عَدا ما أُمِرَ به ونُهِيَ عنه فيها لا على الدوامِ والاستِمْرار. وتَفاصيلُ ذلِكَ كُلِّهِ تَطول. وقد أُفْرِدَتْ له كُتُبٌ أُخْرى.

واعتَقَدَتِ اليَهودُ أَن ثَوابَ الطاعَةِ هو الخُلودُ في نَعيمِ الجَنَّةِ والعالَمِ الآتي؛ وعِقابُ المَعْصِيَةِ هو العَذابُ في جَهَنَّمَ مِنْ غَيْرِ خُلودٍ لِمُعْتَقِدِ هَذِهِ الشَريعَةِ، وإن كانَ عاصيًا. ولم يُبَيَّنْ شَيْءٌ من ذَلِكَ في التَوراةِ تَبْيينًا مُصَرَّحا، للسَبَبِ الذي سَنَذْكُرُهُ، ولكِنَّ أَحبارَ الأُمَّةِ وعُلَماءَهُم ونَقَلَةَ شَرْعِهِمْ نَقَلُوه.

حاشية ١٣

أ – هذا الاعْتِقادُ زِيادَةٌ على ما في التَوْراةِ، لِأَنَّها ما ذَكَرَتْهُ لا تَعْريضًا ولا تصريحًا. والمِلَّةُ التي تَعْتَقِدُ ما لَيْسَ في كِتابِها تَكونُ خارِجَةً عن حُكْمِ شارِعِها وقادِحَةً في تَشْريعِه. والتَوراةُ قد نَطَقَتْ بِأَنَّ ثَوابَ الطاعَةِ فَوائِدُ دُنْيَوِيَّةٌ، وعِقابَ المَعْصِيَةِ آفاتٌ وبَلايا دُنْيَوِيَّةٌ أَيْضًا. فمِنْ ذَلِكَ قَولُ السِفرِ الخامِسِ: فإنْ أَنْتُم سَمِعْتُم هذا القَضاءَ وحَفِظْتُمُوهُ وعَمِلْتُم به، فَسَيَحْفَظُ لَكَ اللهُ رَبُّكَ النِعْمَةَ والمِيثاقَ الذي حَلَفَ لآبائِكَ، ويُحِبُّكَ ويُبارِكُ عَلَيْكَ ويُكَثِّرُكَ ويُبارِكُ ثَمَرَةَ بَطْنِكَ وثَمَرَةَ أَرْضِكَ وزَرْعَكَ وخَمْرَكَ ودُهْنَكَ ورَعِيَّةَ بَقَرِكَ وقُطعانَ غَنَمِكَ.

ب – وفي أَواخِرِ السِفْرِ الثالِثِ: إنْ أَنْتُم سَلَكْتُمْ بِسُنَني وحَفِظْتُم وَصايايَ وعَمِلْتُم بها أُديمُ أَمْطارَكم في أَوْقاتِها وتَبْذُلُ لكم الأَرْضُ غِلالَها

وتُفرزُ لكُمُ المَزارِعُ ثِمارَها، ويُدْرِكُ الدارِكُ القِطافَ، والقِطافُ يُدرِكُ الزارِعَ. وتأْكُلونَ خُبْزًا وتَشْبَعُونَ وتَسْكُنونَ أَرْضَكُمْ مُطْمَئِنِّينَ، وأُكْثِرُ لكُمُ السَلامَةَ في أَرْضِكُمْ وتَنامُونَ آمِنينَ ولا يَكونُ مَنْ يُخيفُكُم، وأَصْرِفُ عن أَرْضِكُمُ السِباعَ الضارِيَةَ، ولا يَكونُ حَرْبٌ في أَرْضِكُمْ وتَطْرُدونَ أَعْداءَكُم ويَنْصَرِعُونَ قَتْلى[1] إذا جازَيْتُموهُم، الخَمْسَةُ مِنكم يَهزِمونَ مائَةً والمائَةُ مِنكم يَهزِمُونَ عَشَرَةَ آلافٍ، ويَقَعُ أَعْداؤُكم قَتْلى بَيْنَ أَيْديكُم في الحَرْبِ، وأُقْبِلُ إلَيْكُمْ وأُكَثِّرُكُمْ وأُنْميكُم.

ج – ثم زادَ على ذلِكَ أَشْياءَ كَثيرَةً من هذا الجِنْس. وقد جاءَ في التَوراةِ نَفْسِها كَلامٌ طويلٌ[2] في جَزاءِ[3] الأَعْمالِ الرَديئَةِ، مِنهُ ما هذهِ حِكايَتُهُ: فإنْ لم تُطيعوني وتَسْمَعوا قَوْلي وتَعْمَلوا بِهَذِهِ الوَصايا كُلِّها ورَذَلْتُم سُنَني وَكَرِهْتُم أَحكامي وَزَهِدتُم فيها ولم تَعْمَلوا بجميعِ وَصاياي وبَطَّلْتُم كُلَّ عُهودي، أَنا أَيضًا أَصْنَعُ بِكُمْ مِثْلَ صَنيعِكُم وآمُرُ بِكُمُ البَلايا والبَرَصَ والبَهَقَ المُنْتَشِرَ الذي لا يَبْرَأُ والسِّلّ.

د – ثم جاءَ بَعدَ قليلٍ: ويَهزِمُكُمْ أَعْداؤُكُم وتَنْكَسِرُونَ بَيْنَ أَيْديهِم، وَيَتَسَلَّطُ عَليكم شُنَاؤُكُمْ وتَهْرُبونَ من غَيْرِ أَنْ يَهْزِمَكُم أَحَد. ثم قالَ بعدَ قليل: وأُصَيِّرُ السَماءَ فَوْقَكُمْ كالحَديد والأَرْضَ تَحْتَكُم مِثْلَ النُحاسِ، ويَنْقَطِعُ قُوتُكُمْ بالباطِلِ، ولا تَغِلُّ لكم أَرْضُكُم غَلاتِها ولا تُثْمِرُ الشَجَرُ

١) قتلاً.
٢) كلامًا طويلاً.
٣) جزى.

ثِمارَها. وجاءَ أيضًا: وَأُرْسِلُ عَليكُم السِباعَ الضارِيَةَ فَتُهْلِكُكُم وتُهلِكُ بهائِمَكُمْ وتَقْتُلُكم وتَقتُلُ دَوابَّكُم.

هـ – ثم جاءَ أَيضًا: والذينَ يَبْقَونَ مِنْكم أُلْقي في قُلوبِهِم فَزْعَةً في أَرْضِ أَعدائِهِم، ويَطْرُدُهُمْ صَوْتُ وَرَقَةٍ تَتَحَرَّكُ، ويَهْرُبونَ من صَوْتِ الوَرَقَةِ كما يَهْرُبونَ مِنَ السَيْفِ ويَسْقُطونَ بسُرْعَةٍ من غَيْرِ أَنْ يَطْلُبَهُم أَحَدٌ، ويَعْثُرُ الرَجُلُ بأَخيهِ هارِبًا من غَيْرِ أَنْ يَطْلُبَهُ أَحَدٌ.

و – ثم جاءَ فِيها مِمَّا هُو من هَذا القَبيلِ أَشْياءُ كَثيرَةٌ يَعْرِفُها مَنْ تَصَفَّحَ جَميعَ التَوراة. فهذا وأَمْثالُهُ يَدُلُّ على أَنَّ عِقابَ المَعْصِيَةِ أيضًا دُنْيَوِيٌّ، فَظَهَرَ أَنَّ اليَهودِيَّ الذي يَعْتَقِدُ غَيْرَ هَذا لم يَكُنْ تابِعًا للتَوراة.

ز – ولَيْسَ يَخْفَى على لَبيبٍ أَنَّ الأَحْبارَ لمَا عَلِمُوا أَنَّ الشَريعَةَ الموسَوِيَّةَ أَعْوَزَها هذا الأَمْرُ المُهِمُّ الذي لا بُدَّ من ذِكْرِهِ في كُلِّ شَريعَةٍ حَقَّةٍ، أَعني ذِكْرَ المَعادِ والثَوابِ والعِقابِ الأُخْرَوِيَّيْن، تَبَرَّعُوا تَعَصُّبًا لِشَريعَتِهِم وغَفَلُوا عن فَريضَةِ النَهْيِ عن الزيادَةِ والنُقصان. فإنْ كانَتْ هَذِهِ التَوراةُ هي التي أُنْزِلَتْ، فَكَيْفَ استجازَ موسى عليه السلامُ الإخلالَ بِذِكْرِ هذا الأَمْرِ الذي هو أَهَمُّ مُهِمّاتِ الشَرائِعِ الصَحيحَةِ، مع أَنَّهُ ذَكَرَ أَشْياءَ لا فائِدَةَ في ذِكْرِها مِثْلَ قَوْلِهِ: وكانَ نوحٌ ابنَ خَمْسِ مائَةِ سَنَةٍ. فَوُلِدَ لَهُ ثَلاثَةٌ[1] بَنون، سامٌ وحامٌ ويافَثُ، ثم إنَّهُ كَرَّرَ ذَلِكَ بَعْدَ كَلامٍ قَليلٍ قائلاً: وُلِدَ له بَنونَ ثَلاثَةٌ، سامٌ وحامٌ ويافَث. فيا لَيْتَهُ ذَكَرَ المُجازاةَ الأُخْرَوِيَّةَ[2] وَلَو مَرَّةً واحِدَةً.

ح – وإنْ كانَتْ هَذِهِ التَوراةُ غَيْرَ تِلْكَ فَمُصيبَةُ اليَهودِ أَعْظَم. وأَنْتَ أَيُّها

١) ثلاث.
٢) الأخروة.

الرَّشيدُ المُنْصِفُ تعلَمُ أنَّ اليهوديَّ الذي يَعْتَقِدُ ما لَيْسَ في توراتِهِ ويَجْعَلُهُ رُكْنًا من أَرْكانِ دِينِهِ، يكونُ قَدْ خَرَجَ عَن شَريعَتِهِ وَنَبَذَها بالنَّقْض، وخالَفَ تَوراتَهُ التي نَهَتْهُ عن الزِيادَةِ والنُقصانِ في الشَريعَةِ، ولَعَنَتْهُ إنْ زادَ أَوْ نَقَصَ. والكَلامُ الذي نَقَلَهُ المُصَنِّفُ عن أَخْبارِ اليَهودِ ونَقَلَةِ شرْعِهِم إنَّما هو من هذا القَبيلِ، وَلَيْسَ مِن أَصْلِ الشَريعَةِ الموسَوِيَّة. فإذَنْ اعتِقادُهُمْ ذَلِكَ حُجَّةٌ عليهِم لا لَهُم.

وذَكَروا صِفَةَ الجَنَّةِ وَجَهَنَّم، وَوَصَفوا النَعيمَ والعَذابَ بأَشَدِّ استِقْصاء. وأَوجَبوا ذِكْرَ الإيمانِ بإحياءِ الأَمواتِ في كُلِّ صَلاةٍ، وحَكَموا بِأَنَّهُ لا تَصِحُّ صَلاةٌ أُخِلَّ فيها بذَلِكَ: وأَوجَبوا ذِكْرَهُ أَيضًا في كُلِّ يَوْمٍ من غَيْرِ الصَلاةِ، وأَوْجَبوهُ أَيضًا عِنْدَ رُؤْيَةِ مَقابِرِ هذه الأُمَّة. ولَقَّنوا مَن وَجَبَ قَتْلُهُ عِندَهُم، قَبْلَ قَتْلِهِ، أن يَسْأَلَ أن تَكونَ قَتْلَتُهُ تِلْكَ كَفَّارَةً عن ذَنْبِه.

ومِنْهُم مَن اعتَقَدَ أنَّ بَعْثَ الأَمواتِ يَحْصُلُ مَرَّتَيْن، مَرَّةً في زَمن المَسيحِ المُنْتَظَرِ عِنْدَهُم، وذَلِكَ البَعْثُ مُخْتَصٌّ بالصالِحينَ من الأُمَّةِ، على وَجْهِ المُعْجِزِ لِلْمَسيحِ وكَرامَةً لأُولائِكَ الصالِحينَ؛ وتارَةً بِبَعْثِ المَوْتى في القِيامَةِ العامَّةِ لكافَّةِ الناسِ، الصالِحينَ مِنْهُمْ والطالِحينَ، للجَزاءِ بالثَوابِ الأَبَدِيِّ على الطاعَةِ وبالعِقابِ على المَعْصِيَة.

حاشية ١٤ جَميعُ هَذا الكَلامِ هُوَ مِنَ البِدَعِ التي اخْتَرَعَها[1] عُلَماءُ اليَهودِ مِن أَنْفُسِهِمْ أو استَحْسَنوها من أَقاويلِ غَيْرِ اليَهودِ. لأَنَّ التوراةَ لَيْسَ فيها من ذَلِكَ

١) اخترعوها

ولا لَفْظَةٌ واحِدَة. فالذي يَعْتَقِدُ صِحَّةَ هذا الكَلامِ يَلْزَمُهُ القَوْلُ بأنَّ الشَريعَةَ مأْخُوذَةٌ عن أَخْبارِ اليَهودِ لا عن موسى، وأنَّ اليَهودَ كافَّةً لَيْسوا بتابِعينَ لموسى ولا للتَوراةِ لَكِنْ لهؤلاءِ الأَحْبار. ومَنْ يَلْزَمُهُ هذا اللازِمُ غَيْرُ داخِلٍ تَحْتَ شَريعَةِ نَبِيٍّ مِن الأَنْبِياءِ لا موسى ولا غَيْرِه.

واعتَقَدوا أيضًا بقاءَ الأَنفُسِ بَعْدَ فَسادِ الأَجْسادِ وأنّها لا تُعْدَمُ أبدًا، لُورودِ ذَلِكَ في كُتُبِ الأنبياءِ بَعدَ موسى عم، وَلِنَقْلِ أَحْبارِهِم وعُلَمائِهِم الصادِقينَ له.

ونَبَغَ مِنْهم من زَعَمَ أنَّ العالَمَ الآتي هو ما بَعْدَ المَوتِ فَقَط وأنَّ الثَوابَ الأَبَدِيَّ والعِقابَ إنَّما هُوَ للأَنْفُسِ المُجَرَّدَةِ بَعْدَ خَرابِ أَجْسادِها، وليْسا بِجِسْمانِيَّيْنِ، بل هُما رُوحانِيّانِ فَحَسْب. والنُصوصُ الكَثيرةُ المَنْقولَةُ عن عُلَمائِهِم وحَمَلَةِ شَرْعِهِم ناطِقَةٌ بالمُجازاةِ بالثَوابِ والعِقابِ، بِغَيْرِ عَوْدِ الأَنْفُسِ إلى الأَبْدانِ. وهي غَيْرُ مُحْتَمِلَةٍ لِلتَأويلِ عِنْدَ كُلِّ عاقِلٍ يَتَأَمَّلُها جَميعَها.

واعتَقَدوا أنَّ هذِهِ الشَريعَةَ لا تُنْسَخُ ولا تُبَدَّلُ بِغَيرِها، لِنُصوصٍ كَثيرةٍ جاءَتْ في التَوراةِ دالَّةً على ذلك، ولِتَواتُرِ الأُمَّةِ به، ودَعْواهُم بأَنَّهُ مَعلومٌ بالضَرورَةِ من دينِ موسى عم.

حاشية ١٥ أ – إنَّ هذا الاعْتِقادَ في غايَةِ الفَسادِ ومِمّا يَدُلُّ على فَسادِهِ ما هُوذا أَنْقُلُهُ مِنْ كَلامِ الأَنْبِياءِ لِبَنِي[1] إسرائيلَ عَلَيهِم السلامُ. قالَ إرميا: هَذِهِ أَيّامٌ تَأْتي، قالَ الرَّبُّ أُعاهِدُ فيها بَيْتَ إسْرائيلَ وبَيْتَ يَهوذا عَهْدًا جَديدًا. لَيْسَ مِثْلَ العَهْدِ الذي عاهَدْتُ بِهِ آباءَهُم في اليَوْمِ الذي أَخَذْتُ بِأَيْدِيهِم وأَخْرَجْتُهُم

١) بني.

مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، ولأَنَّهُم أبطلوا[1] ميثاقِي وعَهْدِي، وأنا أَيْضًا زَرَيْتُ بِهِم قالَ الرَّب.

ب – وقالَ أَشَعْيا: استَخْرِجُ من صِهيُونَ الشَريعَةَ وكَلِمَةَ الرَّبِّ مِن أُورَشَلِيمَ وتَحْكُمُ بَيْنَ الشعُوبِ وتُوَبِّخُ الأُمَمَ الكَثيرَةَ الذين في البُعْد. وقال ميخا: إِنَّما تخرُجُ الشَريعَةَ من صِهيُونَ وكَلِمَةَ الربِّ من أُورَشَليم وَتَحكُمُ وتُوَبِّخُ الأُمَمَ الكَثيرَةَ الذين في أَقْطارِ الأَرْضِ.

ج – هذا بَعْضُ كَلامِ الأَنْبياء ولَيْسَ لِأَحَدٍ أن يَحْمِلَهُ على شَريعَةِ اليَهودِ لِأَنَّها أُخِذَتْ مِن طورِ سِينٍ لا من صِهْيُون. وقالَ أَشَعْيا: وبَنُو إسرائيلَ الذينَ اخْتاروا الأَصْنامَ عَلَيَّ وعَمِلُوا الخُبْثَ بَيْنَ يَدَيَّ أُعَجِّلُ خِزْيَهُمْ وأُكافِئُ الشَعْبَ الرَديءَ بِسوءِ عَمَلِهِ الفاحِشِ وتَجيءُ الشُعوبُ كُلُّها وتَقومُ بَيْنَ يَدَيَّ، ويَنْظُرونَ[2] إلى الشَعْبِ الخَبيثِ بَني إسْرائيلَ، لا يَبْلى خِزْيُهُم ولا يَنْقَطِعُ إلى الدَهْرِ.

د – وقالَ أَيضًا: يَقولُ الشعُوبُ هَلُمُّوا نَنْطَلِقْ إلى طَريقِ الرَّبِّ لِأَنَّ بَني إسْرائِيلَ تَرَكوا طريقَ اللهِ تعالى وصاروا مَطرودين. تَعالَوا نَسْلُكْ طَريقَ الرَّبِّ ونُؤْمِنْ به. إِلَهُنا الإِلَهُ الحَقّ. وقالَ حِزْقِيالُ عَنِ اللهِ تَعالى: أَعْطَيْتُ آباءَكُم وَصايا غَيْرَ حَسَنَةٍ ولا يَحيا بِهَا مَنْ عَمِلَ بها. هذا كَلامُ النَبِيِّ عن اللهِ تعالى، وفيهِ إِشْعارٌ بِجوازِ النَسخِ لأَنَّ الوَصايا غَيْرَ[3] الحَسَنَةِ يَجوزُ نَسْخُها بالوَصايا الحَسَنَةِ، بل يَجِبُ نَسْخُها بها.

١) بطلوا
٢) ينظروا.
٣) الغير

هـ – هَذا أُنْموذَجٌ من قَوْلِ الأَنْبياءِ في هذا المعنى، وفيهِ كِفايَة. لَكِنّي أَزيدُهُ وأَقولُ مِن طَريقٍ آخَر: إنَّ النَسْخَ لا يَقَعُ إِلّا في الفَرائِضِ السَمْعِيَّةِ دُونَ غَيْرِها. والفَرائِضُ السَمْعِيَّةُ هِيَ مِثْلُ تَعْظيمِ يَوْمٍ دُونَ يَوْمٍ، وإِجْلالِ مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ، وَتحريمِ طَعامٍ دُونَ طَعامٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَحْسُنُ مِنَ الآمِرِ أَنْ يَأْمُرَ في وَقْتٍ ما بِأَمْرٍ ما لِمَصْلَحَةٍ يُوجِبُها ذَلِكَ الوَقْتُ، وَيَأْمُرُ بَعْدَ ذَلِكَ بِغَيْرِ ذَلِكَ الأَمْرِ لِمَصْلَحَةٍ أُخرى. إذا عَرَفْتَ ذَلِكَ فاعْلَمْ أَنّا إذا أَلْزَمْنا اليَهودَ نَسْخَ فَريضَةٍ سَمْعِيَّةٍ من فَرائِضِ التَوراةِ ثَبَتَ نَسْخُ شَريعَتِهِم قَطْعًا، لِأَنَّ الكُلَّ يَنْتَفي بانْتِفاءِ أَحَدِ أَجْزائِهِ.

و – ومَعْلومٌ أَنَّ فَريضَةَ السَبْتِ فَريضَةٌ سَمْعِيَّةٌ وقَدْ نُسِخَتْ في حِصارِ مَدينَةِ إِيريحا لِأَنَّ الكَهَنَةَ طافوا حَوْلَها سَبْعَةَ أَيّامٍ مُتَوالِيَةٍ، ومَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدَ هَذِهِ السَبْعَةِ الأَيّامِ لا بُدَّ وأَنْ يَكونَ يومَ سَبْتٍ بالضَرورَةِ، وقد عَمِلُوا فيه مِثْلَ ما عَمِلُوا من شُغْلِهِمْ في السِّتَّةِ الأَيّامِ الأُخَر، وهذا نَسْخٌ لِفَريضَةِ السَبْت. وأَيضًا ما مِنْ مُسافِرٍ مِنَ اليَهودِ كافَّةً معَ القَوافِلِ إِلّا وَهْوَ يَحُلُّ السَبْتَ حتى أَحْبارُهُمْ وفُقَهاؤُهُم، وهم لا يَتحاشَوْنَ عَن ذَلِكَ ولا يُنْكِرونَ على أَحَدٍ من اليَهودِ الذين يُسافِرونَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُم يُضْطَرُّونَ إلى حَلِّ السَبْتِ حَتْمًا.

ز – وفَرِيضَةُ القُربانِ في الهَيْكَلِ أَيْضًا فريضَةٌ سَمْعِيَّةٌ وقد نَسَخَها إِيليّا النَبِيُّ عليه السلام بِتَقْريبِهِ القُربانَ في غَيْرِ الهَيْكَلِ وهذا نَسْخٌ لِهَذِهِ الفَريضَة. وَنَسْخُ فَريضَةٍ واحِدَةٍ من الشَريعَةِ يَسْتَلْزِمُ نَسْخَ تِلْكَ الشَريعَةِ، وذَلِكَ لِأَنَّ القاعِدَةَ الكُلِّيَّةَ لامْتِناعِ شَيْءٍ على شَيْءٍ تَبْطُلُ بِوجُودِهِ في جُزْئِيٍّ[1] واحِدٍ له.

١) جزوي.

ولا خفاءَ أن الشَريعَةَ الموسَويَّةَ تَمْنَعُ التَقْريبَ في غَيْرِ البَيْتِ المَعْهُودِ مَنْعًا كُلِّيًّا. وإيلِيًّا النَبيُّ عليه السلامُ أَبْطَلَ هَذِهِ القاعِدَةَ بتَقْريبِهِ في غَيْرِ البَيْت، ولم يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ على سَبيلِ العِصْيانِ لله، وإلَّا ما كانَ قُبِلَ القُربانُ منه، فَبَقِيَ أن يَكونَ على سَبيلِ النَسْخ.

ح – ومِمَّا يَدُلُّ على النَسْخِ دَلالةً أَوْضَحَ من هذِهِ وَأَبْلَغَ ما نَسَخَهُ موسى مِنَ الفرائِضِ السَمْعِيَّةِ على ما هُوَ مَذْكُورٌ في التَوراة. فإنَّهُ قَدْ جاءَ في السِفْرِ الثالِثِ منها: عَوْرَةَ امْرَأَةِ أَخيكَ لا تَسْتَحِلَ[1] فإنَّها عَوْرَةُ أخيكَ. ثم جاءَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ ما أَكَّدَهُ وَهُوَ قَوْلُه: وَرَجُلٌ يَنْكِحُ امْرَأَةَ أَخيهِ قد ارْتَكَبَ إثْمًا لِأَنَّهُ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخيهِ فَلْيَمُوتا ولا يُخْلِفا وَلَدًا[2]، ثُمَّ نَسَخَ هَذِهِ الفَريضَةَ في السِفْرِ الخامِسِ حَيْثُ قالَ فيه: وقالَ اللهُ لموسى قُلْ لبني إسْرائيلَ إذا كانَ أَخوانِ[3] فمَاتَ أَحَدُهُما وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ فَلا تَخْرُجِ امرَأَتُهُ مِنْ بَيْتِهِ، ولْيَنْكِحْها أَخُوهُ فإنْ وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ فَلْيُسَمِّهِ باسمِ أَخيهِ الذي ماتَ لِئَلَّا يَبْطُلَ اسْمُهُ من بَني إسْرائيل.

ط – ومِمَّا يَدُلُّ على النَسْخِ أَيْضًا ما جاءَ في السِفْرِ الثالِثِ من النَهْيِ عَنِ الرُبُوِّ مُطْلَقًا، وهَذِهِ حِكايَةُ كَلامِهِ: لا تُعْطِ فِضَّتَكَ بِأَجْرٍ، وبالرُبُوِّ لا تُعْطِ طَعامَكَ. ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ في السِفْرِ الخامِسِ: لا يَحِلُّ لَكُم أَنْ تَأْكُلوا الرُبُوَّ فِضَّةً ولا طَعامًا لا قَليلاً ولا كثيرًا. فَأَمَّا مِنَ الغَريبِ كُلْ، وأَمَّا من إخْوَتِكَ فَلا تَأْكُلْ. هذا كَلامُ التَوراة. ولا شَكَّ أَنَّ الأَمْرَ بِأَكْلِ الرُبُوِّ مِنَ الغَريبِ يَنْسَخُ ما سَبَقَ من النَهْيِ عَنْهُ مُطْلَقًا.

١) لا تستحلي.
٢) يموتان ولا يخلفا ولد.
٣) أخوين.

ي – ثُمَّ جاءَ في السِفْرِ الرابعِ ما مَعْناهُ أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بِرَجْمِ الشَخْصِ الذي التَقَطَ الحَطَبَ في القَفْرِ يَوْمَ السَبْتِ فَرَجَمَهُ الشَعْب. ثم نَسَخَ هَذا الحُكْمَ في السِفْرِ الخامِسِ حَيْثُ قالَ: وإذا أَذْنَبَ رَجُلٌ[1] ذَنْبًا فَلْيُقْتَلْ ويُصْلَبْ على خَشَبَةٍ ولا يَبِتْ جَسَدُهُ على الخَشَبَةِ ولكِنْ يُدْفَنُ في يَوْمِهِ. ولا شَكَّ أنَّ هَذا الحُكْمَ نَسَخَ أَحْكامًا كثيرَةً لِأَنَّ المَفْهومَ مِنْهُ هُوَ قَتْلُ المُذْنِبِ مُطْلَقًا، ومَعْلُومٌ [أَنَّ] الذي التَقَطَ الحَطَبَ مُذْنِبٌ، فكانَ يَجِبُ قَتْلُهُ لا رَجْمُهُ. وقالِعُ العَيْنِ أَيْضًا مُذْنِبٌ فَيَجِبُ قَتْلُهُ على هذا التَقْديرِ لا قَلْعَ عَيْنِه كما قِيلَ في مَوْضِعٍ آخَرَ من التَوراة: العَيْنُ بالعَيْنِ، وهذا نَسْخٌ ظاهِرٌ، وقِس عَلَيهِ قَوْلَ التَوراةِ: السِنُّ بالسِنِّ وغَيْرَ ذَلِكَ.

ك – ثمَّ إنَّ التَوْراةَ أَمَرَتْ بالطَلاقِ مُطْلَقًا في مَوْضِعٍ ونَهَتْ عَنْه في مَوْضِعٍ آخَرَ مَخصوصٍ، فَأَحَدُ الاثْنَيْنِ لا بُدَّ وأنْ يَكونَ ناسِخًا والآخَرُ مَنْسوخًا؛ فإذَنْ قد ظَهَرَ فَسادُ قَوْلِ القائِلِ بأنَّ شريعَةَ اليَهودِ لا تُنْسَخ. فإن كابَرَني مُكابِرٌ[2] وغالَطَني مُغالِطٌ وقالَ إنَّ مُرادَنا بِقَوْلِنا لا تُنْسَخُ هُوَ أَنَّها لا تُنْسَخُ بِجُمْلَتِها أَيْ لا يُنْسَخُ كُلُّ واحِدٍ واحِدٍ من فرائِضِها بِأَسْرِها. ولَسْنا ندَّعي امْتِناعَ نَسْخِ بَعْضِ فَرائِضِها دُونَ البَعْض، فَجَوابُهُ أنَّ النَسْخَ ثابِتٌ على تَقديرِ نَسْخِ بَعْضِ الفَرائِض. وقد لَزِمَكُمْ ولا مَفَرَّ لَكُمْ مِنْه.

ل – وأَمَّا النَسْخُ على التَقْديرِ الذي ذَكَرَهُ المُكابِرُ فهوَ غَيْرُ مَعقولٍ لأَنَّه مُمْتَنِعُ الوُقوعِ في كُلِّ شريعَةٍ حتى في شَريعَةِ النَصارى التي يَعْتَقِدُ اليَهودُ فَسادَها. مع عِلْمِهِم بِأَنَّها قد تَضَمَّنَتِ الإقْرارَ بالرُبوبِيَّةِ وبِوُجُودِ المَلائِكَةِ

١) رجلاً.
٢) مكابرًا.

وبقاء الأنفس بعد الموت والمعاد والمجازاة الأخرويّة وأمرت بالإحسان
إلى كلّ خلق الله بحسب الاستطاعة وبردع قوّة الشهوة والغضب وببرّ
الوالدين وبنصر المظلوم وبمساعدة الضعيف وبما يشاكل ذلك. وهذا
وأمثاله لا يجوز نسخ جميعه في شريعة من الشرائع أبد الآبدين.

م – ولا يقع النسخ أبدًا إلّا في الفرائض السمعيّة لا غير؛ وحيث قد لزم
اليهود نسخ بعض فرائض التوراة السمعيّة، لزمهم نسخ شريعتهم حتمًا،
لأنّ العقل السليم يحكم بأنّ انتفاء البعض يستلزم انتفاء الكلّ؛ ومثال ذلك
أنّ العشرة إذا انتفى منها واحد انتفت عشريّتها قطعًا؛ والصادق إذا كذب
مرّة واحدة انتفى صدقه، والعفيف إذا زنى مرّة واحدة انتفت عفّته؛
والثقة إذا سرق مرّة واحدة انتفت ثقته. وأمثال ذلك كثيرة. وإذ قد ثبت
نسخ بعض الشريعة الموسويّة ثبت بواسطة ذلك نسخها لزومًا، فبطل قول
من يجحد نسخها وصحّ قول من يدّعي نسخها.

ن – ومن المحتمل أن يكون موسى عليه السلام قد نبّه على نسخ
شريعته بسكوته عن ذكر المجازاة الأخرويّة لعلمه بأنّ أرباب العقول
السليمة لا يخفى عليها أنّ الأمور الأخرويّة أشرف من الأمور الدنيويّة وأهمّ
منها. فإذا جاءهم من يستميلهم إلى شريعة تتضمّن ذكر المجازاة الأخرويّة
أجابوه من غير توقّف لعلمهم بأنها أشرف من المنسوخة، كما أنّ الآخرة
أشرف من الدنيا. هذا ما يتعلّق بنسخها.

س – وأمّا اعتقاد اليهود بأنّ شريعتهم لا تبدّل بغيرها فهو مردود من
وجوه كثيرة، منها ما نقله المصنّف عن أحبار اليهود ونقلة شرعهم من ذكر
جزئيّات الجنّة والنار. وهنا تبديل لا شكّ فيه لأنّ النظرة السليمة تشهد أنّ

المراد عليه مع الزيادة غير الذي كان قبل تلك الزيادة. وهذا الحكم لا
ينكره من له في الإنسانيّة نصيب. ومنها ما فعله أنقلوس صاحب اللسان
الترجوميّ، فإنّه بدّل في التوراة ألفاظًا كثيرة مثل جعله بدل قول التوراة
«نزل الله» «تجلّى الله». ولا شكّ أنّ التجلّي غير النزول، فثبت التبديل
لزومًا، وثبت مع ذلك خروج أحبار اليهود ونقلة شرعهم عن طاعة التوراة
ودخولهم تحت اللعنة المذكورة فيها. أمّا خروجهم عن طاعتها
فلمخالفتهم قولها حيث نهتهم عن الزيادة والنقصان. وأمّا دخولهم تحت
اللعنة المذكورة فيها فبسبب أنّهم زادوا أشياء ونقصوا أشياء.

ع – ولنذكر أنموذجًا من الأشياء التي زادوا ومن الأشياء التي نقصوا.
أمّا التي زادوا فمنها زيادة قوليّة مثل التي حكاها المصنّف عن الأحبار، ومنها
زيادة فعليّة مثل الأصوام التي جدّدوها بعد وقائع جرت من بعد موت
موسى بزمان طويل، ومثل تحريم المآكل التي لم تحرّمها التوراة عليهم،
وذلك مثل تحريم الجمع بين أكل اللحم واللبن في وجبة واحدة حتى
ولو كان من لحم الدجاج والعصافير، وهذا غير محرّم في التوراة. نعم
الذي هو حرام فيها إنّما هو طبخ الجدي بلبن أمّه لا غير وهذا لا يلزم منه
تحريم طبخ اللحم باللبن مطلقًا كما قد فعلوه على سبيل التشريع المؤبّد،
بل ولا تحريم طبخ الجدي بلبن غير أمّه، سواء كان لبن ماعز أو ضأن أو
بقر.

ف – وممّا قد زادوا أيضًا، فريضة الافتقاد وبالغوا فيها إلى حدّ [أنهم]
أفردوا لها مصنّفات. ولا شكّ أنّها غير مذكورة في التوراة، وهم يتمسّكون
بهذه الفريضة تمسّكًا يفوق تمسّكهم بفرائض كثيرة من فرائض التوراة

ولا يَشْعُرونَ بأَنَّهُ قد انطَوى من مِلَّةِ اليَهودِ، قَبْلَ ابْتِداعِ هَذِهِ الفَريضَةِ، أَنْبِياءُ وأَبْرارٌ وصالِحون[1] وما عِنْدَهُم بِهَذِهِ الفَريضَةِ عِلْمٌ ولا خَطَرَتْ لَهُمْ بِبالٍ. فإمَّا أنَّ هَؤلاءِ السَلَف كانوا على ضَلالٍ أَوْ الخَلَفُ هم من الضالِّينَ. فَهَذِهِ الزياداتُ وأَمْثالُها تَشْهَدُ عليهم بِنَسْخِ شَريعَتِهِم وتَبديلِها بِغَيْرِها. وبأنهم استغفلوا نَبِيَّهُم عن ذِكْرِها. فَذَكروها نِيابَةً عَنْهُم، واستَنْقَصُوا شَريعَتَهُم فَتَمَّمُوها بِهَذِهِ الزِياداتِ. هَذا ما يَتَعَلَّقُ بالزِيادَةِ.

ص – وأمَّا النُقصانُ فَمِنْهُ أَنَّهُم أَسقطوا تَرْكَ التِقاطِ الغَلاَّتِ في السَّنَةِ السابِعَةِ، وَعِتْقَ العَبْدِ أَيْضًا في السَنَةِ السابِعَةِ من اسْتِعْبادِهِمْ إيَّاه. وهذا، مَعْ أَنَّهُ يَدُلُّ على النَسْخِ، فهُوَ يَدُلُّ على التَبديلِ أَيْضًا، لأنَّ المَجْموعَ الذي حُذِفَ بَعْضُهُ غَيْرُ المَجْموعِ الذي كانَ قَبْلَ حَذْفِ ذَلِكَ البَعْضِ المَحْذوفِ. فَقَدْ ظَهَرَ لِكُلِّ رَشيدٍ مُنْصِفٍ أَنَّ الزِيادَةَ وكَذا النُقْصانُ يَدُلاَّنِ على النَسْخِ والتَبديلِ مَعًا دَلالَةً إِلْزامِيَّةً لا مَفَرَّ مِنها، فَبَطَلَ ما نَقَلَهُ المُصَنِّفُ عن اليَهودِ وَظَهَرَ فَسادُ اعتِقادِهِمْ بأَنَّ شَريعَتَهُم لا تُنْسَخُ ولا تُبَدَّلُ بِغَيْرِها.

ق – وَلَقَدْ كانَ يَجِبُ على اليَهودِ أن لا يُوافِقوا[2] فُقَهاءَهُم على البِدَعِ التي ابْتَدَعُوها في الشَريعَةِ، لِقَولِ إِرْمِيا النَبِيِّ عليه السلامُ القائِلِ عَنْهُمْ ما حِكايَتُه: لِأَنَّهُم جَميعَهُمْ فُجَّارٌ جَماعَةُ الكَذِبِ يَقْذِفونَ الكَذِبَ من أَلْسِنَتِهِمْ كالسِهامِ مِنَ القَوْسِ، وأَكْثَروا في الأَرْضِ من الكَذِبِ والزُورِ وخَرَجُوا من الشَرِّ إلى الشَرِّ ولم يَعْرِفُوني يَقولُ الرَّب.

١) صالحين.
٢) يوافقون.

ر – وقالَ أَيضًا: وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْهُم يَغْدُرُ بِصاحِبِهِ ولا يَنْطِقونَ بالحَقِّ ولكِنْ عَوَّدُوا أَنْفُسَهُمْ وأَلْسِنَتَهُم كَلامَ الكَذِبِ. وقال أَشعيا: يا شَعْبي رُؤساؤُكُم هُمُ الذينَ أَضَلُّوكُم وَزَعَمُوا أَنَّهُم يُحْسِنونَ إِلَيكُم وأَفْسَدُوا طُرُقَ سَبيلِكم، ولكِنْ سَيَنْهَضُ الربُّ للمُحاكَمَةِ مَعَ مَشايِخِ شَعْبِه.

فَهَذِهِ حِكايَةُ ما تَعْتَقِدُهُ اليَهودُ في نُبُوَّةِ موسى وما جاءَ به، على وَجْهِ الإجْمالِ. فَمَنْ أَرادَه تَفْصيلاً فَلْيَنْظُرْ في التَوراةِ، وأَسْفارِ النُبُوَّاتِ، وكُتُبِ الأَحْبارِ، القُدَماءِ مِنْهُمْ والمُحْدَثِين.

وها هنا اعتِراضاتٌ سَبْعَة.

الاعتراضُ الأَوَّل

إنَّ تَواتُرَ اليَهودِ مُنْقَطِعٌ بِواقِعَةِ بُخْتُنَصَّرَ وغَيْرِها، فَلا يَصِحُّ شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْتُم من المُعْجِزاتِ، ولا مِنْ غَيْرِها.

وجوابُه

إن هذهِ مُكابَرَةٌ، لأَنَّ مَنْ يَسْمَعُ أَخْبارَهُم، على حَدِّ سَماعِهِم لها، لا يَشُكُّ في أنَّ هَذِهِ اللُغَةَ العِبْرانِيَّةَ التي لا يَتَكَلَّمُ بها غَيْرُهُم هي التي كانوا يَتَكَلَّمُونَ بها في ابْتِداءِ أَمْرِهِم. ولا يَشُكُّ في وُجودِ موسى وهرونَ وداودَ وسُلَيْمانَ وغَيْرِهِما من مَشْهوري مُلوكِهِم. وَيَجْزِمُ بِوُجودِ المَشْهورينَ من أَنْبيائِهِم وعُلَمائِهِم الذين يَتَداوَلُونَ بِكَلامِهِم وفِقْهِهِم، بَلْ ولا يَشُكُّ في مُدَّةِ بَقاءِ البَيْتِ الذي بَناهُ سُلَيْمانُ إلى أن خَرِبَ، وفي مُدَّةِ بَقاءِ البَيْتِ الذي بُنِيَ بَعْدَ ذلك، وفي مُلْكِ أولادِ حَشْمَناي، وتَخْريبِ طيطوس

لِلْبَيْتِ الثاني ، وغَيْرِ ذَلِكَ من تَفاصيلِ أَحْوالِهِمْ وعِلْمِهِمْ وفِقْهِهِم وغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمّا لم يَتَواتَرْ من غَيْرِهِم . ولوكان تَواتُرُهُم مُنْقَطِعًا ، لَما جَزَمْنا بِشَيْءٍ من ذلك .

وأَمّا قَتْلُ بَخْتَنَصَّرَ وغَيْرِهِ لَهُمْ فَلَيْسَ فيه ما يَدُلُّ على انْقِطاعِ تَواتُرِهِم . أَلَيْسَ الرومُ ظَفِرَ بِهِم الفُرْسُ ، وقَتَلوا رِجالَهُم واسْتَباحُوا ذَرارِيَّهم ؛ والرُومُ في أَيّامِ الاسكَنْدَرِ جاؤوا إلى فارِسَ ، وقَتَلوا دارا مَلِكَهُم ، وهَدَمُوا حُصونَهُم ، وأَذْهَبوا كُتُبَهم . والعَرَبُ غَزاهُمُ الحَبَشَةُ ، وقَتَلُوهُمْ ونَزَلوا بِلادَهُم حتى بَعَثَ مَلِكُ الفُرْسِ مَن هَزَمَهُم . ثم إنَّ اليَهودَ لم يَكُنْ جَميعُهُمْ بِبَيْتِ المَقْدِسِ حِينَ ظَفِرَ بِهِم فيها بَخْتَنَصَّرُ ، ولم يَقْتُلْ كُلَّ مَن بِها .

فإنَّ في يِرْمِيا – أي في سِفْرِهِ – أَنَّ عامَّةَ بَني إسرائيل خَرَجُوا مُسْتَأْمِنَةً وقد كانوا بَعْدَ ذَلِكَ مَوْجُودِينَ في بِلادٍ لا يُحْصَى عَدَدُها وقد صَحِبَتْهُمُ النُّبُوَّةُ بعد ذَلِكَ حُدودَ مائَةٍ وعَشْرِ سِنِينَ .

وأَعداؤُهم الطاعِنونَ في دِينِهِمْ يَشْهَدونَ بما يُنافي انْقِطاعَ تَواتُرِهِم .

فإنَّ صاحِبَ كِتابِ **إفحام اليهود** قال في كتابِهِ المَذْكورِ ما حِكايَتُهُ :

وكانَتِ اليَهُودُ في قَديمِ الزَمانِ تُسَمّي فُقَهاءَها بالحُكَماءِ وكانَ لِهَؤُلاءِ الفُقَهاءِ من المَدارِسِ في بابِلَ وسُورا والمَدائِنِ والشامِ ما لَم يَكُنْ لأَحَدٍ من الأُمَمِ مِثْلُهُ . وكانَ لَهُمْ في العَصْرِ الواحِدِ أُلوفٌ كَثيرَةٌ من الفُقَهاءِ وذَلِكَ في زمانِ دَوْلَةِ النَبَطِ البابِلِيّينَ والفُرْسِ وَدَوْلَةِ اليُونانِ ودَوْلَةِ الرُومِ .

إلى هاهنا حِكايَةُ كَلامِهِ .

ومَنْ قَدْ كانَتْ حالُهُمْ هَذِهِ بعد واقِعَةِ بَخْتَنَصَّرَ ، فكَيْفَ يَكونُ بَخْتَنَصَّرُ قد قَتَلَهُمْ إلى أَنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُم عدد[1] لِتَواتُرٍ ؛ ثم ، عَقيبَ واقِعَةِ بَخْتَنَصَّرَ ، كان لَهُم اجْتِماعٌ عَظيمٌ لا يَشُكُّ فيه مَنْ يَسْمَعُ سِيرَتَهم على الحَدِّ الذي سَمِعُوها . وكانَتْ عِمارَةُ البَيْتِ الثاني بَعْدَ الواقِعَةِ المَذْكُورَةِ بِسَبْعينَ سَنَةً . وكانوا حِينَئِذٍ أُمَّةً لا تُحْصَى . ومَن أَنْصَفَ ، ولم يَكُنْ قَصْدُهُ العِنادَ ، يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ تَواتُرَهُم لَيْسَ بِمُنْقَطِعٍ بالكُلِّيَّةِ ، ولَكِنَّ بَعْضَ أَحْوالِهِمْ قد انْقَطَعَ التَواتُرُ به ، لِطولِ المُدَّةِ ولِكَوْنِهِ لم يَكُنْ مُهِمًّا عِنْدَهُم ، فلَمْ يَقَعِ الاهْتِمامُ به كالاهْتِمامِ بِغَيْرِهِ ، فصارَ مَرْوِيًّا بالآحادِ أو نُسِيَ بالكُلِّيَّةِ .

حاشية ١٦

إن الذي ادَّعاهُ المُعْتَرِضُ هو انْقِطاعُ التَواتُرِ ولا يَلْزَمُ من ذَلِكَ انْقِطاعُ تَواتُرِ كُلِّ واحِدَةٍ واحِدَةٍ مِنَ القَضايا التي يَدَّعي اليَهودُ التَواتُرَ بها . وحَيْثُ قد اعْتَرَفَ المُصَنِّفُ بانقِطاعِ التَواتُرِ بِبَعْضِ الأَحْوالِ صارَ هذا الاعْتِرافُ شَهادَةً على اليَهودِ مَقْبولَةً عِنْدَهُم كافِيَةً في الحُكْمِ بِانْقِطاعِ تَواتُرِهِم . ولا سَبيلَ للمُكابِرِ إلى جَحْدِ ذَلِكَ ولو كانَ أَفْصَحَ خَلْقِ اللهِ لِسانًا .

وهَذا فَلَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِم دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ .

الاعتراضُ الثاني

إنّا ، وإنْ سَلَّمْنا صِحَّةَ أَصْلِ تَواتُرِهِم ، لكِنّا لا نُسَلِّمُ تَواتُرَ التَوراةِ ، لأن حِفْظَها لم يَكُنْ عِنْدَهُمْ فَرْضًا ولا سُنَّةً ، بل كانَ كُلُّ واحِدٍ من الهارُونِيّينَ يَحْفَظُ فَصْلاً من التوراةِ . فلَمّا رَأى عَزْرا أَنَّ القَوْمَ قد أُحْرِقَ هَيْكَلُهُمْ وزالَتْ دَوْلَتُهُمْ وتَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ ورُفِعَ كِتابُهُمْ ، جَمَعَ من مَحفوظاتِهِ ومِنَ الفُصولِ التي يَحْفَظُها الكَهَنَةُ ما لَفَّقَ مِنْهُ هَذِهِ التوراة

[1] عددًا.

التي بأيديهم. ورُبَّمَا يَكُونُ قد زادَ فيها ونَقصَ بِحَسَبِ أغراضِهِ. فَهِيَ بالحَقِيقَةِ كِتابُ عَزْرا ولَيْسَتْ كِتابَ الله.

حاشية ١٧

أ – هذا اعتِراضٌ قَوِيٌّ جدا لا نَجاةَ لليهودِ مِن التِزامِهِ. ومِمَّا يَدُلُّ على صِدْقِ دَعْوَى هذا المُعْتَرِضِ أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ لا يُتَّهَمُ بالجَهْلِ المُرَكَّبِ الذي هُوَ عَدَمُ اعتِقادِ الحَقِّ مع اعتِقادِ نَقِيضِهِ، ولا بأَنَّهُ يَتَقَصَّدُ تَضْليلَ أُمَّةٍ أَرْسَلَهُ اللهُ لِهِدايَتِها. ولا شَكَّ ان التَوراةَ التي بأَيدي اليَهودِ فِيها أَشْياءُ تَدُلُّ على جَهْلِ قائِلِها وعلى أَنَّهُ ضالٌّ في نَفْسِهِ وهْوَ مَعَ ذَلِكَ سَبَبُ ضَلالِ غَيْرِه. وذَلِكَ مِثْلُ وَصْفِ اللهِ تعالى بأَنَّهُ نَدِمَ وَأَنَّهُ استَراحَ من تَعَبِهِ وأَنَّه خاطَبَ مُوسى[1] وَجْهًا لِوَجْهٍ[2] كما يَتَكَلَّمُ الرَجُلُ مع صاحِبِهِ إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَأَنْقُلُ بَعْضَهُ في هَذِهِ الحاشِيَةِ فَأَقُول:

ب – إن النَدامةَ لا تَصِحُّ إلَّا على من لا يَعْلَمُ عَواقِبَ أَفْعالِهِ حتى إذا آلَ بَعْضُ أَفْعالِهِ إلى عاقِبَةٍ وَخِيمَةٍ لَمْ تَخْطُرْ ببالِهِ قَبْلَ وُقوعِها وَاقَعَتْهُ النَدامَةُ على ما فَعَل. ولمَّا كانَ اللهُ عالِمًا بِجَميعِ الكائِناتِ قَبْلَ وُقوعِها تَقَدَّسَ عن النَدامَةِ وتَعالى عن تَطَرُّقِها إِلَيْه.

ج – وفي التَوْراةِ أَحْكامٌ جائِرَةٌ مِثْلُ قَولِها عن اللهِ تَعالى: إِنَّني آخُذُ الأَبْناءَ بِذُنوبِ آبائِهِم إلى ثلاثَةِ أَحْقابٍ وأَرْبَعَة. وقد جاءَ فيها عَنْ شَخْصٍ اسْمُهُ زِمْري أَنَّهُ أَخْطَأَ[3] في البَرِّيَّةِ بامْرَأَةٍ فَأَهْلَكَ اللهُ من بَني إسرائيلَ في يَوْمٍ واحِدٍ مَبْلَغَ أَرْبَعَةٍ وعِشْرينَ أَلْفَ نَفَر. وهَذا جَوْرٌ ظاهِرٌ إذْ عَدالَةُ اللهِ

١) لموسى.
٢) لوجهًا.
٣) أخطى.

تعالى لا تَقْتَضي هَلاكَ هَذا الخَلْقِ بِذَنْبِ شَخْصٍ واحِدٍ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ بهِ ولا وَافَقوهُ على ذَنْبِهِ.

د – وفي التَوراةِ اختِلافاتٌ كَثيرَةٌ لا يُتَوَهَّمُ وُقوعُ مِثْلِها في كَلامِ اللهِ ولا كَلامِ نَبِيٍّ مُرْسَل. فإنَّ في السِفْرِ الأَوَّلِ منها: وفَرَّقَ[1] اللهُ بَيْنَ النُّورِ والظُّلْمَةِ ودعا[2] اللهُ النُورَ نَهارًا ودَعا الظُلْمَةَ لَيلاً. وفي هذا السِفْرِ أَيْضًا ما يُخالِفُ هَذا الكَلامَ وَهْوَ القَوْلُ عن الشَمْسِ والقَمَرِ: ولْيَفْرِزا بَيْنَ النَهارِ وبَيْنَ اللَيْل. وفيه عَنْهُما أيضًا: ولِيُمَيِّزا بَيْنَ الضَوْءِ والظُلْمَة. وكانَ قد سَبَقَ القَوْلُ بأنَّ اللهَ فَرَقَ[3] بَيْنَ النُورِ والظُلْمَة. وَفيه أَنَّ اللهَ تعالى قالَ لآدمَ: إِنَّكَ يَوْمَ تأْكُلُ منها مَوْتًا تَموتُ، وفيهِ ما يُخالِفُ ذَلِكَ وهو عَن حَوّاءَ، فَأَكَلَتْ وأَعْطَتْ بَعْلَها فَأَكَلَ مَعَها فانْفَتَحَتْ أَبْصارُهُما وعَلِما أَنَّهُما عُرْيانانِ[4]. ومَعْلُومٌ أن آدمَ ما مَاتَ يَوْمَئِذٍ لكِنَّهُ ازْدادَ فِيهِ انْفِتاحُ البَصَر.

هـ – وفيه أَنَّ اللهَ تعالى قالَ لِنوحٍ: وأُوثِقُكَ مِيثاقي فادْخُلِ الفُلْكَ أَنْتَ وَزَوْجَتُكَ وبَنوكَ ونساءُ بَنِيكَ[5] مَعَكَ ومن كلِّ شيءٍ حَيٍّ من ذي اللَحْمِ أَدْخِلْ مَعَكَ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ في الفُلْكِ لِيَعيشوا ذَكَرًا وأُنثى. وفيه ما يُخالِفُ هذا وَهْوَ القَوْلُ لِنوحٍ أَيضًا: واحْمِلْ مَعَكَ مِنْ كُلِّ الدوابِّ الحَلالِ سَبْعَةً

١) أفرق.
٢) دعى.
٣) أفرق.
٤) عراة.
٥) بنوك.

سَبْعَةً ذكورًا وإناثًا[١]. والرَشيدُ يَعْلَمُ أَنَّ السَبْعَةَ غَيْرُ الاثْنَيْنِ والاثْنَيْنِ غَيْرُ السَبْعَةِ وأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ غَيْرٌ والدَّوابُّ الحَلالُ غَيْر. فإنْ كانَ نُوحٌ عَليهِ السَلامُ يَعْمَلُ بِأَحَدِ القَوْلَيْنِ يَلْزَمُهُ مُخالَفَةُ الآخَرِ ولا سَبيلَ لَه إلى الجَمْعِ بَيْنَهُمَا لأَنَّ الجَمْعَ بَيْنَهُمَا مُسْتَحِيلٌ. وَأَيْضًا فإنَّ التَوراةَ ما جاءَ فِيها تَحريمُ حَيَوانٍ على نُوحٍ وقَوْمِهِ أَصْلاً، فكَيْفَ قِيلَ هَهُنا: واحْمِلْ مَعَكَ مِنْ كُلِّ الدوابِّ الحَلالِ سَبْعَةً سَبْعَةً ذكورًا وإناثًا[٢]؛ وهل يُحمَلُ ذلك إلّا على سَهْوِ عَزرا[٣] ومَيْلِهِ مع عادَتِهِ التي اكْتَسَبَها من شَرِيعَةِ اليَهود.

وِفيهِ: وَدَخَلَ مَعَ نُوحٍ الفُلْكَ اثنانِ اثْنانِ[٤] من كُلِّ ذي لَحْمٍ فيهِ رُوحُ الحَياة: والذي أُدْخِلَ ذكورٌ وإناثٌ[٥] من كُلِّ ذي لَحْمٍ كما أَمَرَهُ اللهُ؛ وأَغْلَقَ عَليهم بابَ الفُلْكِ فكانَ الطُوفان. ولا شَكَّ أَنَّ شَهادَةَ التَوراةِ هَهُنا لِنُوحٍ بأَنَّهُ فَعَلَ كما أَمَرَهُ اللهُ مَرْدُودَةٌ بالأَمْرِ الآخَرِ القائِلِ: سَبْعَةٌ سَبْعَةٌ.

و – وفيه: فَنَزَلَ اللهُ لِيَنْظُرَ القَرْيَةَ والبُرْجَ وفيهِ ما يُخالِفُ ذَلِكَ حَيْثُ حُكِيَ عن الله: هَلُمُّوا بنا نَنْزِلْ ونُقَسِّمْ هُناكَ أَلْسِنَتَهُم. وفيه حِكايَةٌ عن إبراهيمَ عَلَيهِ السَلامُ: فَناداهُ مَلاكُ اللهِ مِنَ السَماءِ وقالَ: إبراهيمُ إبراهيمُ، فقَال: هاءنذا، فَقَالَ: لا تَبْسُطْ يَدَكَ على الغُلامِ ولا تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا فَمِنَ الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ تُحِبُّني ولم تَبْخَلْ بابْنِكَ وَوَحِيدِكَ عَليّ. فكَيْفَ يَصْدُقُ

١ و٢) ذكور وإناث.

٣) أعزرا.

٤) اثنين اثنين.

٥) ذكورًا وإناثًا.

القَوْلُ بِأَنَّ اللهَ ما كانَ يَعْلَمُ قَبْلَ الآنَ بِأَنَّ إبْراهيمَ يُحِبُّهُ حتى عَلِمَ ذَلِكَ في الآن. وكَيْفَ يَصْدُقُ أَنَّ اسْحٰقَ وَحيدُ إبراهيمَ مع وُجودِ إسماعيل[١]. نَعَمْ لَو قِيلَ وَحيدُ سَارَةَ[٢] لكانَ صَادِقًا.

ز – وفي السِفْرِ الثاني: فَقَالَ الرَّبُّ لموسى: أْؤْمُرْ[٣] هٰرونَ حتى يَأْخُذَ العَصا[٤] وارْفَعْ يَدَكَ على ماءِ المِصرِيّينَ وعلى أَنهارِهِمْ وعلى غُدْرانِهِمْ وعلى جَميعِ مِياهِهِمْ وعلى دَواليبِ مِياهِهِمْ فَتَتَحَوَّلَ دَمًا فيَصيرَ الدَمُ في جَميعِ أَرْضِ مِصْرَ وفي الخَشَبِ والحِجارَةِ. وفيهِ ما يُخالِفُ ذَلِكَ وهو قَوْلُهُ: فَرَفَعَ هٰرونُ العَصا التي في يَدِهِ فَضَرَبَ بها ماءَ النَهْرِ تُجاهَ فِرْعَوْنَ وأمامَ عَبيدِهِ. فَتَحَوَّلَ جَميعُ ماءِ النَهْرِ فصارَ دَمًا وماتَتِ السَمَكُ التي في النَهْرِ، فَنَتَنَ ماءُ النَهْرِ فَلَمْ يَقْدِرْ أَهْلُ مِصْرَ على شُرْبِ الماءِ من النَهْرِ فصارَ الدَمُ في جَميعِ أَرْضِ مِصْرَ. فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ سَحَرَةُ مِصْرَ بِسِحْرِهِم.

ح – وأَنْتَ أَيُّها الرَشيدُ تَعْلَمُ أَنَّ في هَذينِ الكلامَيْنِ اختِلافاتٍ كَثيرةً. فإنَّ قَوْلَهُ في الكلامِ الأَوَّلِ: ارْفَعْ يَدَكَ، يُخالِفُ قَوْلَهُ في الكَلامِ الثاني: فَرَفَعَ هٰرونُ العَصا. وَقَوْلُهُ بصَيْرورَةِ الدَمِ في الخَشَبِ والحِجارَةِ مُمْتَنِعٌ لأَنَّ سِياقَ الكَلامِ يَدُلُّ على أَنَّ الماءَتَحَوَّلَ دَمًا لا غَيْر. وَقَوْلُهُ فَنَتَنَ ماءُ النَهْرِ مَرْدُودٌ بِقَوْلِهِ: انْقَلَبَ دَمًا. وقَوْلُهُ: فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ السَحَرَةُ[٥] بِسِحْرِهِمْ

١) اسمعيل.

٢) سارا.

٣) أمر.

٤) العصاة.

٥) السحرا.

يُناقِضُ قَوْلَهُ السابقَ بأنَّ المياهَ بأَسْرِها تَحوَّلَتْ دمًا لأَنَّ فِعْلَ السَحَرَةِ مَشْروطٌ بوجودِ شيءٍ من الماءِ حتَّى يُخَيِّلَ[1] للناسِ أنَّه قد تَحوَّلَ دمًا. وحَيْثُ لا ماءَ فَفي أيِّ شَيءٍ ظَهَرَ سِحْرُهُم. وأَيْضًا قَوْلُه: فَفَعَلَ مِثْلَ ذلِكَ سَحَرَةُ مِصْرَ بسِحْرِهِمْ يَدُلُّ على مُساواتِهِمْ لِمُوسى في المُعْجِزِ، حاشاهُ عن ذلك. وَقولُ التَوْراةِ: فَنَتَنَ ماءُ النهرِ، مَرْدودٌ بِقَولِها بِتَحوُّلِها دَمًا؛ ومن أَيْنَ كان في النَهْرِ ماءٌ حتَّى يَنْتَنَ ماء.

ط – وَفيهِ: وَأْكُلوا سَبْعَةَ أيّامٍ فَطيرًا، ومِنَ اليَوْمِ الأَوَّلِ فَأَفْنُوا الخَميرَ مِن بُيوتِكُمْ من أَجْلِ أَنَّهُ مَن يَأْكُلْ مِنْكُمْ خَميرًا تَبيدُ تِلْكَ النَفْسُ من إِسْرائيل. ثم كَرَّرَ هَذِهِ الوَصِيَّةَ فَقالَ: كُلوا فَطيرًا في الشَهْرِ من أَرْبَعَةَ عَشَرَ حتى واحِدٍ وعِشْرينَ إذا أَمْسَيْتُم، سَبْعَةَ أَيّامٍ لا يُوجَدُ خَميرٌ في بُيوتِكُمْ من أَجْلِ أَنَّهُ مَنْ يَأْكُلِ الخَميرَ تَهلِكُ تِلْكَ النَفْسُ من جَماعَةِ بني إسرائيل. ثم جاءَ فيه بَعْدَ ذَلِكَ: فَحَمَلَ الشَعْبُ عَجينَهُمْ وَلَمْ يَخْتَمِرْ. ثم جاءَ بَعْدَ قَليلٍ: وخَبَزوا العَجينَ الذي خَرَجُوا بِهِ من مِصْرَ رَغيفَ فَطيرٍ لم يَختَمِرْ لأَنَّ أَهْلَ مِصْرَ أَخْرَجُوهُمْ ولم يَقْدِرُوا أنْ يُخَمِّروا[2]. وَمَعْلومٌ أَنَّ القَوْلَ قد تَقَدَّمَ بإِخْلاءِ البُيوتِ مِنَ الخَميرِ، وكَلامُهُ هَهُنا يَدُلُّ على وُجودِ الخَميرِ في العَجينِ، غَيْرَ أَنَّهُ ما صارَ في الزَمانِ فُسْحَةٌ إلى حينِ الاخْتِمارِ، وهَذِهِ[3] اخْتِلافاتٌ لا يَخْفى فُحْشُها على لَبيب.

ي – ثم جاءَ بَعْدَ ذَلِكَ: ودَخَلَ بَنو إِسْرائيلَ في جَوْفِ البَحْرِ في اليَبَسِ

١) يخيلون.
٢) يخمرون.
٣) وهذا.

وَكانَ الماءُ مِثْلَ الجَبَلَيْنِ عَنْ يَمينِهِمْ وعَن شِمالِهِمْ. ثمَّ جاءَ بَعْدَه: وبَنو إسرائيلَ ساروا في البَحْرِ كأَنَّهُم في اليَبَس، وكان الماءُ مِثْلَ الحائِطِ عن يَمينِهِمْ وعن شِمالِهِم. ولا شَكَّ أَنَّ قَوْلَ التوراةِ: «مثلَ الجَبَلَيْن» يُخالِفُ قَوْلَها «مِثْلَ الحائِط».

ك – ثم جاءَ فِيهِ: وجاءَ يَثْرونُ حَمُو مُوسى بامْرَأَةِ مُوسى وابْنَيْهِ إلى البَرِّيَّةِ التي كانَ حَلَّ فيها، إلى جَبَلِ الله. وقِيلَ لموسى أَن هُوَذا يَثْرونُ قد جاءَ وامْرَأَتُكَ وابْناكَ[1] مَعَه، فَخَرَجَ موسى يَتَلَقَّى يَثْرونَ وسَجَدَ لَهُ وَقَبَّلَهُ. وَكانَ قَدْ جاءَ في أَوائِلِ هَذا السِفْرِ ما هَذِهِ حِكايَتُه: وقالَ اللهُ لموسى امْضِ راجعًا إِلَى مِصْرَ لِأَنَّ الرِجالَ الذينَ كانوا يَطْلُبون نَفْسَكَ قَدْ هَلَكُوا بِأَجْمَعِهِم. فَمَضَى موسى بامْرَأَتِهِ وابْنَيْهِ وَحَمَلَهُمْ حَمُوهُ راجعًا إلى مِصْرَ وَبِيَدِهِ عَصا[2] الله. ولا رَيْبَ أَنَّ هَذا يَقْتَضي أَنْ يَكونَ موسى قد اسْتَصْحَبَ امرأَتَهُ وَوَلَدَيْهِ لمَّا خَرَجَ مِن مِصْر، فكَيْفَ جاءَ بِهِم يَثْرونُ إليه ومِنْ أَيْنَ جاءَ بِهِم؟

ل – ثم جاءَ في أَثْناءِ السُنَنِ التي بَعْدَ العَشْرِ[3] الكَلِماتِ في سُنَّةِ العبيدِ ما حِكايَتُهُ: فَلْيَثْقُبْ سَيِّدُهُ أُذُنَهُ بالمِثْقَبِ ولْيَكُنْ لَهُ عَبْدًا يَعْمَلُ إلى الدَهْر. ومَعْلُومٌ أَنَّ العَبْدَ وسَيِّدَه يَموتانِ عمَّا قليلٍ فكَيْفَ يَعْمَلُ إلى الدهْرِ وعِنْدَ مَنْ ذا يَعْمَل؟

١) وابنيك.
٢) عصاة.
٣) العشرة.

م – وجاءَ أيضًا: وإنْ خدَعَ رَجُلٌ امرأةً عَذْراء[1] لَمْ تُملكْ فاضّجع[2] معَها فَلْيأْخُذْها امرأةً. وكانَ قد سَلَفَ القَوْلُ في أثْناءِ الكَلِمَةِ السادِسَةِ: لا تَزْنِ. وَسَوْفَ يأْتي، في ما بَعْدَ هذا الكَلامِ، الحُكْمُ بِقَتْلِ الذي يَزْني. وهَذا اخْتِلافٌ وَنَسْخٌ معًا.

ن – ثم جاءَ: ورأى الشعْبُ أنَّ موسى قَدْ تَأخَّرَ أنْ يَهْبِطَ من الجَبَلِ، فاجْتَمعَ الشعْبُ إلى هرونَ وقالوا له: قُمْ فاصْنَعْ لَنا آلِهَةً يَذْهَبُونَ أمامَنا من أجْلِ أنَّ هَذا موسى الذي أخْرَجَنا من مِصْر، لا نَدْري ما كانَ مِنْه. فَقالَ لَهُمْ هرونُ: انْزِعوا الأقْرِطَةَ التي في آذانِ نِسائِكُمْ وبَنيكُمْ وبَناتِكُمْ فأتوني بها. فَنَزَعَ الشعْبُ الأقْرِطَةَ التي في آذانِ نِسائِهِمْ فأتَوا بها إلى هرونَ فأخَذَها مِنْهُم فَصَيَّرَها لهم في النارِ وَجَعَلَ لَهُمْ عِجلاً سَبيكًا فقالوا: هذا إلٰهُكَ يا إسْرائيلُ، الذي أخْرَجَكَ مِنْ أرْضِ مِصْر. ثم جاءَ بَعْدَ هذا عن هرون: فَقُلْتُ لَهُمْ مَنْ كانَ لَهُ حَلْيٌ فَلْيَأْتِ بِهِ، فَأتَوا به فَألْقَيْتُهُ في النارِ فكانَ هَذا العِجْلُ. وهذا الكَلامُ فيهِ خَبْطٌ واخْتِلافٌ ظاهِرٌ لأن في هذا الفَصْلِ الأوَّلِ قِيلَ إنَّ هرونَ قالَ: انْزِعُوا الأقْرِطَةَ الذَهَبَ التي في آذانِ نِسائِكُمْ وبَنيكُمْ وبَناتِكُمْ. وفي الثاني قِيلَ: فَقُلْتُ لَهُمْ من كانَ لَهُ حَلْيٌ فَلْيَأْتِ به وهذا غيرُ القولِ الأوَّل. وأيضًا في الأوَّلِ قِيلَ: وَجَعَلَ لَهُم – أيْ هرونُ – عِجلاً سَبيكًا. وفي الثاني قِيلَ: فكانَ هَذا العِجْل. ثم كَيْفَ اجْتَمَعَ الشعْبُ إلى هرونَ وَكَيْفَ تَهيَّأَ له سَماعُ كَلامِهِ كُلِّهِ مع أنَّهُ قَدْ قِيلَ في التَوراةِ إنَّهُ يُنيفُ على سِتّمائَةِ ألْف. وكَيْفَ صارَ عِنْدَهُمْ ما شاهَدُوهُ من الآياتِ نَسْيًا مَنْسِيًّا ولم يَكُنْ فيهم من العُقَلاءِ ولا

---

١) عذرى.

٢) انضجع.

عُشْرُ عُشْرِهِم؟ ثم كَيْفَ ساغَ في عَقْلِ هرونَ طَلَبُ الحَلْيِ مِنْهُمْ من غَيْرِ أنْ يَعْذِلَهُمْ على قَوْلِهِم ويُذَكِّرَهُمْ بِأنَّ الإلٰهَ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ مَصْنوعًا؟

س – ثمَّ جاءَ أيْضًا: وَكَلَّمَ اللهُ موسى مقابَلَةً وَجْهًا لِوَجْهٍ، كَما يَتَكَلَّمُ الرَجُلُ مَعَ صاحِبِهِ. ثُمَّ جاءَ ما يُخالِفُ ذَلِكَ وَهْوَ قَوْلُهُ تعالى: فأتَرَحَّمُ على مَنْ أتَرَحَّمُ وأتَحَنَّنُ على مَنْ أتَحَنَّنُ وأُري وَجْهي لِمَنْ أُريهِ وَأمَّا أنْتَ فَلَنْ تَسْتَطيعَ أن تَرى وَجْهي مِنْ أجْلِ أنَّهُ لا يَرى وَجْهي بَشَرٌ فَيَحْيَا.

ع – ثُمَّ جاءَ: وَكانَتْ إذا ارْتَفَعَتِ الغَمامَةُ من أعْلى القُبَّةِ يَرْتَحِلُ بَنو إسْرائيلَ بِكُلِّ مُرْتَحَلِهِمْ، وإذا لَمْ تَرْتَفِعِ الغَمامَةُ لَمْ يَرْتَحِلُوا. وجاءَ في السِفْرِ الرابِعِ ما يُخالِفُ هذا، وَهْوَ قَوْلُهُ: بِكَلِمَةِ فَمِ اللهِ تَعالى يَرْتَحِلُونَ وَبِكَلِمَةِ فَمِ اللهِ يَحِلُّونَ.

ف – ثُمَّ جاءَ فِيهِ: فكانَ عَدَدُ كُلِّ بَني إسْرائيلَ لِبَيْتِ أبيهِمْ مِنْ ابنِ عِشْرينَ سَنَةً وما فَوْقَ ذَلِكَ، كُلِّ رَجُلٍ حامِلِ سِلاحٍ سِتَّمائَةِ ألْفٍ وثَلاثَةِ آلافٍ وَخَمْسَ مائةٍ وَخَمْسينَ رَجُلاً. وبَنو لاوِيَ لِسِبْطِ آبائِهِم لَمْ يُعَدُّوا. وَهَذا يُناقِضُ قَوْلَهُ حَيْثُ قالَ: كُلُّ بَني إسْرائيلَ. ثُمَّ جاءَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ: وَكَلَّمَ اللهُ موسى وَقالَ لَهُ لا تَعُدَّ سِبْطَ لاوي. وهَذا الكلامُ فيهِ نَظَرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ أحَدُهُما أنَّ العَدَدَ قَدْ كانَ وَمَضى، والآخَرُ أنَّ سِبْطَ لاوِيَ ما دَخَلَ في العَدَدِ على ما قِيلَ هُناكَ.

ص – ثُمَّ جاءَ فِيهِ عَقيبَ الفَراغِ مِنْ ذِكْرِ المَواريثِ: وَكَلَّمَ اللهُ موسى وقالَ لَهُ: اصْعَدْ هذا الجبَلَ وَهْوَ جَبَلُ العِبْرانِيِّينَ ثُمَّ انْظُرْ إلى أرْضِ كَنْعانَ التي وَهَبْتُ لِبَني إسْرائيلَ فَأبْصِرْها ثُمَّ الحَقْ بِأصْحابِكَ كَما لَحِقَ هرونُ أخوكَ. ثمَّ إنَّ موسى تَمَّمَ هَذا السِفْرَ والسِفْرَ الخامِسَ وَلَمْ يَمُتْ. ثُمَّ جاءَتْ

قِصَّةُ مَوْتِ موسى في أَواخِرِ التَوْراةِ بِخِلافِ هذا.

ق – ثم إِنَّه قَدْ جاءَ في فَرِيضَةِ السَبْتِ من التَلَوُّنِ في الكَلامِ ما تَحارُ مِن اخْتِلافاتِهِ العُقولُ. فَإِنَّهُ جاءَ في السِفْرِ الثاني: سِتَّةَ أَيَّامٍ اعْمَلْ عَمَلَكَ كُلَّهُ واليَوْمَ السابِعَ اسْبُتْ لِرَبِّكَ ولا تَعْمَلْ فيهِ أَدْنى عَمَلٍ أَنْتَ وابْنُكَ وبِنْتُكَ وعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ ودابَّتُكَ وساكِنُكَ الذي في قَرْيَتِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ في سِتَّةِ أَيَّامٍ خَلَقَ اللهُ السَماءَ والأَرْضَ والبُحورَ وما فِيهِمْ واسْتَراحَ في اليَوْمِ السابِعِ، من أَجْلِ ذَلِكَ بارَكَ اللهُ اليَوْمَ السابِعَ وَطَهَّرَهُ. ثمَّ جاءَ فِيهِ أَيْضًا بَعْدَ ذَلِكَ: سِتَّةَ أَيَّامٍ اعْمَلْ عَمَلَكَ وفي اليَوْمِ السابِعِ اسْتَرِحْ لِكَيْ يَسْتَرِيحَ ثَوْرُكَ وحِمارُكَ وتَسْتَرِيحَ أَمَتُكَ وساكِنُ قَرْيَتِكَ. ثمَّ جاءَ فيهِ أَيْضًا: احْفَظُوا السَبْتَ إِنَّهُ طُهْرٌ لَكُمْ، ومَنْ حَلَّهُ[1] فَلْيُقْتَلْ قَتْلاً ومَنْ يَعْمَلْ فيه[1] عَمَلاً فَلْتَهْلِكْ تِلْكَ النَفْسُ من شَعْبِها. اعْمَلُوا سِتَّةَ أَيَّامٍ فأَمَّا اليَوْمُ السابِعُ فَإِنَّ السَبْتَ راحَةٌ طُهْرٌ للهِ ومن يَعْمَلْ يَوْمَ السَبْتِ فَلْيُقْتَلْ قَتْلاً. فَلْيَحْفَظْ بَنو إِسْرائيلَ السَبْتَ للهِ لِيُعْطوا لخُلوفِهِمْ بِميثاقٍ إلى الدهرِ[2] من أَجْلِ أَنَّهُ في سِتَّةِ أَيَّامٍ خَلَقَ اللهُ السَماءَ والأَرْضَ والبُحورَ وما فِيهِمْ وفي اليَوْمِ السابِعِ سَكَنَ واسْتَراح.

ر – ثُمَّ جاءَ أَيْضًا فيهِ: سِتَّةَ أَيَّامٍ اعْمَلْ عَمَلَكَ وفي اليَوْمِ السابِعِ اسْتَرِحْ في المَزْرَعِ وفي الحِصاد. ثم جاءَ فِيهِ أَيْضًا: فَجَمَعَ موسى جَماعَةَ بَني إِسْرائيلَ وقال لَهُمْ كُلَّ هذا الكَلامِ الذي أَوْصاهُ اللهُ تعالى أن تَعْمَلَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ عَمَلَكَ واليَوْمُ السابِعُ يَكُونُ طُهْرَ السَبْتِ راحةً طَاهِرَةً لله، وَكُلُّ مَنْ يَعْمَلُ فيه عَمَلاً يُقْتَل، ولا تَقْبِسوا نارًا في مَساكِنِكُمْ في يَوْمِ

١) حلها... ومن يعمل فيها.

٢) عبارة غامضة يقابلها في النص الرسمي: فليحافظ بنو اسرائيل على السبت مواظبين.

السَبْت. ثم جاءَ في السِفْرِ الثالِث: سِتَّةَ أَيَّامٍ اعْمَلِ العَمَلَ واليَوْمُ[1] السابعُ السَبْتُ راحَةٌ يَكونُ طُهْرًا للهِ في كُلِّ مَسْكَنِكُم. ثمَّ جاءَ في السِفْرِ الخامِس: احْفَظْ يَوْمَ السَبْتِ وَقَدِّسْهُ كما أَمَرَ اللهُ رَبُّكَ؛ سِتَّةَ أَيَّامٍ اعْمَلْ عَمَلَكَ كُلَّهُ واليَوْمُ السابِعُ السَبْتُ للهِ إِلَهِكَ لا تَعْمَلْ فيه أَدنى عَمَلٍ أَنْتَ وابْنُكَ وبِنْتُكَ وعَبْدُكَ وأَمَتُكَ وثَوْرُكَ وحِمارُكَ ودوابُّكَ كُلُّها وكُلُّ مَنْ يَسْكُنُ في مَساكِنِكَ.

ش – فَهَذِهِ سَبْعُ عِباراتٍ في فَرِيضَةٍ واحِدَةٍ وما مِنْ عِبارَةٍ مِنها إِلَّا وَهِيَ مُخالِفَةٌ للسِتِّ[2] الباقِيَة. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ في التَوْراةِ من الاخْتِلافِ غَيْرُ هذا لَكانَ فِيهِ كِفايَةٌ، كَيْفَ وفِيها ما يَطولُ الكَلامُ فيهِ إلى حَدِّ الإِسْهاب. والعَجَبُ العَجِيبُ أَنَّهُ جاءَ في السِفْرِ الرابِعِ ما حِكايَتُهُ: وإِذْ كانَ بَنو إِسْرائيلَ في البَرِّيَّةِ وَجَدوا رَجُلاً يَوْمَ السَبْتِ يَلْتَقِطُ حَطَبًا فجاؤوا بهِ إلى موسى وَهرونَ وجَماعَةِ بَني إِسْرائيلَ فَحَبَسُوهُ من أَجْلِ أَنَّهُم لَمْ يَكُنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ ما يَفْعَلُونَ[3] بِهِ، فَقالَ اللهُ لموسى: قَتْلاً فاقْتُلوهُ وَلْتَرْجُمْهُ الجَماعَةُ كُلُّها خارِجًا عن المَحَلَّةِ. فَأَخْرَجُوهُ وَرَجَمُوهُ بالحِجارَةِ كمَا أَمَرَ اللهُ موسى.

ت – هذا كَلامُ التَوْراةِ وفيهِ أَنْظارٌ أُريدُ أَنْ أُنَبِّهَ على بَعْضِها فَأَقول: أَمَّا قَوْلُها فَحَبَسُوهُ من أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ ما يَفْعَلُونَ بِهِ فَهُوَ مَرْدودٌ بِمَا سَلَفَ في السِفْرِ الثاني من الحُكْمِ بِقَتْلِ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً في يَوْمِ السَبْت: أَمَّا في العِبارَةِ الثالِثَةِ من السَبْعِ العِباراتِ التي نَقَلْناها فَمَرَّتَيْنِ وأَمَّا في العِبارَةِ

١) ويوم.

٢) للستة.

٣) يفعلوا.

الخامسةِ فمرَّةً واحدةً. فإذَنْ كيفَ قيلَ بَعْدَ ذَلِكَ في السِفْرِ الرابعِ : فحَبَسُوهُ مِنْ أجْلِ أنَّهُمْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمْ ما يَفْعَلُونَ بِهِ. أليسَ أنَّهُ قَدْ مضى الحُكْمُ بِقَتْلِ مَنْ يَحُلُّ السَبْتَ في ثَلاثَةِ[1] مَواضِعَ من السِفْرِ الثاني.

ث – فهذا الذي نَقَلْناهُ وَأمْثالُهُ يَدُلُّ على صِدْقِ قَوْلِ المُعْتَرِضِ أنَّ التَوْراةَ كِتابُ عَزْرا وَلَيْسَتْ كِتابَ اللهِ. وإنَّما نَقَلْتُ مِنها هَذا القَدَرَ نِيابَةً عَنِ المُعْتَرِضِ لِيَتَنَبَّهَ القارئُ على مَيْلِ المُصَنِّفِ مَعَ الهَوى مِنْ حَيْثُ إنَّهُ تَغافَلَ عَنْ هَذِهِ الاخْتِلافاتِ التي في التَوْراةِ، وقالَ في أثْناءِ كَلامِهِ على مِلَّةِ النَصارى ما حِكايَتُهُ : «وفي أناجِيلِهِمْ اخْتِلافاتٌ كَثيرَةٌ وَقَدْ تَعَسَّفَ عُلماؤُهُمْ في التَوفيقِ بَيْنَها».

خ – هذا كَلامُهُ هُناك. وَلَوْ أنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ لَكانَتْ الاخْتِلافاتُ التي في التَوْراةِ قَدْ أشْغَلَتْهُ عَنْ مُلاحَظَةِ اخْتِلافاتِ الأَناجيلِ. وما مَثَلُهُ في ذَلِكَ إلّا مَثَلُ أعْمى يَعيبُ أعْوَرَ أوْ زَمِنٍ يَعيبُ أعْرَجَ. ثُمَّ قائِلُ النَصارى لَهُ أنْ يَقولَ : لَيْسَ العَجَبُ في اخْتِلافاتٍ وَقَعَتْ في كَلامِ أرْبَعَةِ نَفَرٍ هُمْ مِنْ أتْباعِ إمامِ النَصارى، بل إنما العَجَبُ العَجيبُ في اخْتِلافاتٍ وَقَعَتْ في كِتابِ إمامِ اليَهودِ نَفْسِهِ، مَعَ تَفَرُّدِهِ بالكَلامِ فِيهِ على ما يَزْعُمُ[2] اليَهودُ بِأسْرِهِمْ.

وَيُؤَكِّدُ هَذا أنَّ الدَوْلَةَ إذا انْقَرَضَتْ، انْطَمَسَتْ حَقائِقُ أخْبارِها واندَرَسَتْ آثارُها بِسَبَبِ تَتابُعِ الغاراتِ والمُصافّاتِ وأخرابِ البِلاد. وهَذِهِ الأُمَّةُ قَدِ اسْتَولى عَلَيها الكلدانيُّون البابليُّون والفُرْسُ واليونانُ

١) ثلث.
٢) يزعمون.

والنَصارى والإسْلام. وما مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ إلّا مَنْ قَصَدَهُمْ أشَدَّ القَصْد. وأشَدُّ على اليهودِ مِن جَميعِ هَذِهِ المَمالِكِ ما نالَهُم من مُلوكِهِم العُصاة، فإنَّهُمْ عَبَدُوا الأَصْنامَ وابْتَنَوْا لَها البِيَعَ العَظيمَةَ والهياكِل. وَعَكَفَ على عِبادَتِها المُلوكُ ومُعْظَمُ بَني إسْرائيل. وتَرَكُوا أحْكامَ التَوْراةِ وَشَرْعَها مُدَدًا طويلَةً وأعْصارًا مُتَّصِلَةً. فإذا كانَ هَذا تَواتُرَ الآفاتِ على شَرْعِهِمْ مِنْ قِبَلِ مُلوكِهِم، ومِنْهُمْ أنْفُسِهِم، فما ظَنُّكَ بالآفاتِ المُتَفَنِّنَةِ التي تَواتَرَتْ عَلَيْهِم من اسْتيلاءِ الأُمَمِ فيما بَعْد. وعِنْدَهُمْ، في أخْبارِ بَعْضِ مُلوكِهِم، أنَّهُ أُحْضِرَ إليه سِفْرٌ بالتَوْراةِ قَدْ وُجِدَ في البَيْتِ المُقَدَّس، فقَرَأَ فيهِ وأمَرَ بِعَمَلِ الفِسْح. وفي أخْبارِ عَزْرا أنَّهُ، لمَّا قَرَأَ التَوْراةَ بِمَحْضَرِ الجَماعَةِ وَوَجَدوا فِيها عَمَلَ الظِلالِ في العيدِ المُخْتَصِّ بِهِ وتَحْريمَ التَزَوُّجِ بِنِساءِ عَمّونَ ومُوابَ، عَمِلُوا حِينَئِذٍ الظِلالَ وطَلَّقُوا النِساءَ مِنْ بَني عَمُّونَ ومُوابَ. وَهَذا دَليلٌ على أنَّ التَوْراةَ قَدْ كانَتْ تَلِفَتْ مِنْهُم.

وجوابُهُ

أنْ يُقالَ : أما قَوْلُهُمْ لَمْ يَكُنْ حِفْظُ التوراةِ فَرْضًا ولا سُنَّةً فالتَوْراةُ التي بأيْدِيهِم الآنَ تَنْطِقُ بِخِلافِهِ، وكَذَلِكَ كُتُبُ فِقْهِهِمْ.

فإنْ قالوا إنَّ هَذِهِ التَوْراةَ لَيْسَتْ هيَ التَوْراةَ الحَقيقِيَّةَ بَلْ قَدْ حُرِّفَتْ وَبُدِّلَتْ، كانوا قَدْ بَيَّنوا أنَّها مُبَدَّلَةٌ بأنَّها مُبَدَّلَة، وَهُوَ لَغْوٌ ودَعْوى مِنْ غَيْرِ حُجَّة.

حاشية ١٨ أقَلُّ ما لَهُمْ مِنَ الحُجَجِ ما نَقَلْناهُ في الحاشِيَةِ السابِقَةِ على هَذِهِ نِيابَةً عَنْهُم لا شَهادَةً على النصارى بِذَلِكَ، لأنَّ النَصارى لا يَعْتَقِدُونَ تَحريفَ التَوْراةِ بلْ إنَّما يَعْتَقِدُونَ نَسْخَها.

وَبتَقْدِيرِ أَنْ لا يَكونَ حِفْظُها فَرْضًا ولا سُنَّةً ، فلا يَقْدَحُ ذَلِكَ في تَواتُرِها لأَنَّها كِتابٌ عَظيمٌ عِنْدَهُمْ وعَنْهُ يَأْخُذُونَ شَرْعَهُم ، فَدواعِيهِمْ تَقْتَضِي حِفْظَهُ وضَبْطَهُ والتَناقُلَ بِهِ ، لا سِيَّمَا وَهُمْ يَتَبارَكُونَ بِقِراءَتِهِ وَيَتَعَبَّدُونَ بِتَعْظِيمِهِ.

وَنَحْنُ فَنَجِدُ الكُتُبَ التي يُصَنِّفُها بَعْضُ الناس ، إذا كانَتْ مِمَّا يَحْسُنُ الظَنُّ بها وتَكثُرُ الفائِدَةُ مِنْها ، تُنْقَلُ نَقْلاً مُتواتِرًا إلى مِئِين مِنَ السِنينَ. فَمَا ظَنُّكَ بِكِتابٍ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ كَلامُ الله.

حاشية ١٩ هذا الاعْتِقادُ الفاسِدُ هو مِنْ أَكْبَرِ الدَلائِلِ على إفْلاسِ مُعْتَقِدِيهِ مِنَ العَقْلِ والفَطانَةِ ، وعلى أَنَّ العاقِلَ لا يَنْبَغي لَهُ أَنْ يُصَدِّقَهُمْ في كُلِّ شَيءٍ يقولون ؛ وَكَيْفَ يَكونُ كَلامَ اللهِ ما هَذا حِكايَةُ بَعْضِهِ : فَقالَتْ رَاحيلُ لِلِيئا : هَبي لي مِنْها أَيْ مِنْ ثَمَرَةِ اليَبْروحِ ، ويَبيتَ يَعقوبُ عِنْدَكِ اللَيلَةَ بِيَبْروحِ ابْنِكِ. فلمَّا جاءَ يَعْقوبُ عِنْدَ المَساءِ مِنْ مَزْرَعَتِهِ خَرَجَتْ ليئا فَتَقَدَّمَتْهُ فَقالَتْ له : إليَّ ادْخُلْ فإني قَدِ اسْتَأْجَرْتُكَ بِيَبْروحِ ابني ، فباتَ عِنْدَها حِينَئِذٍ لَيْلَتَهُ تِلْكَ وانْضَجَعَ مَعَها فَسَمِعَ اللهُ مِنها فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لِيَعْقوبَ ابْنًا خامِسًا.

وَلَقَدْ ضَبَطَتِ اليَهودُ التَوْراةَ ، بَلْ وَغَيْرَها مِنْ كُتُبِ أَنْبِيائِهِم ، ضَبْطًا لم نَجِدْهُ لِغَيْرِهِمْ في كِتابٍ مِنَ الكُتُبِ. فَعَدُّوا آياتِهِ وكَلِماتِهِ وحُروفَه ، وَكُلَّ حَرْفٍ مِنْ حُروفِ اللُغَةِ فِيهِ. وكَذا فَعَلُوا في كُلِّ سِفْرٍ مِنْهُ وفي كُلِّ جُزءٍ من ذَلِكَ السِفْرِ ، وحَتَّى كُلُّ كَلِمَةٍ أو كَثيرٌ مِنَ الكَلِماتِ بَيَّنُوا هَلْ جاءَ مِثْلُها أَمْ لا ، وإنْ كانَ قَدْ جاءَ بَيَّنُوا عَدَدَ ما جاءَ وفي أيِّ مَوْضِعٍ وهَلْ هُوَ في وَسْطِ الآيَةِ أَمْ في أَوَّلِها أو في آخرِها ، وغَيْرَ ذَلِكَ من

الضَوابِطِ التي يَقَعُ التَعَجُّبُ مِنها. وقَدْ أُفْرِدَ كُتُبٌ في ذَلِكَ مَعْروفَةٌ عِنْدَهُمْ ورُبَّمَا كَتَبوا بَعْضَ ذَلِكَ على حَواشي مَصاحِفِهِمْ وَذَلِكَ مَشْهُورٌ فيمَا بَيْنَهُم.

حاشية ٢٠ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ جَميعُ ما ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ هَهُنا أَوْ بَعْضُهُ هُوَ مِنِ اخْتِراعاتِ المُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَماءِ اليَهودِ فَلا يَجوزُ تَصْدِيقُهُمْ لا سِيَّمَا وَقَدْ عَلِمْتَ الذي اسْتَشْهَدْنا بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُتَّابِهِمْ في السَّالِف.

وَلَهُمْ في كِتابَةِ التَوراةِ وغَيْرِها أُمورٌ تَعَبُّدِيَّةٌ لا يَعْتَقِلونَ فائِدَتَها يَنْقلونَها خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ ويُوجِبونَها تَعَبُّدًا إلَّا فِيمَا يُكْتَبُ مِنَ المَصاحِفِ لِتَعْليمِ الصِغارِ أو مَنْ يَجْري مَجْراهُمْ ، فَإِنَّهُم لا يَلْتَزِمُونَ بِجَميعِ تِلْكَ الأُمورِ التَعَبُّدِيَّةِ فيها كما يَلْتَزِمُونَهُ في سِفْرِ التَوراةِ الذي يُقْرَأُ فيهِ على وَجْهِ التَعَبُّدِ في مواطِنِ الصَلواتِ وغَيْرِها.

ثُمَّ إنَّ اليهودَ عِدَّةُ فِرَقٍ يُخالِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا في الفُروعِ وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُم اخْتِلافٌ في نَفْسِ التَوْراةِ وَكُتُبِ نُبوّاتِهِمْ ، وإنِ اخْتَلَفوا في تَأْويلِ مواضِعَ مِنها ، لا في أَلفاظِها وتَرتيبِها.

وذَلِكَ كُلُّهُ مِمّا يُزيلُ تَوَهُّمَ تَبْديلِها وتَحْريفِها.

فَإِنْ قِيلَ: التَوراةُ التي عِنْدَ النَصارى مُخالِفَةٌ لَها ، والتي عِنْدَ السامِرَةِ مُخالِفَةٌ لِلنُسْخَتَيْنِ ، وَهَذا يُشَيِّدُ دَعْوَى مَنِ ادَّعى التَبْديلَ والتَحْريفَ ، قُلْنا : النَصارى لَيْسَتِ التَوراةُ عِنْدَهُمْ بِلُغَةِ تَنْزِيلِها التي هِيَ العِبْرانِيَّةُ بل نَقَلوها إلى السُرْيانِيَّةِ وصارَتْ عِنْدَهُمْ على نُسْخَتَيْنِ ؛ الواحِدَةُ مِنْهُا مِثْلُ التي عِنْدَ اليَهودِ إلَّا أَلفاظًا اخْتُلِفَ في تَفْسيرِها ، فَنَقَلَها النَاقِلُ إلى اللُغَةِ الأُخْرى بِحَسَبِ رَأْيِهِ في مَعْناها ؛ والنُسْخَةُ الأُخْرى يُسَمُّونَها تَوراةَ السَبْعينَ تُخالِفُ في أَلْفاظٍ قَلائِلَ يَخْتَلِفُ بها التَأريخُ

المَأْخُوذُ مِنَ الأَعْمَارِ التي في أوائِلِ التَوْراةِ وما لا يتفاوَتُ بهِ المَعْنى تَفاوُتًا يُعْتَدُّ بهِ. وما ذاك إلّا أنَّ النَصارى لا يَتَعَبَّدُونَ بِقِراءَةِ التَوْراةِ وغَيْرِها مِنْ كُتُبِ النُبُوّاتِ على حَدِّ تَعَبُّدِ اليَهودِ بها، ولا على ما يُقارِبُه، فَلِهذا وَقَعَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ إهْمَالٌ في النَسْخِ أوْ في النَقْلِ إلى غَيْرِ لُغَةِ التَنْزيلِ، كَمَا يَقَعُ في كَثيرٍ مِنَ الكُتُبِ المُصَنَّفَةِ، بِسَبَبِ إهْمَالِ النُسّاخِ للمُقابَلَةِ، أو لِغَيْرِ ذَلِكَ.

والنُسْخَةُ التي عِنْدَ السامِرَةِ فَكَذَلِكَ أَيضًا، وتُخالِفُ النُسْخَتَيْنِ بِشيءٍ يَسيرٍ لأَنَّهُمْ في الأَصْلِ ما كانوا يَتَعَبَّدُونَ بها، ثُمَّ بَعْدَ نَقْلِهِمْ لها مِنْ غَيْرِ ضَبْطٍ وتَحْريرٍ رَأوا التَعَبُّدَ بِها وَهْيَ على تِلْكَ الحالَةِ فاسْتَمَرَّتْ عِنْدَهُم كَذَلِكَ.

حاشية ٢١ لَو صَحَّ ما نَقَلَهُ المُصَنِّفَ هَهُنا لَكانَ مِنْ بَعْدِ أَنْ رَأَوا التَعَبُّدَ بها والدُخولَ تَحْتَ أَحْكامِها طَوْعًا لا كُرْهًا قَدِ اعْتَمَدوا عَلى النُسْخَةِ التي بِأَيْدي اليَهودِ والمَنْقولَةِ مِنها نُسْخَتُهُمْ وَأَزالوا هَذا الاخْتِلافَ مِن البَيْن. والوَاقِعُ بِخلافِ ذَلِكَ. والظاهِرُ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ نُسْخَتَهُمْ هي أَصَحُّ مِنَ التي بِأَيْدِي اليَهودِ لَمَا كانُوا قَدْ تَعَبَّدُوا لَها إلَّا بَعْدَ التَصْحيحِ البالِغِ ولَيْسَ فَلَيْسَ.

والنُسَخُ الثَلاثُ بالتوراةِ لَيْسَ فيها مِنَ الأَلْفاظِ المُتَخالِفَةِ المَعْنى ما يُعْتَدُّ بِهِ وَهْوَ أَقَلُّ مِنَ الاخْتِلافِ الذي يُوجَدُ في القِراءَاتِ السَبْعِ للقُرْآنِ وقِراءَةِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وَغَيْرِهِمَا بِكَثير.

ومَعْ هذا ففِرَقُ اليهودِ لَمْ يَتَخالفوا في لَفْظَةٍ واحِدَةٍ منها ولا في كُتُبِ النُبُواتِ التي بِأَيْدِيهم

حاشية ٢٢ يَلْزَمُ على ذَلِكَ فسادُ قَوْلِ المُصَنِّفِ الذي اعْتَرَفَ فيهِ بالاخْتِلافِ بَيْنَ نُسْخَتَيِ السامِرَةِ واليَهودِ، أَوْ أَنْ يَكونَ[1] السامِرَةُ غَيْرَ يَهودٍ. وكَيْفَ يَكونُ ذَلِكَ والمُصَنِّفُ قَدِ اعْتَرَفَ بأَنَّ السامِرَةَ تَتَعَبَّدُ بالتَوْراةِ، وكُلٌّ مَنْ يَتَعَبَّدُ بالتَوراةِ لا بُدَّ وأن يَكونَ يَهودِيًّا بلا شَكّ. فإذَنْ كَلامُ المُصَنِّفِ فيه نَقْدٌ من وُجوهٍ كَثيرَة.

وما فِيها من مُعْجِزاتِ مُوسى عم ومن أَلْفاظِ التَشْريعِ، فَلا اخْتِلافَ فيهِ بَيْنَ الأُمَمِ الثلاثِ، أَعْني اليَهودَ والسامِرَةَ والنَصارى.

واتِّفاقُ اليَهودِ في البلادِ المُخْتَلِفَةِ على قَصْدِ تَغييرِها ظاهِرُ الامْتِناعِ عِنْدَ كُلِّ ذي لُبّ. ولو جازَ ذَلِكَ، لما وافَقَهُم الأُمَمُ غَيْرُهُمْ عَلَيهِ كالرومِ والإفْرَنْجَةِ[2] والنَبَطِ والأَرْمَنِ واليُونانِ والقُبْطِ والهِنْدِ والحَبَشَةِ والعَرَبِ والنُوبَةِ والدَيْلَمِ والسَدِيرِ والخَزَرِ والصَقالِبَةِ والصِينِ والسُودُسِ الذين تَنَصَّرُوا، لا سِيَّمَا وكُلٌّ وَاحِدَةٍ من أُمَّتَيِ اليَهودِ والنَصارى تَفْتَرِقُ إلى مذاهِبَ مُخْتَلِفَةٍ ومُتعادِيَة.

فَإِنْ قالوا: تَبَدَّلَتْ قَبْلَ ظُهورِ دينِ النَصْرانِيَّةِ وَقَبْلَ انْتِشارِها هذا الانْتِشار، قِيلَ: لَوْكانَ كَذا لكانَ السَيِّدُ المَسيحُ والسَّليحونَ قَدْ أَخْبَروا بِذَلِكَ وَنَهَوا عَن قِراءَتِها والاعْتِدادِ بها والاسْتِشْهادِ بمَا فِيها وبمَا في كُتُبِ الأَنْبياءِ غَيْرِها. ومَعْلُومٌ من حالِهِمْ أَنَّ الأَمْرَ على خِلافِ ذَلِك.

ثُمَّ إن النُبُوَّةَ صَحِبَتْ أَهْلَ البَيْتِ الثاني مُدَّةَ أَرْبَعينَ عامًا وكانَتْ هَذِهِ التَوراةُ بَيْنَهُم إلى أَن جاءَ السَّيِّدُ المَسيحُ عِيسى بنُ مَرْيَمَ زِيادَةً على

١) يكونوا.
٢) فرنجة.

ثَلثمائَةِ سَنَة. وكانَتِ اليَهودُ في طولِ هَذِهِ المُدَّةِ أَيْضًا أُمَمًا كثيرةً وفِرَقًا مُتَعَدِّدَة.

وعَزْرا الذي يَنْسُبونَ إليهِ تَجديدَ التَّوْراةِ بَعْدَ ذَهابِها كما زَعَمُوا هُوَ مِنَ المَشْهورينَ بالتَعْظِيمِ وكَثْرَةِ الخَيْرِ والدينِ وَهْوَ الذي يُسَمِّيهِ المُسْلِمُونَ بعُزَيْرٍ ويَدَّعُونَ هُم وبَعْضُ اليَهودِ نُبُوَّتَهُ. ومَنْ يُخالِفْ في نُبُوَّتِهِ فلا يُخالِفُ في عِظَمِ شأْنِهِ في الدينِ والخَيْرِ فلا يُتَصَوَّرُ في حَقِّهِ أن يَستَحِلَّ تَحْريفَ كِتابِ اللهِ وتَبْديلَه.

حاشية ٢٣ الذي ادَّعى المُعْتَرِضُ هو تَجْديدُ التوراةِ بَعْدَ ذَهابِها لا تَحريفُها وتَبْديلُها حالَ وجُودِها كما هُوَ مَدْلُولُ كَلامِ المُصَنِّفِ. أَمَّا خَيْرِيَّةُ عَزْرا ودِيانَتُهُ فَلَوْ سَلَّمَها المُعْتَرِضُ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً عَلَيْهِ بَلْ حُجَّةً له، لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَقول: إنَّ دِيانَةَ عَزْرا وَخَيْرِيَّتَهُ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ البَواعِثِ على تَلْفيقِ كِتابٍ يَنوبُ عن الكِتابِ الذي ذَهَبَ، إشْفاقًا عَلى المِلَّةِ لِئَلَّا تَضْطَرِبَ أُمُورُهُمْ وَتَفْسُدَ مَصالِحُهُم وَتَميلَ قُلُوبُهُم إلى مُتابَعَةِ بَعْضِ الأُمَمِ. وفي هذِهِ الأُمورِ مِنَ المَحْذورِ أَضْعافُ ما في تَلْفيقِ كِتابٍ تَنْضَبِطُ فيهِ أُمُورُهُمْ إلى أَنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسولاً يُجَدِّدُ لهم شَريعَةً تُغْنيهِمْ عن هذا الكِتابِ المُلَفَّقِ.

وما ذَكَروهُ من كَوْنِ مُلوكِ اليَهودِ عَبَدوا الأوثانَ وابْتَنَوا لها البِيَعَ فَذلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنهُمْ عَنْ كُفْرٍ باللهِ تع ولا بِالتَوْراةِ ولا بِمُوسى عم وإِنَّما كانَ ذَلِكَ، على ما قِيلَ، بِسَبَبِ تَطَلُّبِهِمْ لِمنافِعِها العاجِلَةِ مِنْ طَريقِ الخَواصِّ التي يَدَّعيها أَرْبابُ الرَّصْدِ والطِلَسْماتِ. وَكانوا مَعَ ذَلِكَ يُحافِظُونَ على وَظائِفِ الدينِ وأَرْكانِهِ. وَقَدْ كانَ فُضَلاءُ المُلوكِ مِنْهُمْ يَهْدِمونَ تِلْكَ البِيَعَ كَيلا يُعَظَّمَ غَيْرُ البَيْتِ الذي اختارَه الله.

حاشية ٢٤ أ – قَوْلُ المُصَنِّفِ: فَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُم عَنْ كُفْرٍ باللهِ تعالى، هُوَ تَحكُّمٌ

ودَعوَى مِنْ غَيْرِ دَليلٍ، وتَعَصُّبٌ لِهؤلاءِ المُلوكِ الوَثَنِيِّينَ، وتَغافُلٌ عَنْ قَوْلِ التَوْراةِ القائِلَةِ عَنِ اللهِ تَعالى: إني أَنا إلهُكَ الرَّبُّ الذي رَفَعْتُكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ من التَعَبُّدِ، فَلا يَكُنْ لَكَ إِلَهٌ[١] آخَرُ غَيْري ولا تَصْنَعْ لَكَ أَدنى صَنَمٍ ولا أَدْنى شَبَهٍ لا في السَماءِ فَوْقَكَ ولا في الأَرْضِ أَسْفَلَ مِنْكَ أو في الماءِ أَسْفَلَ مِنَ الأَرْضِ، ولا تَسْجُدْ لَهُنَّ ولا تَعْبُدْ لَهُنَّ مِن أَجْلِ أَنّي أَنا اللهُ رَبُّكَ إِلَهٌ غَيور.

ب – هذا كَلامُ التَوراةِ. فلو كانَ المُصَنِّفُ يَقْصُدُ الحَقَّ لما كانَ أَقامَ عُذْرَ مَنْ خالَفَ هذا الكَلامَ من المُلوكِ المَذكُورين، ولا كانَ شَهِدَ لَهُمْ بِأَنَّهُم كانوا يُحافِظُونَ على الدِّينِ. لَكِنَّهُ لِشِدَّةِ مَيْلِهِ مع الهَوى وكَثْرَةِ مَحَبَّتِهِ لأَهْلِ الباطِلِ تَلَطَّفَ لَهم في تَمهيدِ العُذْرِ الذي هُوَ أَقْبَحُ مِنَ الذَنْبِ. فَبِئْسَ القَوْمُ وبِئْسَ من يَعْذُرُهُمْ على ما فَعَلُوهُ لأَنَّهُم ما فَعَلُوهُ إِلَّا عَنْ كُفْرٍ باللهِ تَعالى.

ج – ومِصداقُ ذَلِكَ قَوْلُ أَشْعيا النَبِيِّ القائِلِ: وبَنو إِسْرائيلَ الذينَ اخْتاروا الأَصْنامَ عَلَيَّ وعَمِلُوا الخُبْثَ بَيْنَ يَدَيَّ، أُعَجِّلُ خِزْيَهُمْ وأُكافِئُ الشَّعْبَ الرديءَ بسوءِ عَمَلِهِ الفاحِشِ. ويُؤَيِّدُ ذَلِكَ قِصَّةُ آحابَ، فإِنَّ إِلِيَّا النَبِيَّ لو لَمْ يَتَيَقَّنْ كُفْرَ آحابَ لما كانَ قَدْ سَأَلَ اللهَ في حَبْسِ المَطَرِ طولَ تِلْكَ المُدَّةِ. وأَمَّا قَوْلُ المُصَنِّفِ: وإِنَّما كانَ ذَلِكَ على ما قِيلَ بِسَبَبِ تَطَلُّبِهِمْ لِمَنافِعِها العاجِلَةِ فَلَيْسَ بِصَحيحٍ، لأَنَّ المَنافِعَ العاجِلَةَ تَحْصُلُ لِمَنْ أَطاعَ اللهَ مِنْ دونِ ارْتِكابِ هذا المَحْذورِ، على ما هُوَ مَذْكورٌ في التَوْراة. وأَمَّا قَوْلُهُ: كانوا مَعَ ذَلِكَ يُحافِظُونَ على وَظائِفِ الدينِ وَأَرْكانِهِ،

١) إلهًا.

فكَذِبُهُ ظاهِر. نعَمْ يجوز أنَّهُمْ كانوا يتظاهَرونَ بذلِكَ مُداراةً للناسِ وتَسَتُّرًا وتَمْويهًا.

وهانَ عِنْدَ عُصاةِ المُلوكِ ذلِكَ، في ذلِكَ الوَقْتِ، وإنْ كانَ فِعْلُهُ مِنْ أكْبَرِ الكبائِرِ في الدين.

حاشية ٢٥ شَهادَتُهُ ههُنا على المُلوكِ بأنَّهُمْ عُصاةٌ وبأنَّ الذي فعَلوهُ هو مِنْ أكْبَرِ الكَبائِرِ في الدينِ، يُنافي بَسْطَهُ عُذْرَهُمْ وشَهادَتَهُ لَهُمْ بأنَّ ذلِكَ لم يَكُنْ مِنْهُمْ عَنْ كُفْرٍ باللهِ تعالى ولا بالتَّوْراة.

لِكَوْنِ جَميعِ المِلَلِ كانوا يَتَّخِذُونَ الصُّوَرَ ويَدَّعُونَ اتِّصالَ الأمْرِ الإلاهيِّ بها، ويَشْنُعُ[1] الآنَ لارْتِفاعِهِ من أكْثَرِ المِلَلِ في زَمانِنا وبِلادِنا.

حاشية ٢٦ أظُنُّ أنَّ المُصَنِّفَ أرادَ بهذا الكَلامِ تأكيدَ بَسْطِ عُذْرِ المُلوكِ الوَثَنِيِّينَ. والظاهِرُ أنَّ هذا ذَنْبٌ آخَرُ زائِدٌ على الذَّنْبِ الأوَّل. وكَيْفَ يَجوزُ لليَهودِيِّ الاقْتِداءُ بِغَيْرِ اليَهودِ في أمْرٍ يُخالِفُ قَواعِدَ مِلَّتِهِ ويُرَجِّحُ رَأْيَ المِلَلِ عَلَيْها.

وأمّا حَديثُ السِّفْرِ الذي وَجَدُوهُ في البَيْتِ المُقَدَّسِ فأمْرُ المَلِكِ بِعَمَلِ الفِسْحِ فَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ لأنَّهُ لَمْ تَكُنِ التوراةُ مَوْجودَةً حتّى وُجِدَتْ تِلْكَ، ولا أنَّ أحْكامَها نُسِيَتْ.

حاشية ٢٧ إنَّ المُصَنِّفَ قَدْ جَعَلَ الدَّعاوَى المُجَرَّدَةَ والتَحَكُّماتِ البارِدَةَ دأْبَهُ ودَيْدَنَهُ في هذا الكِتابِ بِخِلافِ المَعْهُودِ في مُصَنَّفاتِهِ الحَكيمَةِ لأنَّهُ تابِعٌ فيها نُهاهُ وفي هذا الكِتابِ تابِعَ هَواه، ولِذا ساءَ[2] بِسَبَبِ هذا الكِتابِ مآلُهُ مِن

---

١) وتشنّع.
٢) أساء.

بَعْدَ ما حَسُنَ بِتِلْكَ الكُتُبِ حالُه. ومِنَ الظاهِرِ أنَّ كَلامَه ههُنا غَيْرُ كافٍ في تَسْكيتِ الخَصْمِ، أمّا أوَّلاً فلأنَّهُ دَعْوَى مِنْ غَيْرِ دَليلٍ وأمّا ثانِيًا فلأنَّ تقَدُّمَ المَلِكِ بِعَمَلِ الفِسْحِ فيهِ دَلالَةٌ على عَدَمِ وُجودِ التوراةِ يَوْمَئِذٍ ونِسْيانِ أحْكامِها كُلِّها أوْ بَعْضِها، وإلا فأيُّ فائِدَةٍ كانَتْ في تَقَدُّمِ المَلِكِ بِعَمَلِ الفِسْحِ لَوْ لَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ مَنْسِيًّا؟

وإنَّما قَالُوا إنَّهُمْ وَجَدُوا ذلِكَ السِفْرَ مُدْرَجًا إلى آيةٍ يَتَطَيَّرُ مِنها المَلِكُ وكُلَّما أدْرَجُوهُ إلى غَيرِها وَجَدُوهُ مُدْرَجًا إليها، فَعَلِمُوا أنَّ ذلِكَ آيةٌ وإنذارٌ مِنَ اللهِ تَعالى. هكذا قِيلَ. ولَعَلَّ لِذلِكَ تأويلاً غَيْرَهُ.

وأمَّا الذينَ قرأَ عَزْرا عَلَيْهِمِ التَوْراةَ فتَحَرَّكُوا لِتَطْليقِ نِسائِهِمْ من بَني عَمُّونَ ومُوآبَ وعَمَلِ المَظالِّ في العيدِ الذي يَخُصُّها، فَهُمْ بَعْضُ الأُمَّةِ مِمَّنْ خالَطَ أُمَمًا أُخرى، لا كُلُّ الأُمَّة.

فَقَدْ كانَ في ذلِكَ الزَمانِ أنبياءُ وأولياءُ وعُلَماءُ وخَلْقٌ مِنْ فُضَلاءِ الهارُونيينَ والذينَ هُمْ مِنْ سِبْطِ لِيوي وأهْلِ الكَنيسَةِ العُظْمَى الناقِلينَ للشَريعَةِ والدِّينِ يُرجَعُ إلى أحْكامِهِمْ وفتاوِيهِمْ فِيها.

حاشية ٢٨ إنَّ المُصَنِّفَ قَدِ افْتُتِنَ في هذا الكِتابِ بالدَعاوَى المُجَرَّدَةِ والتَحَكُّماتِ البارِدَةِ إلى حدٍّ صارَتْ لَهُ مَلَكَةً وعادَةً وإلّا فكَيْفَ جَزَمَ بأنَّ الأمْرَ المَذْكورَ مَخْصُوصٌ بِبَعْضِ الأُمَّةِ دونَ الكُلِّ وما الدَليلُ على ذلِكَ؟ وكَيفَ تَهَيَّأَ لِبَعْضِ الأُمَّةِ في زَمانِ الأنْبياءِ والأوْلِياءِ مُخالَطَةُ الأُمَمِ الأُخْرى ولَمْ يَرُدُّوهُم عَنْ ذلِكَ لا بوَعْظٍ وتَنْبيهٍ ولا بِمُعْجِزٍ ولا بانْتِقامٍ بوَجْهٍ من الوُجوه. وكَيْفَ يَسوغُ في العَقْلِ أنَّ الأنْبِياءَ والأوْلِياءَ والعُلَماءَ الذينَ ذَكَرَهُمُ المُصَنِّفُ ما قَرَأُوا التَوْراةَ على هؤُلاءِ الذينَ قَرَأَها عَلَيْهِمْ عَزْرا أوْ

أَنَّهُمْ قَرَأُوها عَلَيْهِمْ فَما تَحَرَّكُوا لِتَطْليقِ نِسائِهِمْ في ذَلِكَ الوَقْتِ؟ إنَّ هذا لا يَتَصَوَّرُهُ عاقِل.

فَهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنَّ هَؤُلاءِ بِأَسْرِهِمْ لَم يكونوا يَعْرِفُونَ التَوراة؟ هذا مِنْ أَبْعَدِ المُسْتَبْعَداتِ في بادىءِ الرأي. وَلَوِ اقْتَصَرَ المُعْتَرِضُ على مُجَرَّدِ عَدَمِ تَسليمِ تَواتُرِ التوراةِ قَبْلَ بِناءِ البَيْتِ الثاني لكانَ أَولى بِهِ.

الاعتِراضُ الثالِث

إنّا نَجِدُ في التوراةِ التي بِأَيْدِيهِمْ مَواضِعَ كَثيرةً تَدُلُّ على التَجسيمِ والتَشْبِيهِ وصِفَةِ اللهِ تع بما يَسْتَحيلُ وَصْفُه بِهِ إلى غَيْرِ ذَلِكَ من الكُفْرِيَّاتِ والأُمورِ التي تَسْتَبْعِدُها العُقولُ بَلْ تَمْنَعُ مِنْ وُقوعِها فَيَمْتَنِعُ أَنْ يكونَ ذَلِكَ مُنَزَّلاً من اللهِ تع. وذَلِكَ مِثْلُ الإخبارِ بِصُعودِ موسى إلى الجَبَلِ مع مَشائِخِ أُمَّتِهِ فَأَبْصَروا اللهَ هُناك، ومِثْلُ أَنَّهُ خَلَقَ آدمَ بِصُورَةِ اللهِ، ومِثْلُ أَنَّ نُوحًا لمَّا خَرَجَ من السفينةِ بَدَأَ بِبِناءِ مَذْبَحٍ للهِ تع وَقَرَّبَ عَلَيْهِ القَرابينَ فاسْتَنْشَقَ اللهُ رائِحَةَ القُتارِ، وأَنَّ اللَّوحَيْنِ مَكْتُوبانِ بِإِصْبَعِ اللهِ، وأَنَّهُمْ يَنْسُبونَ إليه تع النَدَمَ والغَضَبَ والمَحَبَّةَ والتَكَلُّمَ بالصَوْتِ والحَرْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْه.

وَجَوابُهُ

إنَّ النَهْيَ عَنِ التَشْبيهِ والتَمثيلِ مَذْكورٌ في عِدَّةِ مواضِعَ من التوراةِ. وثاني الكَلِماتِ العَشْرِ المَكْتُوبَةِ على اللَّوْحَيْنِ هُوَ النَهْيُ عَنِ اتِّخاذِ إلَهٍ دُونَ اللهِ وعَنِ الإشْراكِ بِهِ وَعَنِ التَمْثيلِ والتَشْبيهِ والتَخْييل.

حاشية ٢٩ إذا كانَ النَهْيُ عَنِ التَشْبيهِ والتَمْثيلِ قَدْ جاءَ في مَوْضِعٍ مِنَ التَوراةِ أَوْ

مَواضِعَ، والتَشْبيهُ والتَمثيلُ قد جاءا[1] في موضِعٍ آخَرَ أو مواضِعَ أُخَرَ، فَقَدْ لَزِمَ مُناقَضَةُ بَعْضِها بَعْضًا. ولا شَكَّ أَنَّ التَناقُضَ لا يَتَطَرَّقُ إلى كَلامِ اللهِ وَلا إلى كَلامِ أَنْبِيائِهِ المُرْسَلين، فَكَيْفَ الأَمْر؟ فإنْ نازَعَني مُنازِعٌ في وُجودِ التَشْبيهِ والتَمثيلِ في التوراةِ أَفْحَمْتُهُ بِقَوْلِها في السِفْرِ الأَوَّلِ مِنها: فَخَلَقَ اللهُ آدَمَ بِصورَتِهِ ومِثالِهِ. وَفيه أَيْضًا: وسَمِعا – يَعْني آدَمَ وحَوّاءَ – صَوْتَ اللهِ يَمْشي في الفِرْدَوْس. وَفيه أَيْضًا: وقالَ اللهُ رَأَيْنا أَنَّ آدَمَ قَدْ صارَ كواحِدٍ مِنّا يَعْلَمُ الخَيْرَ والشَرَّ. وفي التَوراةِ أَيضًا: وكَلَّمَ اللهُ موسى وَجْهًا لِوَجْهٍ.

وأَمّا أَنَّ المَشائِخَ أَبْصَروا اللهَ فَقَدْ قيلَ إنَّه، وإنْ كانَ في اليَقْظَةِ، فَهْوَ على مِثْلِ ما يُرى في المَنامِ، لا بالحِسِّ الظاهِر.

حاشية ٣٠ أ – إنَّ المُصَنِّفَ عِنْدَما تَعْرِضُ له لَفْتَةٌ في هذا الكِتابِ إلى عَقْلِهِ، يُسْنِدُ الكلامَ المُسْتَحيلَ إلى قائِلِهِ، فَيَقولُ: قَدْ قيلَ كَذا وكَذا، كما قالَ في أَثْناءِ اعْتِذارِهِ للمُلوكِ الوَثَنِيِّين، وكما قالَ هَهُنا. ولا شَكَّ أَنَّ كَلامَهُ هَهُنا غَيْرُ كافٍ في دَفْعِ الاعْتِراضِ لِأَنَّ التَوراةَ أَطْلَقَتِ القَوْلَ بِأَنَّ المَشايِخَ أَبْصَروا اللهَ وسَمِعُوا صَوْتَهُ. مَعْ أَنَّهُ قَدْ كانَ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ عِبارَةُ التَوراةِ عِبارَةً لا تَحْتَمِلُ هَذِهِ الشُبْهَةَ ولا يَتَوَجَّهُ الطَعْنُ بِسَبَبِها.

ب – وأَمّا قَوْلُه: فَهْوَ على مِثْلِ ما يُرى في المَنامِ، فَهْوَ مُكابَرَةٌ في البَديهِيّاتِ وجَحْدٌ[2] للحِسِّيّات. وأَمّا قَوْلُهُ: لا بِالحِسِّ الظاهِرِ، فَيُخالِفُ قَوْلَ التَوراةِ القائِلَةِ بِأَنَّ المَشايِخَ سَعَوا وَوَقَفُوا وسَمِعُوا وأَبْصَروا.

والدَلالَةُ القاطِعَةُ على ذَلِكَ أَنَّه، حَيْثُ نَهاهُمُ اللهُ تع في التوراةِ، في

---

١) جا.

٢) جحدا.

موضع آخر عن التشبيه وحذّرهم من اعتقاده، ذكّرهم أنّهم لم يروا في ذلك الموقف شيئًا من الصور.

حاشية ٣١ فما قولك في الذي جاء في موضع آخر من التوراة القائلة: وقال الله لموسى انطلق إلى الشعب فطهّرهم اليوم وغدًا، فليغسلوا[1] ثيابهم وليستعدّوا[2] لليوم الثالث من أجل أنّه إلى اليوم الثالث يهبط الله ليراه الشعب كلّهم على طور سيناء.

وما ذاك إلّا أنّه نفى الرؤية الحقيقيّة بالعين الباصرة.

حاشية ٣٢ لقائل أن يقول: بل وما ذاك إلّا لمناقضة بعض كتابكم بعضًا. وما دليلك على دعواك. وأمّا دليلي على دعواي فهو ما سلف ذكره في الحاشية التي على دعوى من ادّعى أنّ التوراة كتاب عزرا لا كتاب الله.

فتعيّن أن تكون الرؤية المثبتة في هذا الموضع لا من ذلك القبيل. وذاك لأنّ الله تع تلطّف، فوضع نسبة بين الحسّ الباطن والمعنى الغير المتجسّم. فجعل لمن شرّفه من خلقه عينًا باطنة ترى أشياء ويستدلّ بالعقل على معاني تلك الأشياء ولبابها. ومن خلقت له تلك العين هو البصير بالحقيقة. ولعلّ تلك العين هي القوّة المتخيّلة مهما خدمت القوّة العقليّة فترى صورة عظيمة هائلة تدلّ على حقائق لا ريب فيها. وكما تقدر على تحصيل معاني صلاة بمجرّد الفكر دون قراءة، ولا عدّ مائة مثلاً دون نطق، لا سيّما إن أردت أن تؤلّفها مع أعداد مختلفة، فكذلك، لولا الحسّ الذي يضبط النظام العقليّ بمثالات

١) فليغسلون.

٢) وليستعدون.

وحكايات، لكان لا ينضبط. فهكذا يحتمل أن يكون الحال فيما انتظم لموسى ومشايخ بني إسرائيل من عظمة الربّ تع بما رأوه من عظم تلك الصورة المخلوقة لهم وبهائها وبما اقترن برؤيتها من الأمور الهائلة. ونحن فكالعمش الذين لا يحتملون إبصار ذلك النور فنقتدي بالبصراء القادرين على رؤيته. وما جرّب من رؤية الصور، في المنام وفي اليقظة، على غير حقائقها، يسهّل تصوّر ذلك ويزيل الاستبعاد، وإن كانت المناسبة بين الإدراكين بعيدة جدًّا. وكما أنّ الحرف والصوت الدالّ على كلام الله الذي ليس بحرف ولا صوت يسمّى كلام الله أيضًا، فكذلك هذه الصورة التي خلقها الله تع ليراها الأنبياء والأولياء الدالّة على عظمته وجلاله، عزّ وجلّ، قد تسمّى باسم الإله على وجه المجاز. ولا محذور في ذلك، إذا لم يعتقد التجسيم والتشبيه والحلول.

حاشية ٣٣ أ – التوراة قد صرّحت بأنّ القوم رأوا الله، والقوم بأسرهم اعتقدوا [أنّهم] رأوه. وفي طيّ هذا الاعتقاد انطوى التشبيه والتجسيم والجهل المركّب إن ثبت الذي ذكرتموه. وهكذا تسمية المخلوق باسم الخالق والخالق بالمخلوق، مع الغفلة عن كون هذه التسمية مجازيّة أم لا.

ب – وهذه الدعاوى ظاهرة لكلّ سليم الذهن إذا كان من أهل العلم ولاحظها بعين عقله لا بعين هواه[1]. والعجب من المصنّف كيف حكم ههنا بأنّه لا محذور في ذلك. فأيّ محذور أعظم من أن يعتقد القوم في جسم مخلوق قد أبصره كلّهم وسمعوا صوته، أنّه هو الخالق، وما جاءهم

١) هوايه.

في التوراةِ أنَّهُ مَخْلُوقٌ، فَلَزِمَهُم الاعْتِقادُ الفاسِدُ لا مَحالَة واسْتَمَرَّتْ مِلَّةُ اليَهودِ عَلَيهِ مُفْتَخِرَةً بِهِ على غَيْرِها[1] من المِلَلِ إلى يَوْمِنا هذا، ولا تَزالُ كَذَلِكَ ما دامَتْ مَوْجُودَة.

وَقَدْ مَضى تَقْديرُ ذَلِكَ عِنْدَ الكَلامِ في أَسْرارِ مُعْجِزاتِ الأَنْبِياءِ وما يُشاهِدُونَهُ مِنَ الصُوَر.

وبهذا يَنْحَلُّ خَلَقَ اللهُ آدمَ بِصورتِهِ وعلى أنَّ الصُورَةَ قَدْ تُطلَقُ ولا يُرادُ بها الشَكْلُ والتَخْطيطُ ولَعَلَّها لَمْ تُوضَعْ لِذَلِك. وَقَدْ ذَكَروا في رُؤْيَةِ اللهِ وخَلْقِ آدَمَ بِصُورَتِهِ تَأْويلاتٍ أُخْرى لا حاجَةَ إلى ذِكْرِها.

وأَمَّا اسْتِنْشاقُ قُتارِ القَرابِينِ فَهُوَ كِنايَةٌ عن تَقَبُّلِها، كما يُقالُ سَمِعَ اللهُ دُعاءَه بِمَعْنَى تَقَبَّلَه. وإِصْبَعُ اللهِ مُسْتَعارَةٌ لِقُدْرَتِهِ كما تُسْتَعارُ اليَدُ لِذَلِكَ في لُغَتَي العِبْرانِيَّةِ والعَرَبِيَّة. وَيدُلُّ على ذَلِكَ دَلالَةً قَطْعِيَّةً ما جاءَ في التَوْراةِ حِكايَةً عَنِ المِصْرِيِّينَ أَنَّهُمْ لَمَّا ابْتُلُوا بِمَا ابْتُلُوا بِهِ قالوا إِصْبَعُ اللهِ هي.

حاشية ٣٤

أ – إنْ كانَ قَوْلُ المُصَنِّفِ هَهُنا حَقًّا فما الذي دَعا[2] القائِلَ إلى القَوْلِ بِأَنَّ الأَلْواحَ مَكْتُوبَةٌ بِإِصْبَعِ اللهِ. وما الذي مَنَعَهُ عن القَوْلِ بِأَنَّها مَكْتُوبَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ، مَعَ أَنَّ في هذا القَوْلِ فَوائِدَ لَيْسَتْ في القَوْلِ بِأَنَّها مَكْتُوبَةٌ بِإِصْبَعِ اللهِ.

ب – فَمِنْ هَذِهِ الفَوائِدِ نَجاةُ الناسِ من العَقائِدِ الفاسِدَةِ، ومِنها سَدُّ بابِ الاعْتِراضِ عَلى التَوْراةِ، ومِنْها تَرْجيحُ الحَقيقَةِ على المَجازِ، ومِنها صِدْقُ قَوْلِ القائِلِ ظاهِرًا وباطِنًا. وأَمَّا جَعْلُ المُصَنِّفِ كَلامَ أَهْلِ مِصر دَلالَةً

١) غيره.
٢) دعى.

قَطْعِيَّةً، فَهُوَ قَبيحٌ جِدًّا مِنْ مِثْلِهِ، لأَنَّ أَهْلَ مِصْرَ عِنْدَه كَفَرَةٌ ولا يَعْتَمِدُ على كَلامِ الكَفَرَةِ إِلَّا مَنْ كانَ مِن حِزْبِهِم. وهَلْ يَجْعَلُ كَلامَ الكَفَرَةِ حُجَّةً على غَيْرِهِمْ مَنْ لَهُ عَقْلٌ أَوْ دِينٌ؟ كَلاَّ!

ج – وأَقولُ أَيضًا لَوْ كانَ[1] أَهْلُ مِصْرَ يَعْتَقِدونَ ما نَقَلَهُ المُصَنِّفُ عَنْهُمْ لَكانوا قد انْقادُوا لِمُوسى طائِعِينَ في جَمِيعِ أَوامِرِهِ ونواهِيهِ، حتَّى في الخُروجِ مَعَهُ مِنْ مِصر. فإنِ ادَّعى مُدَّعٍ أنَّ أَهْلَ مِصْرَ كانَ فِيهِم مَنْ يُؤْمِنُ[2] باللهِ تَعالى ويُصَدِّقُ نُبُوَّةَ موسى وأَنَّهُمْ هُمُ[3] الذين قالوا: إِصْبَعُ اللهِ هِي، فَجَوابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُا أَنَّهُ لو كانَ ذَلِكَ هَكَذا لكانَتِ التوراةُ قد قالَتْ «بَعْضُ المِصرِيينَ»، لكِنَّها ما قالَتْ كَذَلِكَ. والوَجْهُ الآخَرُ أَنَّهُ لَوْ كانَ ذَلِكَ صَحيحًا لمَا كانَ قَدْ ماتَ أَبْكارُ أَهْلِ مِصْرَ عَن آخِرِهِم، لكِنْ كانَتْ أَبْكارُ هَؤُلاءِ باقِيَةً كَأَبْكارِ بَني إِسْرائيلَ، والواقِعُ بِخِلافِ ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُرادَهُم بِذَلِكَ قُدْرَةُ اللهِ. ومَنْ يَفْعَلُ ما يَفْعَلُهُ النادِمُ مِنَّا يُسمّى نادِمًا بالمجاز. وقد نَطَقَتِ التوراةُ وَكُتُبُ النُبُوَّاتِ بِأَنَّ اللهَ تع لا يَصِحُّ عَلَيْهِ النَدَم.

حاشية ٣٥

إِنَّ هَذا مُكابَرَةٌ بالِغَة. أَلَيْسَ في السِفْرِ الأَوَّلِ مِنَ التَوْراةِ أَنَّ اللهَ نَدِمَ؟ وفي أَسْفارِ المُلوكِ أَنَّ اللهَ قالَ لِشموئيلَ النَبيِّ: إِنِّي أَسِفْتُ على تمليكي لِشاوُولَ؟ وفيهِ أَيضًا: وتأَسَّفَ الرَّبُّ على تَمليكِ شاوُولَ. وأَقولُ أَيضًا: لَوْ

١) كانوا.
٢) يأمن.
٣) هي.

كانتِ التوراةُ قدْ أثْبتَتْ ندَمَ اللهِ تارةً ونفَتْهُ تارةً أُخْرى، لكانتْ قدْ ناقضتْ نفْسَها وصارتْ حجَّةً لمنْ يدَّعي تبْديلَها، لأنَّ التناقُضَ لا يقعُ في كلامِ اللهِ ولا في كلامِ أنْبيائِهِ أجْمعينَ.

فلا بُدَّ مِنْ حمْلِ النَدمِ المَنسوبِ إليهِ على التأْويلِ بمَا قُلْناهُ، وذاكَ أنَّهُ لمّا أهْلكَ اللهُ تع الخلائقَ بالطُوفانِ، أخْبَرَ قبْلَ ذلكَ أنَّهُ يُهْلِكُهُمْ، وعبَّرَ عنْ ذلكَ بأنَّهُ ندِمَ على خلْقِهِمْ، تمْثيلاً بمَنْ يَنْدمُ على شيءٍ فعَلَهُ، يَسْتدْرِكُ ذلكَ بتَرْكِ فِعْلِهِ.

حاشية ٣٦ لَوْ سلَّمْنا ما ذكَرَهُ المُصنِّفُ ههنا على سَبيلِ المُسامحةِ لَه، فلا نُسلِّمُ أنَّ تأْويلَهُ هذا يتمشَّى في ذِكْرِ النَدمِ مَعَ خلْقِ اللهِ لآدمَ، لأنَّهُ أخْبرَ قبْلَ ذلكَ بأنَّهُ سيخْلُقُهُ، ولِمَ لا أبادَهُ كما أبادَ الناسَ في الطُوفانِ، لوْ كانَ تأْويلُ المُصنِّفِ صادقًا؟

ونسْبَةُ الغضَبِ إليهِ لمِثْلِ ذلكَ. فإنَّ الغضْبانَ منْ شأْنِهِ أنْ ينْتقِمَ ممَّنْ غضِبَ علَيْهِ. فلهذا عبَّرَ عنِ انْتقامِهِ، عزَّ وجلَّ، بالغضَبِ. ولأجْلِ أنَّ المُحِبَّ منّا يُكْثِرُ العِنايةَ والشفَقةَ على من يُحِبُّهُ سُمِّيَتْ رَحْمَةُ اللهِ وشِدَّةُ عِنايَتِهِ محَبَّةً، لا لأنَّهُ ينْفعِلُ انْفعالَ الغضْبانِ والمُحِبِّ، تعالى اللهُ عَنْ ذلكَ عُلُوًّا كبيرا.

حاشية ٣٧ إنَّ هذِهِ تحكُّماتٌ باردةٌ واعتِذاراتٌ واهيةٌ ولا تتمشَّى إلّا إذا عُضِدتْ بالتعصُّبِ والمَيْلِ معَ الهوى. لأنَّ الغضَبَ والمحبَّةَ تابعانِ للانْفعالِ، ولِهذا الأمْرِ وُضِعا في اللُّغةِ. وأمّا التعسُّفُ الذي تعسَّفَهُ المُصنِّفُ ههُنا

فلا يُفيدُهُ شيْئًا ولا ينْفعُهُ سائرُ ما يَجْري مَجْرى هذا مِنَ التأْويلاتِ التي ذكَرَها عُلَماءُ اليهودِ في أمْثالِ ذلِكَ، كيْفَ والغرَضُ المقْصودُ من كُتُبِ التنْزيلِ إنَّما هُوَ هِدايةُ الناسِ لا ضَلالُهُمْ. ومَنْ يَعْدِلِ عن الاصطِلاحاتِ اللُغويَّةِ إلى غيْرِها لا يُنْسَبُ إلى توخّي هِدايَةِ السامِعينَ لأنَّهُ قدْ عدَلَ عن لفْظٍ واضِحٍ ينْفعُ إلى لفْظٍ خفيٍّ يُضِرُّ فضْلاً عن أنَّهُ لا ينْفعُ، وذلِكَ أنَّهُ يُرجِّحُ عِنْدهُمُ الباطِلُ على الحقِّ والكذِبُ على الصِدْقِ.

وأمّا كلامُهُ بالصَوْتِ والحرْفِ فقدْ عرفْتَ الحالَ فيهِ. وعلى مِثْلِ هذا هُوَ تأْويلُ كُلِّ ما ورَدَ مِنْ ذلِكَ وما يُناسِبُهُ في كُتُبِ سائِرِ الأنْبياءِ الذينَ على مِلَّةِ موسى وفي كُتُبِ الأحْبارِ والعُلَماءِ. وقدْ صنَّفَ المُتأخِّرونَ من اليهودِ كُتُبًا تُوضِحُ ذلِكَ وأمْثالَهُ إيضاحًا أبْسطَ مِنْ هذا.

الاعتراضُ الرابع

قدْ ورَدَ في التوراةِ الموْجودَةِ الآنَ حِكاياتٌ تسْتبْعِدُها العُقولُ بلْ تمْنعُ مِن وُقوعِها، مِثْلُ قِصَّةِ آدمَ وسَببِ خروجِهِ من الجنَّةِ وقِصَّةِ لُوطٍ ويَهودا؛ وحِكاياتٌ لا فائِدَةَ في ذِكْرِها، مِثْلُ قِصَّةِ تفرُّعِ القَبائِلِ مِن نُوحٍ وأسمائِهِمْ ومَواضِعِهِمْ، وكذلِكَ أولادُ سِعيرَ ووَصْفُ المُلوكِ الذينَ ملَكوا في أدومَ، وعدَدُ المنازِلِ في سُلوكِ بني إسْرائيلَ إلى أرْضِ الشامِ، ونَحْوُ هذِهِ. وورَدَ فِيها أيْضًا تشْريعاتٌ لا يُعْقَلُ لها معْنًى مُفيد، والعقْلُ يأْبى أنْ يصْدُرَ أمْثالُ هذِهِ عَنْ أحْكَمِ الحاكِمينَ، عزَّ سُلطانُه، أو أنْ يُخْبِرَ بها نبيٌّ يُخاطِبُهُ اللهُ شِفاهًا. ويُؤكِّدُ ذلِكَ ما في آخرِها من حِكايَةِ مَوْتِ موسى وكَيْفِيَّةِ دفْنِهِ وكَوْنِ قَبْرِهِ لَمْ يُعْرَفْ. وهْوَ ممّا يَسْتبْعِدُ العَقْلُ أنَّ موسى أخْبَرَ بهِ، وهْوَ حيٌّ، بلِسانِ الماضي بِوَحيٍ إلاهي.

وَجَوابُهُ

إنا لا نُسلِّمُ أنَّ قِصَّةَ آدمَ ولُوطٍ ويَهودا مُمتَنِعَةُ الوُقوعِ عِنْدَ العَقْلِ، لا سِيَّما في ذَلِكَ الزمان. فإنَّ المَشْهوراتِ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الأَزْمِنَةِ. وما يُسْتَبْعَدُ وُقوعُ مِثْلِهِ في زمانٍ، لا يُسْتَبْعَدُ في آخَرَ.

حاشية ٣٨ عَدَمُ التَسليمِ لَوْ تَمشَّى في غَيْرِ قِصَّةِ آدَمَ، فإنَّهُ لا يَتَمَشَّى في قِصَّةِ آدَمَ، وذلِكَ لأنَّ المَشْهوراتِ هِيَ قَضايا يَحْكُمُ العَقْلُ بواسِطَةِ اعْتِرافِ الناسِ بها، وهي مُسْتَفادَةٌ من عاداتٍ أو شَرائِعَ أو آدابٍ. وكُلُّ هَذِهِ لَمْ تُوجَدْ في زَمانِ سُكْنَى[1] آدَمَ الجَنَّةَ، بل ولا بَعْدَ خُروجِهِ مِنها بِزَمان. فإنْ قيلَ إنَّ المُرادَ إنَّما هو المَشْهُوراتُ في زمانِ غَيْرِ آدمَ قُلْنا هَذا أَبْعَدُ عَنِ الصوابِ لأَنَّ الخَبَرَ الصادِقَ يَنْبَغي أَنْ يَنْقُلَ الذي جَرى بِعَيْنِهِ مِنَ الواقِعَةِ في الزَمانِ الذي مَضى، مِنْ غَيْرِ زِيادَةٍ ونُقصانٍ وتَحْريفٍ وتَبْديل.

وما ادُّعي فيهِ مِنَ الحِكاياتِ أَنَّه لا فائِدَةَ في ذِكْرِهِ فَغَيْرُ مُسَلَّمٍ أَنَّهُ عَديمُ الفائِدَةِ في زَمَنِ نُزولِ التَوْراةِ أو قَبْلَهُ وَبَعْدَه.

أَمَّا الأَنْسابُ والقَبائِلُ فَلَعلَّها ذُكِرَتْ لِئَلَّا يُسْتَبْعَدَ أن مِنْ نُوحٍ إلى مُوسى عليهما السَلامُ، مَعَ قِصَرِ المُدَّةِ بَيْنَهُما، تَفَرَّعَ هذا العالَمُ العَظيمُ في المَعْمُورَةِ، ويُتَشَكَّكَ في ذَلِكَ، فَأُزيلَ هذا التَشَكُّكُ بِنِسْبَتِهِمْ كُلِّهِمْ وَتفاريعِهِمْ وذِكْرِ أَسماءِ المَشاهيرِ مِنْهُم وأَعْمارِهِمْ ومَواضِعِ سُكْناهُم.

حاشية ٣٩ جَوابُ المُصَنِّفِ هَهُنا أَبْرَدُ مِنْ حُجَّةٍ نَحْوِيّ. ومِمَّا يَدُلُّ عَلى ضُعْفِهِ بَل

---

١) سكنة.

على فَسادِهِ قَوْلُهُ «فَلَعَلَّها ذُكِرَت لِئَلَّا يُسْتَبْعَدَ...»؛ قُلْنا: هَبْ أَنَّهُ يُسْتَبْعَدُ ذَلِكَ ويُتَشَكَّكُ فِيه، فَأَيُّ مَحْذورٍ دِينيٍّ يَلْزَمُ مِنْه وَأَيُّ مَدْخَلٍ لَه في الشَريعَة.

وأَمَّا وَصْفُ قبائِلِ بني سيعيرَ فَلَعَلَّهُ من أَجْلِ ما أُمِرَ بِهِ من اسْتِئْصالِ نَسْلِ عَماليقَ الذي هو ابنُ أَليفازَ. وكانَ عِيسُو أَخو يَعْقُوبَ قد صاهَرَ أَولادَ سِيعيرَ وَأَوْلَدَ مِنْهُم ومَلَكَ عَلَيْهِم واخْتَلَطَ نَسْلُهُ بِنَسْلِهِم وصارَتْ بِلادُ سيعيرَ كُلُّها، وتِلْكَ القَبائِلُ مَنْسوبَةً للقَبيلِ الغالِبِ الذين هم بَنو عِيسُو وبخاصَّةٍ نَسْلُ عَماليق. فَبَيَّنَ الكِتابُ قَبائِلَهُم لِئَلَّا يُقْتَلَ قَبيلٌ في غِمارِ قَبيلٍ آخَرَ. ولَعَلَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لأَسبابٍ أُخْرى خَفِيَتْ عَنَّا الآن، فَلَوْ عَلِمْناها وعَلِمْنا النوازِلَ التي نَزَلَتْ في تِلْكَ الأَيَّامِ، لَتَبَيَّنَ لنا على التَفصيلِ عِلَّةُ كَثيرٍ مِمَّا ذُكِر. ولا شَكَّ أَن أَفْعالَ أُولائِكَ المُلوكِ المَذْكورينَ وما جَرى لهم قد كانَتْ مَشْهورةً. فَلَعَلَّهُم ذُكِروا للاعْتِبارِ بِهِم.

وأَمَّا ذِكْرُ منازِلِ بَني إِسْرائيلَ إِلى الأَرْضِ التي وُعِدُوا بها، فَلَعَلَّهُ لِتَثْبيتِ المُعْجِزَةِ في إِقامَةِ بني إِسْرائيلَ في البَرِّ أَرْبَعينَ سَنَةً ووُجودِ المَنِّ فيه في كُلِّ يوم.

حاشية ٤٠ الإِقامَةُ في البَرِّ وَكَذا وُجودُ المَنِّ فيهِ قَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ ولا تَعَلُّقَ له بِذِكْرِ المنازِلِ. وَقَوْلُ المُصَنِّفِ «لَعَلَّهُ لِتَثْبيتِ المُعْجِزَةِ» فيهِ إِشْعارٌ بِأَنَّهُ على شَكٍّ مِن كُلِّ كلامٍ تُقْرَنُ مَعَهُ هذهِ اللَفْظَةُ، أَعني لَفْظَةَ «لَعَلَّهُ». وإِنَّما ذَكَرَ هَذِهِ الأَجْوِبَةَ الضَعيفَةَ مَعَ تَنَبُّهِهِ على ضُعْفِها بِلَفْظَةِ «لَعَلَّه» مُتابَعَةً لِرِضا خواطِرِ أَهْلِ مِلَّتِهِ وإِيهامًا لَهُم أَنَّهُ قد أَسْكَتَ الطاعِنَ في دِينِهِم.

وهو بَرٌّ بَعيدٌ جدًّا عن العِمَارَةِ ، لا ماءَ فيهِ ولا زَرْع ، وفيه الحَيَّاتُ والحَشَراتُ المُؤْذِيَة ، ولم يأكُلوا في تِلْكَ المُدَّةِ خُبْزًا . وهَذِهِ مُعْجِزاتٌ بَيِّنَةٌ مَرْئِيَّة .

حاشية ٤١ أ – هَذا مَرْدودٌ بمَا جاءَ في التَوْراةِ حِكايَةً عن يَثْرونَ عِنْدَما جاءَ بأَوْلادِ مُوسى إليه ، وأَشارَ عَلَيهِ بأن يَسْتَنيبَ من الشَعْبِ رِجالاً يَحْكُمُونَ نِيابَةً عَنه ، وتَرفيهًا له . ثم إن يَثْرونَ ارْتَحَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إلى حَيْثُ كان . فلو كانَ البَرُّ بَعيدًا جدًّا لكانَ يَثْرونُ في مَجيئِهِ وذَهابِهِ قد افْتَقَرَ إلى جَماعَةٍ كَثيرَةٍ يَصْحَبُها في هَذِهِ المَسافَةِ البَعيدَةِ كما هُوَ مَعْهُودٌ من المسافِرينَ في الدُروبِ البَعيدَة .

ب – وأَمَّا قَوْلُهُ : وَلَمْ يَأْكُلوا في تِلْكَ المُدَّةِ خُبْزًا ، فهو مَرْدودٌ بقَولِ التَوْراةِ القائِلَةِ إن في أيَّامِ تجديدِ المَذْبَحِ كانَ من جُمْلَةِ ما قَرَّبَهُ عُظَماءُ بَني إسْرائيلَ اثْنا عَشَرَ ثَوْرًا[1] واثْنا عَشَرَ كَبْشًا[2] واثْنا عَشَرَ حَمَلاً حَوْلِيًّا[3] وسَميذُهُنَّ . وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ المِيرَةَ قَدْ كانَتْ تَأتِي إلَيْهِم في الطَريقِ الذي جاءَ فيهِ يَثْرونُ أو في غَيْرِه ، وَإلَّا فَمِنْ أَيْنَ كانَ لَهُمْ في القَفْرِ الثِيرانُ والكِباشُ والحُمْلانُ والسَميذُ ، مع أَنَّ المُصَنِّفَ قد قالَ إنَّهُ بَرٌّ بَعيدٌ جِدًّا لا ماءَ فيهِ ولا زَرْع . وهَلْ لِلْحَيوانِ بَقاءٌ دُونَ الاغْتِذاءِ بالنَبات؟

ج – ويَا لَيتَ شِعْري كَيْفَ تَجاسَرَ المُصَنِّفُ على القَولِ عن قَومٍ لَهُمْ سَميذٌ إنَّهُمْ ما أَكَلوا خُبْزًا مُدَّةَ أَرْبَعين سَنَةً مع أَنَّهُ قد جاءَ في عِدَّةِ مَواضِعَ من التَوْراةِ تَقْريبُ السَميذِ والدَقيقِ المَلْتوثِ بالدُهْنِ في أَثْناءِ القَرابين.

١) ثور.
٢) كبش.
٣) حمل حولية.

د – وأَمَّا قَوْلُهُ فَهَذِهِ مُعْجِزاتٌ بَيِّنَةٌ فَجَوابُهُ أَمَّا أَوَّلاً فَبأَنْ يُقالَ : إنَّ هَذِهِ مَبْنِيَّةٌ على الكَلامِ الذي قد أَظْهَرْنا فَسادَهُ فلا التِفاتَ إليها ، وأَمَّا ثانِيًا فَبأَنْ يُقالَ : بَلْ هِيَ على تَقديرِ تَسْليمِ صِدْقِها عُقوباتٌ دُنْيَوِيَّةٌ ، وَلَمْ يُعاقَبوا بعُشْرِ هَذِهِ العُقُوبَةِ وهُمْ في مِصْرَ تَحْتَ العُبودِيَّةِ ، كَيْفَ لا وَقَدْ انطوى مِنْهُم أُلوفُ أُلوفٍ في البَرِّيَّةِ وقلوبُهُم بنارِ الحَسْرَة[1] على بَصَلِهِ وغَيرِها من النباتِ ، مَشْوِيَّة .

فَلَمَّا عَلِمَ اللهُ تع أَنَّهُ سَيَتَطَرَّقُ لِهَذِهِ المُعْجِزاتِ في المُسْتَقْبَلِ ما يَتَطَرَّقُ للأَخْبار ، ويُظَنُّ أَنَّ إقامَتَهُم كانَتْ في بَرِّيَّةٍ قَريبَةٍ من العُمْرانِ يُمْكِنُ إقامَةُ الإنْسانِ فيها ، كَبراري العَرَبِ والتُرك .

حاشية ٤٢ هَذا الظَنُّ هو يَقينٌ ، والدَليلُ على ذَلِكَ ما سَلَفَ في الحاشِيَةِ السابِقَةِ على هَذِهِ ، فَتَأَمَّلْه .

أو أَنَّه يُمْكِنُ زَرْعُها ، او أَنَّ مِن شَأنِ المَنِّ الذي هو المُعْجِزَةُ العُظْمَى ان يَنْزِلَ فيها دائِمًا ، أو أَنَّ فيها آبارَ ماءٍ ، فَرُفِعَتْ هَذِهِ الأَوْهامُ كُلُّها بذِكْرِ تِلْكَ المَراحِلِ والمَنازِلِ لِيراها الناسُ في الزَمانِ المُسْتَقْبَلِ فَيَعْلَمُوا[2] عَظيمَ المُعْجِزَةِ في مَقامِ تِلْكَ الأُمَّةِ في تِلْكَ المَواضِعِ أَرْبَعينَ سَنَةً .

وَكانَ يُوشَعُ بنُ نُونٍ لِمِثْلِ هَذِهِ العِلَّةِ نَهى عَن بِناءِ يريحا ابدًا لِتَكونَ تِلْكَ المُعْجِزَةُ ثابِتَةً قائِمَةً لِكُلِّ من يَرى ذَلِكَ السُورَ غارِقًا في الأَرْض ، فَيَتَبَيَّنُ لَهُ أَنْ لَيسَ هَذِهِ صُورَةُ بُنْيانٍ يَنْهَدِمُ بمثلِ الغَرَقِ بَلْ بِمُعْجِز.

وذُكِرَتِ المَراحِلُ الغَيْرُ المُنْتَظِمَةِ ، وما وَقَعَ من التَرَدُّدِ في

١) الحصرة.
٢) فعلموا.

بَعْضِها، واخْتِلافُ مُدَدِ الإقامَةِ فيها، حَتَّى كانَتْ في مَرْحَلَةٍ واحِدَةٍ ثَماني عَشْرَةَ سَنَةً وفي أُخْرى يومًا واحِدًا وفي أُخْرى لَيْلَةً واحِدَةً، بِحَسَبِ ارْتِفاعِ عَمُودِ الغَمَامِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِتَأْييدٍ إلاهيٍّ، ولَيْسَ بِضَلالٍ في الطَرِيقِ، كما يَظُنُّه قَوْمٌ من الناسِ اليَوْمِ. وتِلْكَ المَسافَةُ مَعْرُوفَةٌ. وهي مَمْشى أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا.

حاشية ٤٣ لِقائِلٍ أَنْ يَقولَ إِنَّ أَطرافَ هَذِهِ المَسافَةِ كما تَدورُ أو بَعْضَ أَطْرافِها لا تَخْلو مِنْ أَنْ تَكونَ مُتاخِمَةً لِلعِمارَةِ أو غَيْرَ مُتاخِمَة. فإنْ كانَتْ مُتاخِمَةً لِعِمارَةٍ ما من العِمارات، بَطَلَ قَوْلُ المُصَنِّفِ حَيْثُ قالَ: وَهْوَ بَرٌّ بَعيدٌ جدًّا عن العِمارَة، وإنْ لم تَكُنْ مُتاخِمَةً لِلعِمارَةِ بَطَلَ قَوْلُه هَهُنا بأنَّه مَمْشى أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا وَوَجَبَ[1] انْضِيافُ ما يُتاخِمُها من الخرابِ إليها. ومِنْ هذا وأَمْثالِهِ يَظْهَرُ مَيْلُ المُصَنِّفِ مع الهوى وتَلَوُّنُه في الدَعْوى.

فكَيْفَ تَضِلُّ فيها تِلْكَ الأُمَّةُ العَظيمَةُ مُدَّةَ أَرْبَعينَ عامًا.

وما مِن قِصَّةٍ مَذْكورَةٍ في التَوْراةِ إلّا لِفائِدَةٍ ضَرورِيَّةٍ في الشَريعَةِ، إمّا لِتَصْحيحِ رَأْيٍ أو عَمَلٍ من الأَعْمالِ المُهِمَّةِ في انْتِظامِ الاجْتِماعِ أو غَيْرِهِ.

حاشية ٤٤ أ – كلامُهُ هَهُنا مَرْدودٌ بمَا في التَوْراةِ من القِصَصِ الخالِيَةِ عن الفائِدَةِ بالكُلِّيَّةِ فَضْلاً عن أن تَكُونَ ضَرورِيَّةً في الشَريعَة. فمِنها قَوْلُ التَوراةِ: فعاشَ آدَمُ تِسْعَ مائَةٍ وَثَلاثينَ سَنَةً فوُلِدَ له بِصورَتِه ومِثالِهِ وَلَدٌ فَسَمّاهُ شيتًا. ومِنها: وكانَ إِسْحَقُ ابنَ أَرْبَعينَ سَنَةً إذ نكَحَ رِفْقا؛ ومنها: فاقْتَرَبَ يَعْقوبُ من اسحَقَ أَبيهِ فَجَسَّهُ وقالَ: أَمّا الصَوْتُ فَصَوْتُ يَعْقوبَ وأَمّا المَجَسُّ فَمَجَسُّ

١) ووجوب.

عيسو[1]. وهذِهِ القِصَّةُ، مَعَ خُلُوِّها من الفائِدَةِ، يُتَوَهَّمُ مِنها قِلَّةُ مُروءَةِ[2] يَعقوبَ مِن حَيْثُ دَلَّسَ نَفْسَهُ بأَخيهِ رَغْبَةً في أَخْذِ ما لا يَسْتَحِقُّه، ويُتَوَهَّمُ مِنها أيضًا بَلادَةُ ذِهْنِ اسحقَ[3] من حَيْثُ اخْتَفَتْ عليه هَذِهِ القَضِيَّةُ، حاشاهُما عن ذَلِكَ، أَلا تَرى أنَّ التَوْراةَ شَهِدَتْ بِضُعْفِ نَظَرِ إِسحقَ[4] لا بِعَماهُ[5]. سَلَّمْنا أَنَّهُ عَمِيَ بالكُلِّيَّةِ فكَيْفَ غَفَلَ عَنِ الفَرْقِ بَيْنَ وَلَدَيْهِ، وَقَدْ شوهِدَ من الكُمْهِ الغُرَباءِ من يَتَرَدَّدُ في البُلدانِ للاسْتِعْطاءِ، وفي كُلِّ بَلَدٍ يَعْرِفُ مِن أَشْخاصِهِ قَليلاً أَوْ كَثيرًا[6] ويفَرِّقُ بَيْنَهُمْ إذا سَمِعَ لَفْظَ أَحَدِهِمْ أَوْ أَلْفاظَ أَعْدادٍ مِنْهُم.

ب – ومِنْها: وَنَذَرَ يَعْقوبُ نَذْرًا وقالَ: إنْ كانَ اللهُ يَكونُ معي ويَحْفَظُني في هَذِهِ الطَريقِ التي أَنْطَلِقُ فيها، ويُعطيني خُبْزًا[7] آكُلُ وَلِباسًا[8] أَلْبَسُ، وَأَرْجِعُ إلى بَيْتِ أَبي بِسَلامٍ لَيَكُونَنَّ الرَّبُّ لي اللهُ إِلَهًا. وهَذِهِ القَضِيَّةُ يُتَوَهَّمُ مِنها أَشْياءُ، من جُمْلَتِها عِبادَةُ يَعْقوبَ لِغَيْرِ اللهِ حَاشَاه عَن ذَلِك. ومنها: فَعَمِلَ يَعْقوبُ مَعَ خالِهِ سَبْعَ سِنينَ براحيلَ، وَكانَتْ في عَيْنَيْهِ أيامًا يَسيرَةً من أَجْلِ حُبِّهِ لِراحيلِ. وهَذِهِ القِصَّةُ يُتَوَهَّمُ منها شِدَّةُ مَيْلِ يَعْقوبَ

١) عيسوا.
٢) مروت.
٣، ٤) اليسحق.
٥) عمايه.
٦) قليل أو كثير.
٧، ٨) خبز ولباس.

إلى الشَهْوَةِ الحَيَوانِيَّةِ وعِظَمُ مُبالَغَتِهِ في السَعْيِ لِتَحْصيلها؛ حاشاهُ عن ذَلِكَ.

ج – ومنها: وَأَخَذَ – أي يَعْقُوبُ – مِنْ كُلِّ ما كانَ مَعَهُ وقَرَّبَهُ لأخيهِ هَدِيَّةً مائَتَي عَنْزٍ وعِشرينَ تَيْسًا[1] ومائتي نَعْجَةٍ وعِشْرينَ كَبْشًا[2] ولِقاحًا[3] وأَوْلادَهُنَّ ثلاثينَ، وأَرْبَعينَ بَقَرَةً وعَشَرَةً[4] ثيرانٍ وعِشرينَ أَتانَةً وعَشَرَةَ أَحْمِرَةٍ. فإنّا لَوْ سَلَّمْنا على سَبيلِ المُسامَحَةِ، أنَّ في ذِكْرِ عَدَدِ الدوابِّ فائِدَةً، فلا نُسَلِّمُ أنَّ في ذِكْرِ أَصْنافِها فائِدَةً. ولو سَلَّمناهُ فَلا نُسَلِّمُ أنَّ في تَعْيينِ ذُكرانِ الأَصْنافِ وإِناثِها فَائِدَةً. وكَمْ في التَوْراةِ مِثْلُ ذَلِكَ يَعْرِفُهُ مَنْ يَتَصَفَّحُها مُفَتِّشًا.

وأمَّا التَشْريعاتُ الغَيْرُ المَعْقُولَةِ الفائدَة، فلا يَلْزَمُ من كَوْننا لا نَعْقِلُ فائِدَتَها أنْ لا تَكونَ مُفيدَةً في نَفْسِ الأَمْرِ، إذ لا اطِّلاعَ لَنا على حِكَمِ اللهِ الخَفِيَّةِ كُلِّها. وَقَدْ سَبَقَ تَقْريرُ ذَلِكَ. وَمعَ هَذا، فَلا يَبْعُدُ أَنْ يَكونَ أَهْلُ تِلْكَ الأَعْصارِ قَدْ عَلِموا فوائِدَها.

وذَلِكَ لأنَّ هَذِهِ الشَّريعَةَ أَتَتْ ومِلَّةُ الصابِئَةِ[5] هي الظاهِرَةُ حينَئِذٍ. وَمَنْ يَقِفْ على مَذاهِبِ الصابِئَةِ[6] وآرائِهِمْ وأَعْمالِهِمْ وعِباداتِهِمْ، يَتَبَيَّنْ

---

١) تيس.

٢، ٣) كبش ولقاح.

٤) وعشر.

٥) الصابية

٦) الصابة

لَهُ تَعليلُ كَثيرٍ من فَرائِضِ التَوْراةِ الغَيْرِ الظاهِرَةِ الفائِدَة. وتِلْكَ المَذاهِبُ والآراءُ تَعْرِفُها مِنَ الكُتُبِ المُصَنَّفَةِ لَهُم، كما هُوَ مَذْكورٌ في كِتابِ الفِلاحَةِ النَبَطِيَّةِ إخراجِ ابْنِ وَحْشِيَّة، وهو كِتابٌ مَمْلوءٌ من هَذَياناتِ عُبَّادِ الأَصْنامِ وأَعْمالِ الطِّلَّسْماتِ والسِحْرِ والجِنِّ والغيلانِ التي تَأْوي البَراري؛ وكَما في كتاب الإسْطِباخِسِ المَنْحُولِ[1] إلى أَرِسْطو؛ وكَما في كُتُبِ الطِّلَّسْماتِ التي مِنها كِتابُ طِمْطِمٍ وكِتابُ السَرَبِ وكِتابُ دَرَجِ الفَلَكِ والصُوَرِ الطالِعَةِ في دَرَجَةٍ دَرَجَةٍ منه؛ وَفي كِتابٍ يُنْسَبُ إلى أَرِسْطو في الطِّلَّسْماتِ، وكِتابٍ مَنْسوبٍ إلى هِرْمِسَ؛ وكِتابِ إسحاقَ الصَّابىءِ في الاحْتِجاجِ لِمِلَّةِ الصابِئَة[2] وكِتابِهِ الكبيرِ في نَواميسِهِمْ وجُزْئِيَّاتِ دِينِهِمْ وأَعْيادِهِمْ وقَرابِينِهِمْ وصَلَواتِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وما لَمْ يَخْرُجْ إلى اللِّسانِ العَرَبِيِّ مِن كُتُبِهِمْ أَضْعافُ ما أُخْرِجَ مِنْها.

وَقَدْ عَلَّلَ بَعْضُ الفُضَلاءِ والأَكابِرِ أَكْثَرَ تِلْكَ الفَرائِضِ بِما تَنَبَّهَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الكُتُبِ، كما ذُكِرَ جُمْلَةً وتَفْصيلاً، وَهُوَ ذا أَذْكُرُ خُلاصَةَ كَلامِهِ الجُمْلِيِّ دونَ التَفْصيلِيِّ لِفَريضَةٍ فَريضَة. وَهْوَ وإنْ كانَ شَديدَ المُطابَقَةِ والمُناسَبَةِ، لكِنّي لا أَجْزِمُ بِهِ ولا أَقْطَعُ بِأَنَّ هَذِهِ الفَرائِضَ مُعَلَّلَةٌ به، بَلْ جازَ أَنْ يَكونَ للهِ تع فيها من الحِكَمِ ما هو أَعْظَمُ وأَغْمَضُ مِمّا قد ذَكَرَ هذا الفاضِلُ، وَذَلِكَ هُوَ الأَشْبَهُ والأَظْهَر.

قالَ ما مَعْناهُ أَنَّهُ كما تَلَطَّفَ الإلَهُ، جَلَّتْ عَظَمَتُهُ، في خَلْقِ الحَيَوانِ وتَدْريجِ حَرَكاتِ الأَعْضاءِ ومُجاوَرَةِ بَعْضِها لِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ في تَدْريجِ حالاتِ جُمْلَةِ الشَخْصِ، حالةً بَعْدَ حالَة، كَما لَيَّنَ مُقَدَّمَ

---

١) المتحول

٢) الصابة

الدّماغِ وَجعَلَ مُؤخَّرَهُ أصْلَب ، والنخاعَ أَصْلَبَ مِنْه ، وكُلَّما امْتَدَّ صَلُبَ ؛ والعَصَبُ هو آلَةُ الحِسّ والحَرَكَة ، فالعَصَبُ الذي احْتِيجَ إليه في إدراكِ الحَواسِّ فَقَط أَو في حَرَكَةٍ يَسيرَةِ المَؤونَة ، كَحَرَكَةِ الجَفْنِ والخَدِّ ، هُوَ شَيءٌ من الدماغ ، والذي احْتيجَ إِلَيه في تَحْريكِ الأَعْضاء أُخْرِجَ مِنَ النِخاع . ولمَّا لَمْ يَكُنْ في العَصَبَةِ الدماغِيَّةِ ، لِلينِها ، وَلَو النُخاعِيَّةَ ، أَنْ تُحرِّكَ مَفْصِلاً ، تَلَطَّفَ في ذَلِكَ بِأَنْ لُيِفَّتْ مِنْ طَرَفِ العَضَلَةِ وهي قد صَلُبَتْ ، وقد خالَطَها شَظايا مِنَ الرِّباطِ وتَصيرُ وَتَرًا يَتَّصِلُ بالعَظْمِ ويَلْتَزِقُ بالعَظْم ، فَيَقْدِرُ أَنْ يُحرِّكَ العُضْوَ على هذا التَدْريج ؛ فكَمَا تَلطَّفَ في الرضيعِ من الحيوان ، لِكَوْنِه عِنْدَ وِلادَتِهِ في غايَةِ اللِّينِ ، لا يُلائِمُهُ الغِذاءُ اليابِسُ ، فَأَعَدَّ لَهُ الثَدْيَيْنِ لِتَوليدِ اللَّبَنِ لِيَغْتَذِيَ بِغِذاءٍ رَطْبٍ ، قَريبٍ مِن مِزاجِ أَعْضائِهِ ، حتى تَجِفَّ وَتَصْلُبَ أَوَّلاً أَوَّلاً .

فَهكَذا دَبَّرَ ، جلَّ وعَلا ، في إِنْزالِ هَذِهِ الشَريعَةِ المُقَدَّسَةِ ، فإِنَّها أُنْزِلَتْ والسِيرَةُ المَشْهُورَةُ المَأْلُوفَةُ هِيَ تَقْريبُ أَنواعِ الحَيوانِ في هَياكِلِ الصُّوَرِ والسُجودُ لها والتَبْخيرُ بَيْنَ يَدَيْها . فَلَمْ تَقْتَضِ الحِكْمَةُ أَنْ تَشْرَعَ بِرَفْضِ ذَلِكَ أَجْمَعَ وَتَرْكِهِ . وقد لا يُقْبَلُ ذَلِكَ التَشْريعُ لما في طَبيعَةِ الإِنْسانِ مِنَ الأُنْسِ بالمَأْلُوفاتِ والنَفْرَةِ مِمَّا يُخالِفُها ، وكَأَنَّها تَصيرُ كالأَمْرِ الطَبيعيّ للإِنْسان . وَذلِكَ كَما لَوْ جاءَ نَبِيٌّ في هذا الزَمانِ يَدْعونا إلى عِبادَةِ اللهِ وكَلَّفَنا بِتَرْكِ الصَلَواتِ والصِيام وأَنْ لا نَدْعُوَ اللهَ عِنْدَ مُلِمَّةٍ بل نَعْبُدَهُ بالفِكْرَةِ المَحْضَةِ فَقَطْ فَإنّا كُنّا نَسْتَشْنِعُ ذَلِكَ ولا نَتَقَبَّلُهُ . فاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تع وتَلَطُّفُهُ أَنْ أَبْقى تِلْكَ الأَنْواعَ من العِباداتِ وما يَتْبَعُها مِنَ الأَفْعالِ الغَريبَةِ التي يُدَّعَى فيها الخَواصُّ النافِعَة ، كما يَفْعَلُهُ أرْبابُ الطِّلَّسْمات ، ونَقَلَها من كَوْنِها للأَجْسام أَو لِلكواكِبِ أو لِشَيءٍ من الرُوحانِيّاتِ إلى كَوْنِها لاسْمِهِ – عَزَّ وَعَلا –

وَأَمَرَ بِفِعْلِها لَهُ تع . فَأَمَرَ بِبناءِ هَيْكَلٍ لَه ، وأَنْ يَكونَ المَذْبَحُ والقُرْبانُ والبَخُورُ لَه . وَنَهى أَنْ يُفْعَلَ شَيءٌ من هَذِهِ لِغَيْرِهِ . وأَفْرَدَ الأَئِمَّةَ الهارونِيّينَ والذينَ مِن سِبْطِ لَوي لِخِدْمَةِ ذَلِكَ الهَيْكَلِ . وأَفْرَدَ لَهم حُقوقًا تَكْفيهم لاشْتِغالِهِم بالبَيْتِ وقُرْبانِه . فَثَبَتَتِ العَقيدَةُ الحَقَّةُ ، وَهِيَ وُجودُ الإِلَهِ وَوَحْدانِيَّتُه . وَلَمْ تَنْفِرِ الأَنْفُسُ وَلَمْ تَسْتَوْحِشْ بِتَعْطيلِ المَأْلوف . ولمَّا كانَ التَعَبُّدُ بِالقَرابينِ وما يَجْري مَجْراها عَلى جِهَةِ القَصْدِ الثاني ، والدُعاءُ والصَلاةُ ونَحْوُهُما أَقْرَبَ إِلى القَصْدِ الأَوَّلِ وضَرُورِيَّةً في حُصُولِهِ ، جَعَلَ بَيْنَ النَوْعَيْنِ تَفْرِقَةً كَبيرة ، وهي أَنَّهُ لَمْ تُفْرَضِ القَرابينُ ، وإن كانَتْ للهِ تع ، كما كانَتْ أَوَّلاً ، أَعْني أَنها تُقَرَّبُ في كُلِّ مَكانٍ وكُلِّ زَمانٍ ، ولا يُقامُ هَيْكَلُها حَيْثُ اتَّفَقَ ، ولا يُقَرِّبُها مَنِ اتَّفَقَ ، بل جَعَلَ لها هَيْكَلاً واحِدًا وحَرَّمَ التَقْريبَ في غَيْرِه . ولا يَكونُ المُقَرِّبُ إِلّا مِنْ نَسْلِ هارونَ عَم . كُلُّ هَذِهِ لِتَقْليلِ هذا النَوْعِ من العِبادَة . وأَمَّا الصَلاةُ والدُّعاءُ وما أَشْبَهَهُما ، فَفي كُلِّ مَكانٍ وكُلِّ مَنِ اتَّفَقَ .

حاشية ٤٥ لِقائِلٍ أَنْ يَقولَ لِلمُصَنِّفِ لَوْ كانَ باقِيًا أو لِمَنْ يُتابِعُهُ على قَوْلِهِ وَيَتَعَصَّبُ لَه : هَبْ أَنَّ الذي نَقَلْتَ عَنْهُ هذا الكَلامَ بَعْدَ شَهادَتِكَ لَهُ بِأَنَّهُ فاضِلٌ ، هُوَ شَخْصٌ صَفيقُ الوَجْهِ عَديمُ الاسْتِحْياءِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ تَفَوَّهَ بِذِكْرِ الصَلاةِ التي لا ذِكْرَ لَها في تَوْراةِ اليَهودِ ، أَفَلا تَسْتَحْيي أَنْتَ مِنْ نَقْلِ ذِكْرِهِ لِلصَلاة ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ وَقَفَ عَلى التَوْراةِ مِنْ أَوَّلِها إِلى آخِرِها أَنَّها خالِيَةٌ عَنْ ذِكْرِ الصَلاةِ أَصْلاً ورَأْسًا ، فَلا تَسْتَحيونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ في ما تَقُولُون ؟

وكَمَا أَبْقَتِ الشَريعَةُ الحَقَّةُ هذا النَوْعَ مِنَ العِبادَةِ التي كانَ يُعْبَدُ

بها غَيْرُ اللهِ تع ، كَذَلِكَ قَصَدَتِ المُخالَفَةَ لأكْثَرِ جُزْئيّاتِ ذَلِكَ النَّوْعِ بِحَيْثُ تَقعُ المبايَنَةُ لَهُمْ في ضِمْنِ المُوافقَةِ الضَّروريَّةِ، بِحَسَبِ المَصْلَحَةِ والتَلَطُّف.

حاشية ٤٦ هَلَّا خالَفَتِ[1] الشَريعَةُ هذا التَعَبُّدَ الخَسيسَ القَذِرَ المَرْذُولَ على لِسانِ داوودَ النبيِّ عليهِ السلامُ، القائِلِ : لَسْتُ بآكلٍ لَحْمَ العَجاجيلِ ولا أَشْرَبُ دِماءَ الجداءِ. إِذْبَحُوا للهِ ذَبائحَ الشُكْرِ. وَقَوْلُهُ : إِذْبَحُوا لَهُ ذَبائِحَ التَسْبيحِ. وَلأَيِّ سَبَبٍ ما اقْتَصَرَتْ على المُوافَقَةِ في الجُزْئيَّاتِ المَذْكُورَةِ دُونَ هَذا ، وَحينَئِذٍ كانَ لِمُخالَفَتِها لِهَذا بِمُخالَفَتِها لِسائِرِ الجُزْئيّاتِ التي خالَفَتْها. على أَنِّي أَقولُ : إِنَّ الذي يَقْدِرُ على تغيير البَعْضِ لا يَتَعَذَّرُ عليهِ تَغْييرُ الكُلِّ ، إذا كانَ مِنْ أَرْبابِ المُعْجِزِ، لِأَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ الغَيْرُ قَهْرَهُ ولا مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وما ذاكَ إِلَّا لِأَنَّ أَصْلَ هَذِهِ الشَريعَةِ وقُطْبَها الذي عَلَيهِ تَدورُ هو مَحْوُ تِلْكَ الآراءِ مِنَ الأَذْهانِ وإزالَةُ تِلْكَ التَعَبُّداتِ الباطِلَةِ. وبِهَذا يَظْهَرُ تَعليلُ كَثيرٍ مِمَّا شَرَعَ بِهِ مِمَّا لا تُعْقَلُ فائدَتُه إِلَّا لِمَنْ عَرَفَ دِينَ الصابِئَةِ[2] وسائِرِ عُبَّادِ الأَوْثانِ وتَعَبُّداتِهِمْ وَأَعْمالَهُمُ المُخْتَصَّةَ بِهِم.

وأيضًا فَمِنْ جُمْلَةِ أَغراضِ الشَريعَةِ الكامِلَةِ اطِّراحُ الشَهواتِ والتَهاوُنُ بها والاقْتِصارُ مِنْها على الضَروريِّ. وبِهَذا يَظْهَرُ تَلَطُّفُ الله، عَزَّ وَجَلَّ، في التَشْريعِ بِشَرائِعَ تُعَطِّلُ هَذِهِ العِنايَةَ وتَصْرِفُ الفِكْرَةَ عَنْها لِكُلِّ وَجْهٍ وتَمْنَعُ مِن كُلِّ ما يُؤَدّي إلى شَرَهٍ وإلى مُجَرَّدِ لَذَّةٍ في المأكُولاتِ والمَنكوحات.

---

١) خالفه.

٢) الصابة.

حاشية ٤٧ أ– إِنّا قَدْ وَجَدْنا في الشَريعَةِ الموسَوِيَّةِ عَكْسَ هَذا ، فَإِنَّ فيها التَرْغيبَ في الشَهواتِ. كَيْفَ لا وَقَدْ جاءَ فيها إِلْزامُ الرَجُلِ التَزْويجَ بِعَذْراءَ اسْتَحْسَنَها وانْضَجَعَ مَعَها قَبْلَ أَنْ تُمْلَكَ ، حتى إِنَّهُ لَوْ أَرادَ أَنْ يُطَلِّقَها بَعْدَ ذَلِكَ لَما مَكَّنَتْهُ الشَريعَةُ مِنَ الطَلاقِ مَعْ أَنَّ الطَلاقَ مُباحٌ فيها. وَأَيُّ شَهْوَةٍ أَبْلَغُ مِن أَن يَحْظى الرَجُلُ بِحَبيبَتِهِ دائِمًا؟

ب – ثُمَّ إِنَّ الشَريعَةَ حَرَّضَتْ على أَطْيَبِ الطَيِّباتِ وَأَشْهى الشَهَواتِ ، أَعني قَتْلَ الأَعادي واسْتِباحَةَ أَمْوالِهِمْ ونِسائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَأَمْلاكِهِم. وَهَلْ مِنْ لَذَّةٍ أَبْلَغَ مِنْ هَذِهِ؟

ج – وَمَعْلُومٌ عِنْدَ كُلِّ عاقِلٍ أَنَّ أَبْلَغَ الأَشْياءِ في كَسْرِ الشَهْوَةِ ورَدْعِها هُو الصِيامُ. والشَريعَةُ المُوسَوِيَّةُ ما أَمَرَتْ بِهِ أَصْلاً وَرَأْسًا ؛ حتى لو جاءَ الأَمْرُ بالصِيامِ في كُلِّ كِتابٍ لِلْيَهودِ لَما كَفى في رَدِّ هَذِهِ الدَعْوى ، لأَنَّ التَوْراةَ ما أَمَرَتْ بِهِ. ومَعْلومٌ أَنَّ الشَهْوَةَ تَميلُ إِلى بُغْضِ الشانِىءِ ، والتَوْراةُ أَمَرَتْهُمْ بِذَلِكَ حَيْثُ قالَتْ : أَبْغِضْ شانِئَكَ وَاشْتَقْ على أَعْدائِكَ. فَعَلَى هَذا يَلْزَمُ أَنْ لا تَكونَ الشَريعَةُ المُوسَوِيَّةُ كامِلَةً وهذا ظاهِر.

وَمِنْ مَقاصِدِ الشَريعَةِ أَيْضًا اللينُ والتَأَنّي وأَنْ لا يكونَ الإِنْسانُ ذا فَظاظَةٍ[1] وَقَساوَةٍ وغِلْظَةٍ ؛ بَلْ يَكونُ مُجيبًا مُطيعًا مُنيبًا مُتَأَنِّيًا[2] ، كَثيرَ الرَحْمَةِ والشَفَقَةِ. وكَثيرٌ مما شُرِعَ به ، إذا تُؤُمِّلَ وُجِدَ مُؤَدِّيًا إلى هذا المَقْصَد.

حاشية ٤٨ مَعْلُومٌ أَنَّ الشَريعَةَ المُوسَوِيَّةَ قَصَدَتْ ضِدَّ ذَلِكَ ، حَيْثُ أَمَرَتِ اليَهُودَ

---

١) فضاضة

٢) متآنيًا

قَائِلَةً عَنِ السِّتِّ[١] الأُمَمِ : اضرِبُوهُمْ ولا تَرْحَمُوهُمْ. وَقَوْلُهُ : «وكَثيرٌ مِمَّا شُرِعَ بِهِ إذا تُؤُمِّلَ[٢] وُجِدَ مُؤَدِّيًا إلى هذا المَقْصَد» غَيْرُ مُسَلَّمٍ بِهِ لما ذَكَرْناهُ. وبَعْدَ المُسامَحَةِ، لَوْ كانَ قَوْلُهُ السابِقُ صادِقًا لَكانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقولَ هَهُنا : «وَجَميعُ ما شُرِعَ بِهِ». لَكِنَّهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ كاذِبٌ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، بَلْ قالَ : «وَكَثيرٌ مِمّا شُرِعَ بِهِ».

وَتَنْظيفُ الظاهِرِ من الأَوْساخِ والنَجاساتِ، بَعْدَ تَنْظيفِ الباطِنِ مِنَ الرذائِلِ الخُلُقِيَّةِ وتَطْهيرِهِ بالأَخْلاقِ الحَميدَةِ فَمِنْ مَقاصِدِ الشَريعَةِ أَيْضًا، ولا يَخْفى فَوائِدُ كَثيرَةٌ مِنَ المَفْروضاتِ في هذا المَعْنى. هَذا تَعْليلُ الجُمْلَة. وأَمَّا تَعليلُ التَفاصيلِ فَطَويل. وَكُلُّها قَدْ ظَهَرَ لَها فَوائِدُ لَيْسَتْ بالقَليلة. فَبَطَلَ زَعْمُ مَنِ اسْتَنْكَرَ وُرودَ أمثالِ هَذِهِ التَشريعاتِ مِنَ اللهِ تَع.

حاشية ٤٩ قَدْ مَرَّ في الحَواشي التي كُتِبَتْ على هذا التَعليلِ ما يَدُلُّ على أَنَّهُ تَعليلٌ فاسِدٌ مَرْدودٌ من وُجوهٍ كَثيرة. وأَمَّا قَوْلُهُ هَهُنا : «وَكُلُّها قَدْ ظَهَرَ لَها فَوائِدُ لَيسَت بالقَليلَة» فَهْوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ لأَنَّهُ دَعْوى مُجَرَّدَةٌ عن الدَليل، وعلى هذا يَبْطُلُ قَوْلُهُ حَيْثُ قال : «فَبَطَلَ زَعْمُ مَنِ اسْتَنْكَرَ وُرودَ أَمْثالِ هَذِهِ التَشريعاتِ مِنَ اللهِ تَعالى».

وأَمَّا اسْتِنْكارُ أَنْ يَنْزِلَ على مُوسى حِكايَةُ مَوْتِهِ ودَفْنِهِ فَقَدْ قِيلَ إنَّ يشوعَ بْنَ نُونٍ عَم أَمَرَهُ اللهُ تَعالى بأَنْ يَكْتُبَ ذَلِكَ في آخِرِ التَوراةِ وَيَجْعَلَهُ مِنْها، على أَنَّ تَنْزِيلَهُ على مُوسى لَيْسَ بمُمتَنِعٍ ولا بِمُسْتَبْعَدٍ كُلَّ

---

١) الستة.

٢) تأمل.

ذَلِكَ الاسْتِبْعاد. فإِنَّ التَعبيرَ عَنِ المُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الماضي قَد جاءَ مِثْلُهُ كَثيرًا على وَجْهِ التَجَوُّزِ على مَعْنى أَنَّ المُتَيَقَّنَ وُقوعُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَع.

حاشية ٥٠ للمُطالِبِ أَنْ يُطالِبَ وَيقولَ : مَنْ هُوَ القائِلُ حتى نَعْرِفَ هَلْ هو صادِقٌ أَمْ لا. والظاهِرُ أَنَّهُ لَوْ كان صادِقَ الكَلامِ لكانَ المُصَنِّفُ قَدْ ذَكَرَ اسْمَهُ وَأَسْنَدَ القَوْلَ إِلَيه. وَلَوْ سَلَّمْنا أَنَّ هذا القائِلَ صادِقٌ قُلْنا : إِنَّ هَذا لا بُدَّ أَنْ يَصيرَ حُجَّةً قاطِعَةً لِمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ التَوراةَ لَيْسَتْ بِمَأْخُوذَةٍ عن موسى وَحْدَه، لَكِنْ قَدْ زادَ غَيْرُه فيها بَعْدَ مَوْتِهِ هَذِهِ الزِيادَةَ. وَحَيْثُ قَدْ صَحَّ بالإِجْماعِ ذَلِكَ، فَمَا المانِعُ عَنْ وُقوعِ أَمْثالِهِ فيها لأَغْراضٍ لا اطِّلاعَ لَنا عَلَيها.

الاعتِراضُ الخامِس

إِنَّ هَذِهِ التَوراةَ لَمْ نَجِدْ فيها تَصْريحًا بالثَوابِ والعِقابِ الأُخْرَوِيَّيْنِ، وذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ ما يُذْكَرُ، وَهْوَ الأَصْلُ الأَعْظَمُ في التَشْريع. فَلَوْ كانَتِ التَوْراةُ التي بِأَيْدِي اليَهودِ مُنْزَلَةً مِنَ اللهِ تَع، لَما جَازَ خُلُوُّها مِنَ التَّصْريحِ بِذَلِكَ والعُدولُ عَنْهُ إلى الدُنْيَوِيَّيْنِ اللذَيْنِ قَدْ أُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهِمَا في التَوْراة. فَإِنَّ الدُنيا زائِلَةٌ ولا اعْتِدادَ بِنَعِيمِها ولا شَقائِها. وَلَوْ سَلَّمْنا الاعْتِدادَ بِها فالتَجْرِبَةُ اقْتَضَتْ أَنَّ النَعيمَ في الدُنْيا غَيْرُ مُخْتَصٍّ بالصَالِحينَ وَأَنَّ الشَقَاءَ فيها[١] لا يَخْتَصُّ بالعُصاةِ الطالِحِينَ، بَلْ كَمْ مِنْ صَالِحٍ مُطيعٍ شَقِيٌّ وكَمْ مِنْ فاسِقٍ وكافِرٍ سَعيدٌ. واللهُ يَتَعالى عَنِ الخُلْفِ[٢] في وَعْدِهِ وَوَعيدِهِ وأَنْ يُخْبِرَ بِوُقوعِ ما لا يَقَعُ أَوْ يَقَعُ الأَمْرُ بِخِلافِهِ.

---

١) منها

٢) الخَلْقِ

وَجوابُهُ

إنَّ خُلُوَّ التَّوراةِ مِنَ التَّصريحِ بِذَلِكَ لا يَضُرُّ إذا كانَ قَدْ أُنْزِلَ على موسى عم وخاطَبَ بِهِ بَني إسْرائيلَ واسْتفاضَ مِنْهُم.

فَإنْ قيلَ: فَلِمَ لَمْ يَكْتُبْهُ في التوراةِ مُصَرَّحًا؟ قيلَ: إنَّ الأُمورَ الإلاهِيَّةَ لا يَجوزُ المُعارَضَةُ فيها، ثمَّ ولا السُّؤالُ عَنْها؛ بَلْ فَرُبَّما يَكونُ ذَلِكَ حِكْمَةً لا نَعْرِفُها.

ثُمَّ إنَّ الأنْبِياءَ أَطِبّاءُ النُفوسِ بإرْشادِ اللهِ تع إيّاهُمْ. وكَما أنَّ طَبيبَ الأَبْدانِ إنَّما يُعالِجُ المَرَضَ الحاضِرَ في البَدَنِ، لا غَيْرَهُ، فَكَذَلِكَ طَبيبُ النُفوسِ الذي هُوَ النَّبِيُّ إنَّما يُداوي مَرَضَ نُفوسِ الناسِ، على حَسَبِ ما يَجِدُهُ في زَمانِهِ. وأَهْلُ زَمانِ مُوسى عم لم يَكونوا مِنَ المُنْكِرينَ لِثَوابِ الآخِرَةِ وعِقابِها، بل كانَ مَرَضُهُم عِبادَةَ الأَصْنامِ والكَواكِبِ وغَيْرِها، وبالجُمْلَةِ عِبادَةَ غَيْرِ اللهِ تعالى.

حاشية ٥١

أ – إنّي تَصَفَّحْتُ هذا الكِتابَ مِنْ أَوَّلِهِ إلى آخِرِهِ فَلَمْ أَجِدْ فيهِ أَسْقَطَ مِنْ هَذا الكَلامِ ولا أَبْعَدَ مِنْهُ عن الصَّوابِ. وَعلى تَقْديرِ صِدْقِهِ أَقولُ: لَوْ لَمْ يَكُنِ الشِرْكُ مُسْتَوْلِيًا على بَني إسْرائيلَ لَما أَمَرَتْهُمُ التَّوْراةُ بالتَّوْحيدِ، وَلَوْ لَمْ يَكونوا مُشَبِّهينَ لَما نَهَتْهُمْ عَنِ التَّشْبيهِ، وَلَوْ لَمْ يُبْغِضُوا اللهَ لَما أَمَرَتْهُمْ بِمَحَبَّتِهِ، وعَلى هذا يُقاسُ ما عَداه.

ب – ثُمَّ كَيْفَ يَجُوزُ عِنْدَ عاقِلٍ تَصْديقُ كَلامِ المُصَنِّفِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ أَهْلَ زَمانِ مُوسى لا بُدَّ وَأَنْ يُرادَ بِهِمْ أَحَدُ ثَلاثَة[1] مَفْهوماتٍ: أَوَّلُها بَنو إسْرائيلَ وَالثاني ما سِواهُمْ مِنَ الأُمَمِ والثالِثُ هَؤلاءِ وَأُولَئِكَ مَعًا. والكُلُّ مُحالٌ.

١) ثلاث.

فَكَلامُ المُصَنِّفِ أَيْضًا مُحالٌ وَسائِرُ ما يُبْنى عَلَيْهِ فما بَعْدَهُ مُحال. أَمّا المَفْهُومُ الأَوَّلُ فَلأَنَّ بَني[1] إسْرائيلَ في ذَلِكَ الزَّمانِ ما عَبَدُوا هَذِهِ المَعْبُودات. وأَمّا المَفْهومُ الثاني فَلأَنَّهُ لَوْ سَلَّمْنا أَنَّهُم كانُوا يَعْبُدونَ غَيْرَ اللهِ لكِنّا لا نُسَلِّمُ أَنَّهُمْ كانوا يُقِرُّونَ ثَوابَ الآخِرَةِ وعِقابَها، لأَنَّ الذي يُقِرُّ بِأَنَّ المُثيبَ والمُعاقِبَ في الآخِرَةِ هُوَ اللهُ العَزيزُ لا غَيْر. فَمَنْ يَعْبُدْ غَيْرَهُ لا يُقِرُّ بالثوابِ والعِقابِ الأُخْرَوِيَّيْنِ أَبَدَ الآبدينَ، لاسْتِحالَةِ اجْتِماعِ الإقْرارِ بِهِا مَعَ عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ، فَظَهَرَ فَسادُ المَفْهومِ الثاني أَيْضًا. وَمعَ ذَلِكَ فَإِنّا لَوْ فَرَضْنا أَنَّ هَذا المَفْهومَ هُوَ مُرادُ المُصَنِّفِ لَزِمَهُ مُناقَضَةُ كِتابِهِ ومُناقَضَةُ نَفْسِهِ أَيْضًا. أَمّا مُناقَضَتُه كِتابَه فَلأَنَّ التَّشْريعَ فيهِ لَمْ يَكُنْ إلّا لِبَني إسْرائيلَ خاصَّةً كَما هُوَ ظاهِرٌ مِنْ كَلامِ التَّوْراةِ. وَأَمّا مُناقَضَتُهُ نَفْسَه فَلأَنَّهُ قالَ في أَثْناءِ حِكايَةِ عَقيدَةِ اليَهود: وَأَتاهُم موسى عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصلاةِ والسَّلام، أَعْني بَني إسْرائيلَ، بالشَرِيعَةِ المُقَدَّسَة. وَأَمّا القِسْمُ الثالِثُ فلامْتِناعِ انْدِراجِ بَني[2] إسْرائيلَ وسائِرِ الأُمَمِ تَحْتَ حُكْمٍ واحِدٍ مِنَ الوَجْهِ الذي نَحْنُ فيه، لأَنَّ بَني إسْرائيلَ يَعْبُدونَ اللهَ، وَأُولَئِكَ الأُمَمَ يَعْبُدونَ غَيْرَهُ. وَإذْ قَدْ ثَبَتَ فَسادُ الأَقْسامِ الثَّلاثَةِ. ثَبَتَ فَسادُ قَوْلِ المُصَنِّفِ عِنْدَ كُلِّ عاقِلٍ مُنْصِف.

ج – وَأَسْتَأْنِفُ وَأَقول: لَقَدْ صَدَقَ المُعْتَرِضُ القائِلُ: إنَّ التَصريحَ بالثوابِ والعِقابِ الأُخْرَوِيَّيْنِ هُوَ مِن أَهَمِّ ما يُذْكَرُ وَهْوَ الأَصْلُ الأَعْظَمُ في التَّشْريعِ. وَقَدْ وافَقَهُ المُصَنِّفُ على ذَلِكَ حَيْثُ قالَ في أَثْناءِ كَلامِهِ في العِلَّةِ الغائِيَّةِ في وُجودِ النَّبِيِّ:

١) بنو.
٢) بنو.

«وَيَجِبُ أَنْ يَكونَ الأَصْلُ الأَوَّلُ في ما يَسُنُّهُ النَّبيُّ الحَقيقيُّ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ أَنَّ لَهُم صانِعًا واحِدًا غَنِيًّا قادِرًا لا شَريكَ لَه في مُلْكِهِ ولا شَبيهَ ولا نَظيرَ، عالِمًا بالسِّرِّ والعلانِيَةِ، لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ في السَّماوَاتِ ولا في الأَرْض. وأَنَّ مِن حَقِّهِ أَن يُطاعَ، وَأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ السَّعادَةَ لِمَنْ أَطاعَهُ والشَّقَاوَةَ لِمَن عَصاه، وَأَنْ يُقَرِّرَ لَهُمْ أَمْرَ المَعادِ الأُخْرَويّ وَأَنَّ هُناكَ مِنَ اللَذَّةِ الأَبَدِيَّةِ مَا هُوَ مِلْكٌ عَظيمٌ ومِنَ الأَلَمِ ما هُو عَذابٌ مُقيم».

د – هَذا كَلامُ المُصَنِّفِ. وأَزيدُ فأَقولُ: إِنَّا لَوْ سَلَّمْنا صِدْقَ كَلامِ المُصَنِّفِ مُسامَحَةً له، فَأَيُّ مَحْذورٍ كانَ يَلْزَمُ مِنْ ذِكْرِهِ في التَوراةِ مِرارًا لِعِظَمِ فائِدَتِهِ، أَوْ مَرَّةً واحِدَةً، مَعْ أَنَّهُ قَدْ ذُكِرَ فيها القِصَصُ الخالِيَةُ عَنِ الفَوائِدِ الدُنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ ما نَقَلْنا[1] مِنْهُ لُمَعَةً في الحَواشي السالِفَةِ، حتَّى إِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ بَعْضِها، أَفَما كانَ لِلْمُجازاةِ الأُخْرَوِيَّةِ أُسْوَةٌ بِواحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ القِصَصِ الخالِيَةِ عَنِ الفَوائِدِ الدُنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ.

واعْتِقادُهُمْ أَن بِعِبادَتِها وتَقْريبِ القَرابينِ لها تَعْمُرُ الأَرْضُ وتُخْصِبُ البِلادُ وتَصِحُّ ثِمارُ الأَشْجارِ. وكان عُلَماؤُهُم ونُسّاكُهُمْ وأَهْلُ التَقْوى مِنْهُم يَعِظُونَ الناسَ ويُعَلِّمُونَهُم أَنَّ الفِلاحَةَ التي بها قِوامُ وُجودِ الإِنْسانِ إِنَّما تَتِمّ وتَجيءُ على الاخْتِيارِ بِأَنْ – تَعْبُدوا الشَمْسَ والكَواكِبَ، وإِنْ أَسْخَطْتُمُوها بِعِصْيانِكُم أَقْفَرَتِ البِلادُ وَخَرِبَتْ. وَقالوا في كُتُبِهِم التي ذَكَرْناها إِنَّ المُشْتَرِيَ سَخِطَ على البَراريَ والصَحاري ولِذَلِكَ صارَتْ عادِمَةَ الماءِ، عادِمَةَ الأَشْجارِ، يَأْويها الغِيلانُ؛ وَكانوا يُعَظِّمُونَ الفَلاَّحِينَ والأَكَّارِينَ جِدًّا لاشْتِغالِهِمْ بِعِمارَةِ الأَرْضِ التي هي من

١) نقلناه.

إِرادَةِ الكَواكِبِ وهو رِضاها. وفي كِتابِ الفِلاحَةِ النَبَطِيَّةِ على الكَرْمِ كَلامٌ للصابِئَةِ[1] هُوَ أَنَّ الحُكَماءَ القُدَماءَ كُلَّهُمْ والأَنْبِياءَ قد أَمَروا وَفَرَضُوا أَنْ يُضْرَبَ بالآلاتِ في الأَعْيادِ وَبَيْنَ أَيْدِي الأَصْنامِ، وأَنَّ الآلِهَةَ يُعْجِبُها ذَلِكَ وأَنَّها تُكافِيءُ فاعِلِيهِ أَحْسَنَ مُكافَأَةً. وَأَكْثَروا في هَذا الفِعْلِ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ على ذَلِكَ مِنْ تَطْويلِ الأَعْمارِ وَدَفْعِ الآفاتِ وصَرْفِ العاهاتِ وخِصْبِ المَزارِعِ وَزَكاةِ الثِمار. فَلَمَّا شُهِرَتْ هَذِهِ الأُمورُ حَتّى ظُنَّتْ يَقينًا، وأَرادَ اللهُ تع، رَحْمَةً مِنْهُ، مَحْوَ هذا الغَلَطِ مِنَ الأَذْهانِ وَرَفْعَ هذا التَعَبِ عَنِ الأَجْسادِ، بِتَعْطيلِ تِلْكَ الأَعْمالِ الشاقَّةِ الغَيْرِ المُفيدَةِ، أَخْبَرَ على لِسانِ رَسُولِهِ موسى عَم أَنَّهُ إِنْ عُبِدَتْ هَذِهِ الكَواكِبُ والأَصْنامُ انْقَطَعَ المَطَرُ وَخَرِبَتِ الأَرْضُ فَلَمْ تُنْبِتْ شَيْئًا وَسَقَطَتْ ثِمارُ الأَشْجارِ وَحَلَّتِ الآفاتُ والعاهاتُ بالأَجْسامِ وَقَصُرَتِ الأَعْمارُ.

حاشية ٥٢

أ – فإِذَنْ لِمَ لا انْقَطَعَ في زَمانِ آحابَ المَلِكِ طولَ تِلْكَ المُدَّةِ التي كانَ يُعْبَدُ الصَنَمُ فيها قَبْلَ تَظاهُرِهِ بِتِلْكَ العِبادَةِ لإِيليا النَبِيِّ، مُعْتَرِضًا على التَوْراةِ باسْتِمْرارِ مَجيءِ الأَمْطارِ وَنَباتِ الغَلاَّتِ مَعَ عِبادَتِهِ لِذَلِكَ الصَنَم.

ب – وَأَزيدُ فَأَقولُ: إِنّا إِذا سامَحْنا المُصَنِّفَ وَسَلَّمْنا جَميعَ ما ذَكَرَ في هذا الجوابِ من التَخْليطِ في الكَلامِ والتَمويهِ، وذِكْرِ ما لا مَدْخَلَ لَهُ في الجوابِ، فَأَيُّ مَحْذورٍ كانَ يَلْزَمُ لَوْ زيدَ على ذِكْرِ هذا الوَعيدِ الذي نَقَلَهُ المُصَنِّفُ ذِكْرُ الوَعيدِ الأُخْرَوِيِّ الذي لا بُدَّ مِنْ وُقوعِهِ في نَفْسِ الأَمْرِ، وَلا شَكَّ في شِدَّةِ إِيلامِهِ ودَوامِ أَيّامِهِ. وَأَزيدُ فَأَقولُ: إِنَّ موسى النَبِيَّ عليه

١) الصابة

السلامُ إنْ كانَ أَخبَرَ بِهَذا الوَعيدِ لِبَني إسْرائيلَ فَأَيُّ فائِدَةٍ حَصَلَتْ لهم بهذا الخَبَرِ معْ أنَّهم كانوا يَعْبُدونَ اللهَ تعالى. فإنْ قيلَ: الفائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ هيَ التَحذيرُ مِنْ عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ في وَقْتٍ آخرَ مُسْتَقْبَلٍ، فالجوابُ انَّ هَذا مَرْدودٌ بِقَوْلِ المُصَنِّفِ: إنَّ النَّبيَّ الذي هُوَ طَبيبُ النُفوسِ إنَّما يُداوي مَرضَ نُفوسِ الناسِ على حَسَبِ ما يَجِدُهُ في زَمانِهِ. وإنْ كانَ مُوسى أَخْبَرَ بهذا الوَعيدِ لِغَيْرِ بَني إسْرائيلَ فَلا فائِدَةَ مِنْهُ أيضًا لأَنَّهم لا يُصَدِّقونَ نُبوءتَهُ بَلْ وَلا رُبُوبِيَّةَ رَبِّهِ تعالى عن ذَلِكَ. فَإِذَنْ لا فائِدَةَ لهذا الإخبارِ لأَحَدٍ مِنَ الفَريقَيْنِ فيكونُ ضائِعًا.

> وبالإقْبالِ على عِبادَةِ اللهِ تع تَنْزِلُ الأمْطارُ وتُخْصِبُ الأرْضُ وتَصْلُحُ الأَحْوالُ وَيَصِحُّ الجِسْمُ وتَطولُ الأعْمارُ. وكَرَّرَ هذا الوَعْدَ والوَعيدَ في عِدَّةِ مَواضِعَ مِنَ التَوْراةِ، لِيزولَ ذَلِكَ الرَأْيُ ويَنْمَحِيَ أَثَرُهُ من النُفوسِ، فَتَبَرَّأَ مِنْ مَرَضِ هَذِهِ العَقيدَةِ وما يَتَسَبَّبُ مِنْها مِنَ الفَسادِ.
>
> وَلَوْ كانَ مَرَضُهُمْ إنْكارَ البَقاءِ الأَبَدِيِّ للنُفوسِ بَعْدَ المَوْتِ، والثَوابِ والعِقابِ فيه، لكانَ قَدْ كَرَّرَ ذِكْرَهُ في التَوْراةِ للتأكيدِ والتَقْريرِ.

حاشية ٥٣ أ – فَإِذَنْ يَلْزَمُ مِن كَلامِ المُصَنِّفِ هَهُنا أَنَّ الجَهْلَ بِعَدَدِ أَوْلادِ نُوحٍ وَأَسْمائِهِمْ هُوَ مَرَضٌ مِنْ أَمْراضِ النُفوسِ وإلّا لما كانَ قَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ في التَوراةِ. لكِنّا لا نُسَلِّمُ أَنَّهُ مَرَضٌ لِأَنَّ الجَهْلَ بِهِ لا يَضُرُّ النُفوسَ والعِلْمَ بِهِ لا يَنْفَعُها. وَجَميعُ ما يَكونُ بِهَذِهِ المَثابَةِ فَلَيْسَ مِن أَمراضِ النُفوسِ.

ب – ويَلْزَمُ أَيْضًا أَن تَكُونَ الأَعْمالُ الصِناعِيَّةُ مَرَضًا[1] مِنْ أَمْراضِ

١) مرض.

النُفوسِ وإلّا لما كانَ تَكَرَّرَ النَهْيُ عَنها في التَوراةِ نَفْسِها. لكِنّا لا نُسَلِّمُ أنَّ الأَعْمالَ الصِّناعِيَّةَ مِنْ أَمْراضِ النُفوسِ. وَلَوْ سَلَّمْنا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَمْراضِ النُفوسِ فَلَيْسَ يَضُرُّ بالنُفوسِ عُشْرَ مِعْشارِ ما يَضُرُّها الجَهْلُ بِبَقاءِ النَفْسِ بَعْدَ المَوْتِ والثَوابِ والعِقابِ الأُخْرَوِيَّيْنِ فكانَ يَجِبُ تَكْريرُ ذَلِكَ في التَوراةِ عِدَّةَ مِرارٍ، ولا أَقَلَّ مِنْ مِثْلِ تَكريرِ ذِكْرِ النَهْيِ عَنِ الأَعْمالِ في السَبْتِ، بَل وَلا أَقَلَّ مِنْ تَكريرِ ذِكْرِ عَدَدِ أَوْلادِ نُوحٍ وَأَسْمائِهِمْ ...

> ولَمّا لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كذا اقْتَنَعَ باسْتِفاضَتِهِ بَيْنَ الأُمَّةِ والتَعْريضِ بِهِ.

حاشية ٥٤ أ – لَوْ كانَتِ الاسْتِفاضَةُ بَيْنَ الأُمَّةِ مُوجِبَةً لِتَرْكِ ذِكْرِ هذا الأَمْرِ المُهِمِّ النافِعِ لِلناسِ، الخَفِيِّ عَنِ الحَواسِّ، لَكانَ الأَوْلى تَرْكُ ذِكْرِ عَدَدِ الغَنَمِ والبَقَرِ والحَميرِ التي أَهْداها يَعْقوبُ لِعيسوَ لِكَوْنِها مُسْتَفاضَةً ومَحْسوسَةً وَغَيْرَ نافِعَةٍ لِلناسِ في الدِّينِ أَيْضًا. وَكُلُّ هَذِهِ الأُمورِ بِخِلافِ حالِ البَعْثِ والنُشورِ والمُجازاةِ الأُخْرَوِيَّةِ. وَكانَ أَيْضًا قَدِ اقْتَنَعَ بِاسْتِفاضَةِ ما جَرى في مِصْرَ وفي البَحْرِ وَفي القَفْرِ وما إلى ذِكْرِ شَيْءٍ مِنها في التَوْراة. فَكَيْفَ ذَكَرَ هَذِهِ الأُمورَ الظاهِرَةَ للحِسِّ وَلَمْ يَذْكُرِ الخَفِيَّ عَنِ الحَواسِّ، مَعَ كَوْنِ هذا الخَفِيِّ أَهَمَّ مُهِمّاتِ الشَرائِعِ الحَقَّةِ.

ب – وأَبْلَغُ مِنْ هَذا أَنَّهُ ما اكْتَفى بِذِكْرِ عَدَدِ أَوْلادِ نُوحٍ وأَسْمائِهِمْ مَرَّةً واحِدَةً، لَكِنْ كَرَّرَ ذَلِكَ مَرَّةً ثانِيَةً. وأَمّا قَوْلُهُ «التَعْريضُ بِهِ» فَكَذِبُهُ ظاهِرٌ، لأَنَّ التَوْراةَ ما عَرَّجَتْ على التَعْريضِ بِهِ أَبَدًا. فَظَهَرَ مِمّا قَرَّرْنا فَسادُ قَوْلِ المُصَنِّفِ وَتَعَصُّبُهُ لِلْباطِلِ بِفُنونِ المُغالَطاتِ وَالتَمْويهاتِ.

وَلِهذا كانَتِ اليَهودُ مُعْتَقِدَةً وَمُقِرَّةً بِالبَعْثِ والنُشورِ للأَمْواتِ وبِبَقاءِ النَفْسِ بَعْدَ مَوْتِ الأَجْساد. وَتَناقَلوا بِذلِكَ خَلَفًا عَنْ سَلَف. وَتَرَحَّمُوا على مَوْتاهُمْ، وَأَذْعَنُوا بالتَوْبَةِ عِنْدَ ظَنِّهِمْ حُلولَ الأَجَل، وَلَقَّنُوا مَنْ أَوْجَبوا قَتْلَهُ، حَدًّا أو قِصاصًا، عِنْدَما يُريدونَ قَتْلَهُ، أَنْ يَسْأَلَ اللهَ تَع أَنْ يَجْعَلَ قَتْلَتَهُ كَفَّارَةً عَنْ ذَنْبِهِ، بِحَيْثُ يَتَخَلَّصُ مِنْ عِقابِ الذَنْبِ في الآخِرَة. وأَوْجَبوا ذِكْرَ الإِيمانِ بإِحْياءِ المَوتى في الصَلاةِ وَغَيْرِ الصَلاة، وعِنْدَ اجْتِيازِهِمْ بِمَقابِرِ أُمَّتِهِمْ، كَما ذَكَرْتُ ذَلِكَ عِنْدَ حِكايَةِ مُعْتَقَدِهِمْ، وَقَدْ أَكْثَرَ أَحْبارُهُمْ وعُلَماؤُهُمْ مِنْ ذِكْرِ جُزْئِيّاتِ أَحْوالِ الجَنَّةِ والنارِ وَرَتَّبوها وكَرَّروا ذَلِكَ.

حاشية ٥٥ أ – جَميعُ ما ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ هَهُنا هُوَ حُجَّةٌ على اليَهودِ لا لَهُمْ. وذَلِكَ لأَنَّ هَذِهِ الأَقاويلَ لَيْسَتْ بِمَذْكورَةٍ في كِتابِهِمْ، لكِنَّها مِنْ جُمْلَةِ اخْتِراعاتِهِمْ فَيُقالُ لَهُم: إنَّ الذي اخْتَرَعَ هَذِهِ الأَقاوِيلَ قَدْ خالَفَ توراتَكُم التي نَهَتْ عنِ الزِيادَةِ في الشَريعَةِ والنُقْصانِ مِنها وَلَعَنَتْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

ب – وَالعَجَبُ مِنْ جُمْهورِ اليَهودِ كَيْفَ لَمْ يُنْكِرُوا على الأَحْبارِ في هَذِهِ البِدَعِ لكِنَّهُمْ انْقادُوا لَهُمْ انْقِيادَ الضَريرِ للضَرير، وَلَمْ يَخْطُرْ ببالِهِمْ قَوْلُ أَشْعْيا النَبيِّ القائِلِ عَنِ اللهِ تَعالى: يا شَعْبِي رُؤَساؤُكُمْ هُمُ الذينَ أَضَلُّوكُمْ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ يُحْسِنونَ إِلَيْكُمْ.

ج – فَإِنْ عارَضَني مُعارِضٌ وَقالَ: إذا كانَ ذِكْرُ جُزْئِيّاتِ الجَنَّةِ والنارِ إِضْلالاً فَيَلْزَمُكَ أَنْ تَحْكُمَ بِضَلالِ مَنْ يُقِرُّ بِذلِكَ مِنْ مِلَّتِكَ، فَجَوابُهُ أَنَّ هَذا لا يُلْزِمُ غَيْرَ اليَهودِ لأَنَّهُمْ ابْتَدَعُوهُ وَلَيْسَ هُوَ في كِتابِهِمْ، وَلا شَكَّ في ضَلالِ كُلِّ مَنْ يُخالِفُ كِتابَهُ.

فَإِنْ قِيلَ – فَكَيْفَ لَمْ يَطَّرِدْ حُصولُ ما وُعِدَ الطائِعونَ بِهِ في الدُنْيا وما تُوُعِّدَ بِهِ العاصُونَ فيها حَتَّى يَتَحَقَّقَ تَكْذيبُ عَبَدَةِ الأَصْنامِ والكَواكِبِ، قِيلَ – قَدْ كانَ ذَلِكَ مُطَّرِدًا لَمَّا كانَتِ السَكِينَةُ الإلاهِيَّةُ بَيْنَهُمْ، بِحَيْثُ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ يَجْري على قانونٍ إِرادِيٍّ مِنَ اللهِ تَع المُعْتَني بِهِمْ، لا عَلى قانونٍ طَبيعِيٍّ مِثْلَ غَيْرِهِم، كَما سَبَقَ.

حاشية ٥٦ هَذا الكَلامُ مَرْدودٌ، أَمَّا أَوَّلاً فلأَنَّهُ دَعْوى مُجَرَّدَةٌ عَنِ الدَليل. فَلِلقائِلِ أَنْ يَقولَ عَلَيه: مَتى كانَ هَذا الاطِّرادُ وَمَنْ الذي نَقَلَهُ وفي أَيِّ كِتابٍ جاءَ؟ وَأَمَّا ثانِيًا فَبِقِصَّةِ آحابَ المَلِكِ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُها. وَأَقولُ مِنْ طَريقٍ آخَر: إِنَّ هذا الوَعْدَ والوَعيدَ لا يُمْكِنُ وُقوعُهُ أَبَدًا فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكونَ مُطَّرِدًا أَوْ غَيْرَ مُطَّرِدٍ. والدَليلُ عَلى عَدَمِ وُقوعِهِ ما سَنَذْكُرُهُ في الحاشِيَةِ التابِعَةِ لِهَذِهِ.

وَهَذا الوَعْدُ والوَعيدُ الدُنْياوِيّانِ، هُوَ لا مُطْلَقًا، إِنَّما هُوَ لِجُمْلَةِ تِلْكَ الأُمَّةِ، مِنْ حَيْثُ هي جُمْلَةٌ وَمَجْموعٌ، وفي الأَرْضِ التي وُعِدُوا بِها، عِنْدَ حُلولِ السَكينَةِ بَيْنَهُم، لا في غَيْرِها ولا لِشَخْصٍ شَخْصٍ عَلى الانْفِراد.

حاشية ٥٧ أ – هَذِهِ شُروطٌ زائِدَةٌ على ما في التَوْراةِ، وَهِيَ غَيْرُ مُسَلَّمَةٍ عِنْدَ الخَصْم. وَبِتَقْديرِ تَسْليمِها نَقولُ: إِنَّ الوَعْدَ والوَعيدَ على هَذا التَقْديرِ المَذْكورِ مَشْروطٌ بالمُحال. وَكُلُّ مَشْروطٍ بِالمُحالِ فَوُقوعُهُ مُحالٌ فَيَكُونُ الوَعْدُ وَالوَعيدُ الدُنْيَوِيّانِ[1] مُحالاً[2] أَيْضًا. وَالدَليلُ عَلى صِدْقِ دَعْوايَ أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لِوُقوعِهِ ثَلاثَةَ شُروطٍ: أَوَّلُها كَوْنُهُ لِجُمْلَةِ تِلْكَ الأُمَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ

١) الدنيويين.
٢) محال.

جُمْلَةٌ وَمَجْمُوعٌ. وَثانِيها تَخْصيصُهُ بِزَمانِ سَكْنَتِهِمْ أَرْضَ المِيعادِ. وثالِثُها حُلولُ السَّكِينَةِ بَيْنَهُمْ. وَسَنُبَيِّنَ الآنَ [أَنَّ] هَذِهِ الشُرُوطَ الثَلاثَةَ مُحال.

ب – أَمّا الأَوَّلُ فَلاسْتِحالَةِ اتِّفاقِ جَميعِ أَشْخاصِها عَلى الطاعَةِ أَو عَلى العِصْيانِ إِذْ لا بدَّ وَأَنْ يَتَخَلَّفَ مِن هَذِهِ الجُمْلَةِ الكَثيرةِ مَنْ لا يُوافِقُ عَلى الطّاعَةِ وَكَذا عَلى المَعْصِيَةِ. وَحِينَئِذٍ يَمْتَنِعُ وُقوعُ الوَعْدِ أَوِ الوَعيدِ، لأَنَّ عَدالَةَ اللهِ لا تَقْتَضِي المُساواةَ في المُجازاةِ بَيْنَ الطائِعِ والعاصِي. وَلَوْ فَرَضْنا أَنَّهُ تَعالى ساوى بَيْنَهُما في المُجازاة، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ كَذِبُ قَوْلِ التَوْراةِ القائِلَةِ بِأَنَّ الوَعْدَ هُوَ لِلطائِعينَ والوَعيدَ لِلعاصِينَ. وَأَيْضًا فَإِنَّ تَخْصِيصَهُ بِالجُمْلَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ جُمْلَةٌ مَنْقوضٌ بِخَطإِ زِمْري وَحْدَهُ وَوُقوعِ الوَعيدِ بِسَبَبِهِ.

ج – وَأَمّا الشَرْطُ الثاني فَهْوَ أَيْضًا مُحالٌ لانْتِقاضِهِ بِخَطيئَةِ زِمْري، فإِنَّها اسْتَتْبَعَتْ وُقوعَ الوَعيدِ قَبْلَ الدُخولِ إِلى أَرْضِ الميعادِ، وَبِخَطِيئَةِ أَوْلادِ هٰرونَ أَيْضًا، وَبِقَوْلِ التَوراةِ القائِلَةِ في السِفْرِ الخامِسِ: فَإِنْ سَمِعْتُمْ هَذا القَضاءَ وحَفِظْتُموهُ وَعَمِلْتُمْ بِهِ فَسَيَحْفَظُ لَكَ اللهُ رَبُّكَ النِعْمَةَ والمِيثاقَ الذي حَلَفَ لآبائِكَ، وَيُحِبُّكَ ويُبارِكُ عَلَيْكَ ويُكَثِّرُكَ. ثُمَّ قالَ بَعْدَ هَذا الكَلامِ بِكَلامٍ كَثيرٍ: وتَدْخُلونَ الأَرْضَ التي حَلَفَ اللهُ لآبائِكُمْ وتَرِثُونَها.

د – وَأَمّا الشَرْطُ الثالِثُ وَهْوَ حُلولُ السَكينَةِ بَيْنَهُم، فَهْوَ مَنْقُوضٌ بِما حَلَّ بِالقَوْمِ مِنْ بَخْتَنَصَّرَ، وَكانَ ذَلِكَ بَعْدَ اخْتِفاءِ السَّكينَةِ، وَهْوَ مَنْقوضٌ أَيْضًا بِما حَلَّ بِهِمْ مِنْ طِيطُوسَ المَلِكِ. وَأَمّا قَوْلُ المُصَنِّفِ: «وَلا لِشَخْصٍ شَخْصٍ عَلى الانْفِراد» فَيَدُلُّ عَلى بُطْلانِهِ خَطيئَةُ أَوْلادِ هٰرون. ولا شَكَّ في أَنَّهُ

إذا وَقَفَ على ما ذَكَرْناهُ من لا يَسْتَميلُهُ هَواه، عَلِمَ أَنَّ المُصَنِّفَ قَدْ أَخْطَأَ في دَعْواهُ.

بَلْ وَعَدَ كُلَّ شَخْصٍ على طاعَتِهِ، وَوَعيدُهُ على عِصْيانِهِ إِنَّما هُوَ في الآخِرَةِ وَبَعْدَ المَوتِ، لا بُدَّ.

حاشية ٥٨ نَعَمْ هَذا هُوَ الحَقُّ الذي لا مَحيدَ عَنْهُ. لَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ شَريعَةِ اليَهودِ، لأَنَّهُ غَيْرُ مَوْجودٍ في تَوراتِهِمْ. ومِنْ هَهُنا يُعْلَمُ أَنَّ هَذا مَسْروقٌ مِنْ شَريعَةٍ أُخْرى هِيَ الشَريعَةُ الحَقَّةُ لَوْ كانوا يَعْقِلون.

وأَمّا في الدُنْيا فَلَيْسَ هُوَ على وَجْهِ الاطِّرادِ، بَلْ قَدْ يَظْهَرُ مِنَ العِنايَةِ بِالشَخْصِ الصالِحِ الخَيِّرِ ما يَمْتازُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ في الدُنْيا، وَيَظْهَرُ مِنَ النَكالِ فيها بِالظّالِمِينَ لأَنْفُسِهِمْ وَلِغَيْرِهِمْ ما لا يَشُكُّ العاقِلُ المُعْتَبِرُ أَنَّهُ عِقابٌ لَهُمْ على ظُلْمِهِم. وَلَكِنْ لَمْ يَطَّرِدْ ذَلِكَ لِوُجْدانِنا في الدُنيا السَعيدَ العاصِيَ والشَقِيَّ المُطيعَ، وبالعَكْس، كَما قَدِ اعتَرَفَ بِذَلِكَ عُلَماؤُهُمْ وَنَقَلَةُ شَريعَتِهِمْ. وَقَدْ جُرِّبَ حُصولُ ذَلِكَ الوَعْدِ لِلجُمْلَةِ عِنْدَ طاعَتِهِمْ، وَحُصولُ ذَلِكَ الوَعيدِ لَهُمْ عِنْدَ عِصْيانِهِمْ وعُكوفِهِمْ على عِبادَةِ الأَوْثانِ والسَمائِيّاتِ طَلَبًا لِمنافِعِها الدُنْيَوِيَّة.

حاشية ٥٩ أ – مَنْ هُوَ الذي جَرَّبَ ذَلِكَ وَفي أَيِّ زَمانٍ جَرَّبَهُ، وَمَنْ هُوَ الثِقَةُ الذي نَقَلَهُ، وَكَيْفَ تَهَيَّأَ طاعَةُ الجُمْلَةِ أَوْ عِصْيانُها مِنْ غَيْرِ عِصْيانِ بَعْضِ الأَشْخاصِ حالَ طاعَةِ الأَكْثَرِ أَوْ مِنْ غَيْرِ طاعَةِ نَفَرٍ قَليلٍ مِنْهُمْ حالَ عِصْيانِ الأَكْثَر. وَقَدْ عَرَفْتَ امْتِناعَ وُقوعِ ذَلِكَ عَن قَريب. فَإِنْ كابَرَني مُكابِرٌ مِنَ المُتَعَصِّبينَ لِلمُصَنِّفِ وَقالَ: إِنَّهُ أَرادَ بِالطاعَةِ طاعَةَ الأَكْثَر وبِالعِصيانِ عِصْيانَ الأَكْثَرِ، فَجَوابُهُ أَنْ يُقالَ: لَوْ كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ لَزِمَ أَنْ لا يَنْفَكَّ عَنِ

القَوْمِ الوَعْدُ والوَعيدُ مَعًا ، ذاكَ لأَهْلِ الطاعَةِ وهَذا لأَهْلِ المَعْصِيَة. لكِنَّ هَذا مِمّا لا سَبيلَ إلى وُجودِهِ أَصْلاً ورَأْسًا ، كَيْفَ والوَعْدُ يَقْتَضي الخِصْبَ والأَمْنَ والسَلامَةَ ، والوَعيدُ يَقْتَضِي الجَدْبَ والخَوْفَ والعَطَبَ ، وعَلى هذا القِياس. وهذا دَليلٌ قاطِعٌ على فَسادِ التَجْرِبَةِ التي نَقَلَها المُصَنِّفُ هَهُنا ، وفَسادِ عُقولِ الذينَ جَرَّبوها والذينَ نَقَلوها والذينَ صَدَّقوا النَاقِلينَ.

ب – وأَيضًا فَلا نُسَلِّمُ أَنَّ الداعِيَ إلى عِبادَةِ الأَوْثانِ كانَ طَلَبَ المَنافِعِ الدُنْيَوِيَّةِ لأَنَّ المَنافِعَ الدُنْيَوِيَّةَ قَدْ ضَمِنَتِ التوراةُ حُصولَها للطائِعينَ. فَمَنْ يَطْلُبْ هَذِهِ المَنافِعَ تَحْصُلْ لَهُ مِنَ الطاعَةِ ولا يَحْتاجُ إلى عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ تعالى ، لَوْ كانَتْ تَوراتُهُمْ صادِقَةً عِنْدَهُم. وأَقولُ : مِنْ رَأْيي أَنَّ هَؤلاءِ عَبَدَةَ الأَوْثانِ لا بُدَّ وأَنْ يكونوا قَدْ كَفَرُوا باللهِ تعالى أَوَّلاً ثُمَّ عَبَدوها بَعْدَ ذَلِكَ ، أو يكونوا قَدْ عَبَدوها مع عِبادَتِهِمْ للهِ تعالى. فَإِذَنْ هُمْ على التَقديرِ الأَوَّلِ كَفَرَة ، وعلى التقديرِ الثاني مُشْرِكُون[١] ، وعلى التَقْديرَيْنِ هُمْ لِتَوراتِهِمْ مُخالِفون[٢]. ومِنْ هذا يَظْهَرُ نِفاقُ المُصَنِّفِ ومُراءاتُهُ لِلْمُلوكِ الوَثَنِيِّينَ حَيْثُ أَقامَ عُذْرَهُمْ قائلاً : إنَّ الذي كانَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ عَنْ كُفْرٍ باللهِ ولا بِالتَوراةِ.

وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ لِمَنْ نَظَرَ في تَواريخِ مُلوكِهِمْ وأَنْبيائِهِمْ ومَشائِخِ أُمَّتِهِمْ في الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ التي أَوْرَثوها وكانَتِ السَّكينَةُ حالَّةً مَعَهُمْ فيها. وَقَدْ شَبَّهَ بَعْضُهُمْ مِلَّةَ بَني إسْرائيلَ بالمِلَّةِ الحَيَّةِ وسائِرَ المِلَلِ بالمَوات.

١) مشركين.

٢) مخالفين.

حاشية ٦٠ أ – أَمَّا التَواريخُ فَلَيْسَتْ بِحُجَّةٍ على الغَيْرِ. وَأَمَّا الذي أَلْزَمَنا اليَهودُ بِهِ فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا كَلامُ المُشَبِّهِ فَهُوَ كَنَعيقِ الغُرابِ ، لأَنَّهُ لَوْ كانَ مِمّا يُجْزَمُ بِصِدْقِهِ لَكانَ المُصَنِّفُ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ هذا المُشَبِّهِ وَأَسْنَدَ الكَلامَ إلَيْهِ. لكِنَّهُ بِعِلْمِهِ بِأَنَّ المُشَبِّهَ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُزَكَّى كَلامُهُ أَلْغى ذِكْرَ اسْمِهِ.

ب – والخَصْمُ لَهُ أَنْ يَقول : إنَّ مِلَّةَ اليَهودِ كانَتْ أَوَّلاً قَريبَةً مِنَ اللهِ تعالى بِفَضْلِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ غَضِبَ عَلَيها فَأَبْعَدَها بِعَدْلِهِ ، وَكانَتْ سائِرُ المِلَلِ بَعيدَةً مِنْهُ فَأَنْعَمَ عَلَيها وَقَرَّبَها إلَيْهِ. ومِمَّا يَدُلُّ على صِدْقِ هَذِهِ الدَعْوى ما أَسْلَفْنا نَقْلَهُ في بَعْضِ هَذِهِ الحَواشي ، وما هُوذا نُكَرِّرُ نَقْلَهُ لِلتَذْكار.

ج – فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ هُوشَعَ النَبِيِّ عَنْ بَني إسْرائيلَ : سَيَأْتي زَمانٌ يَطْلُبونَ اللهَ فَلا يَجِدُونَهُ ، لأَنَّ اللهَ تَبَرَّأَ مِنْهُم لِغَدْرِهِمْ ، وَأَوْلَدوا أَوْلادَ الخَطيئَةِ والفُجورِ ، ولا يَسْمَعُ اللهُ دُعاءَهُمْ إذا دَعَوْهُ وَلا تَصْعَدُ إلَيْهِ طِلْبَتُهُم ، ويَبْقَوْنَ في الخِزْيِ والهَلاكِ إلى أَبَدِ الآبِدين. وَقالَ أَيْضًا : لأَنَّ لَعْنَةَ اللهِ حَلَّتْ فِيهِم واللهُ كَرِهَهُمْ ومِنْ بَيْتِهِ أَخْرَجَهُمْ ولا يَعودُ يَرْحَمُهُم أَبَدًا ولا يَغْفِرُ لَهُم.

د – وقالَ أَشَعْيا : وَبنو إسْرائيلَ الذينَ اخْتاروا الأَصْنامَ عَلَيَّ وعَمِلوا الخُبْثَ بَيْنَ يَدَيَّ ، أُعَجِّلُ خِزْيَهُم وَأُكافِئُ الشَعْبَ الرَديَّ بِسوءِ عَمَلِهِ الفاحِشِ وَتَجيءُ الشُعوبُ كُلُّها وتَقومُ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَيَنْظُرون[١] إلى الشَعْبِ الخَبيثِ بَني إسْرائيلَ ، لا يَبْلى خِزْيُهُم ولا يَنْقَطِعُ إلى الدَهْر. وقالَ أَيضًا : يَقولُ الشُعوبُ هَلُموا نَنْطَلِقْ إلى طَريقِ الرَّبِّ لأَنَّ بني إسْرائيلَ تَرَكوا طَريقَ اللهِ تَعالى وَصاروا مَطْرودينَ. تَعالَوا نَسْلُكْ طَريقَ الرَّبِّ ونُؤْمِنْ بِهِ ، إلَهُنا الإلَهُ الحَقُّ.

١) وينظروا.

هـ – هَذِهِ لُمْعَةٌ مِنْ كَلامِ الأَنْبياءِ وَفيها كِفايَةٌ في الدَّلالَةِ على كَذِبِ هَذا المُشَبِّهِ الذي ذَكَرَهُ المُصَنِّف.

فإذا أرادوا أن يَتَشَبَّهوا بِتِلْكَ المِلَّة ، لم يَقْدِروا على أَكْثَرَ مِنَ التَّشبيهِ الظاهِر ، فإنَّهُم أقاموا بُيوتا لله فَلَمْ يَظْهَر فِيها أَثَر .

حاشية ٦١ أ – مَنْ هُوَ الذي يَرضى لِنَفْسِهِ التَّشَبُّهَ بِهَذِهِ المِلَّة . وَهَلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمانِنا يُقالُ لَه على سَبيلِ الجِدِّ أو الهَزْل : «يا يَهوديّ !» إلّا وَيَغْضَبُ على هذا القائِلِ غَضَبًا يُوقِعُ بِهِ القَتْلَ لَوْ أَمْكَنَهُ ذَلِكَ . وَأَمّا إقامَةُ بُيوتِ العباداتِ فَما كانَ القَصْدُ مِن إقامَتِها التَّشَبُّهَ بِمِلَّةِ اليَهُودِ ولا يَرْضى أَحَدٌ مِنَ الذينَ أَقامُوها لِنَفْسِهِ ذَلِكَ . وَأَيْضًا فإنَّ كَلامَ هذا المُشَبِّهِ يَنْقَلِبُ على مِلَّتِهِ لأَنَّهُ ما ظَهَرَ عن شَيْءٍ مِنْ كَنائِسِ اليَهودِ آثارٌ[1] وَإلَّا لَكانَتْ قَدِ اشْتَهَرَتْ.

ب – وَأَمّا البُيوتُ التي أَقامَها غَيْرُ اليَهودِ فَقَدِ اشْتَهَرَ مِنَ الآثارِ عَنْها ما لا يُطيقُ المُعانِدُ إنْكارَهُ ولا يَسَعُهُ جَحْدَهُ . وَأنا أَقْتَصِرُ هُنا على ذِكْرِ بَيْتٍ واحِدٍ منها لِيَكونَ أُنْموذَجًا لِدَعْوايَ ، فَأَقولُ :

ج – إنَّ الدَّيْرَ الذي بالقُرْبِ مِنْ مَدينَةِ تِفليس في قَرْيَةٍ اسمُها كارْبي ، أَيُّ شَخْصٍ زارَهُ اسْتَفادَ مِنَ الأَثَرِ الذي يَظْهَرُ لله في ذَلِكَ الدَّيْرِ ، ما لا يَزالُ يَصْدُرُ عَنْ ذَلِكَ الزائِرِ ما دامَ حَيًّا وَحَيْثُ كانَ مِنَ البِلادِ ، وَهُوَ نَجاةُ مَعْضوضِ الكَلْبِ الكَلِبِ من الخَوْفِ من الماء.

د – وَقَدْ ذَكَرَهُ وَذَكَرَ مُعْجِزَتَهُ مُهَذَّبُ الدينِ الطَّبيبُ المَعْروفُ بِابْنِ الهُبَلِ وَهْوَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ لا يُتَّهَمُ بِالتَّعَصُّبِ لِلنَّصارى . فَإنَّهُ قالَ في المُجَلَّدِ

١) آثارًا.

الرابِعِ مِنْ كِتابِهِ المَوْسُومِ بالمُخْتارِ ، في أَثْناءِ الفَصْلِ الذي ذَكَرَ فيهِ عِلاجَ من عَضَّهُ الكَلْبُ الكَلِبُ ما حِكايَتُهُ :

هـ – وَمِنْ أَعْجَبِ العَجائِبِ كَنيسةُ كارْبي التي من زارَها وَدَخَلَ المَعْضوضُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ لَمْ يَفْزَعْ مِنَ الماء.

و – وَهَذا دَليلٌ قاطِعٌ مُسْتَمِرُّ الأَثَرِ كافٍ في الحُكْمِ بأَنَّهُ ظَهَرَ لله تَعالَى مِنَ الآثارِ النافِعَةِ العَجيبَةِ في بَيْتٍ مِنَ البُيوتِ التي أَقامَها غَيْرُ اليَهودِ ، ما بَلَغَ مِنْ شِدَّتِهِ مَبْلَغًا صارَ يَصْدُرُ عَن زائِرِ ذَلِكَ البَيْتِ أَيْضًا . وَمَنْ شَكَّ في هَذا الخَبَرِ فَعَلَيْهِ بِزِيارَةِ المَكانِ المَذْكورِ حتى يَصيرَ عِنْدَهُ الخَبَرُ عِيانًا ، وَيَتَيَقَّنَ كَذِبَ المُشَبِّهِ القائِلِ : أَقاموا بُيوتًا فَلَمْ يَظْهَرْ لله فيها أَثَر.

فَزَهِدُوا وَتَنَسَّكُوا لِيَظْهَرَ عليهِمِ الوَحْيُ ، فَلَمْ يَظْهَر.

حاشية ٦٢ أ – إنَّ الذي تَزَهَّدَ وَتَنَسَّكَ ما كانَ غَرَضُهُ الوَحْيَ . وَيَدُلُّ على ذَلِكَ عُمُومُ الاعْتِرافِ به . وَمَعَ ذَلِكَ فَإنَّ اليَهودَ لا يُمْكِنُهُمْ إقامةُ الدَّليلِ القاطِعِ على أَنَّ الزُّهْدَ يوجِبُ ظُهورًا لِوَحْيٍ على الزاهِدِ . وَذَلِكَ لأَنَّ الوَحْيَ ظَهَرَ على مَنْ لَيْسَ يَدْري الزُّهْدَ أَبَدًا ولا تَزَهَّدَ أَصْلاً مِثْلِ شَمُوئيلَ النَّبيِّ عَلَيهِ السَّلام . فَإنَّهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ الوَحْيُ في سِنِّ الصِبا[1] !

ب – فَإنْ كابَرَني مِنَ اليَهودِ مُكابِرٌ وَادَّعى أَنَّ الزُّهْدَ هُوَ مِنْ شُروطِ ظُهورِ الوَحْيِ ، فَجَوابُهُ أَنْ يُقالَ لَه : فَما بالُكُمْ إذَنْ لا تَزْهَدونَ الآنَ وَتَسْتَعيدونَ الوَحْيَ لَوْ كُنْتُمْ صادِقينَ . فَإنِ اعْتَذَرَ بِكَوْنِهِمْ في غَيْرِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ فَجَوابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُما أَنْ يُقالَ لَهُ : إنَّ الوَحْيَ انْقَطَعَ عَنْكُمْ مُدَّةً

١) الصبى.

مَديدةً وَأَنْتُمْ طُولَ تِلْكَ المُدَّةِ في الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، فهلاّ تَزَهَّدْتُم فيها واستَعدْتُمُوهُ؟ وَالوَجْهُ الآخَرُ أَنَّ الوَحْيَ ظَهَرَ في غَيْرِ تِلْكَ الأَرْضِ، فَتارَةً على موسى عَلَيْهِ السَلامُ قَبْلَ دُخولِ بَني إِسْرائيلَ إلى الأَرْضِ المُقَدَّسَة، وتارَةً على دانيالَ عَلَيْهِ السَلامُ بَعْدَ خُروجِهِمْ منها، فَظَهَرَ فَسادُ الاعْتِذارِ وَبَطَلَتْ مُكابَرَةُ المُكابِرِ.

فَسَقُوا وعَصَوا وَطغَوا، فَلَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ عِقابٌ مِنَ اللهِ.

حاشية ٦٣ مِنْ جُمْلَةِ ما يَدُلُّ على كَذِبِ هذا المُشَبِّهِ ما نَزَلَ بِسدومَ وعامورا ونِينَوى. وهكذا قَوْلُ التَوْراةِ القائِلَة: إِعْلَمْ أَنَّهُ بِخَطيئَةِ هؤُلاءِ الشُعوبِ يُهْلِكُهُمُ اللهُ مِن قُدَّامِكَ

لِيَتَحَقَّقَ أَنَّهُ على ذَلِكَ العِصْيانِ أُصيبَ قَلْبُهُمْ، أَعْني البَيْتَ الذي يَسْتَقْبِلُونَهُ في صَلاتِهِمْ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ حالُهُمْ بِحَسَبِ كَثْرَتِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، وَقُوَّتِهِمْ وَضُعْفِهِمْ، واخْتِلافِهِمْ وائْتِلافِهِمْ، عَنْ طَريقِ الطَبيعَةِ والاتِّفاق. والمِلَّةُ الإِسْرائيلِيَّةُ، مَتى أُصيبَ قَلْبُها الذي هُوَ البَيْتُ المُقَدَّسُ، انْكَسَروا. وإذا انْجَبَرَ انْجَبَروا. كانوا في كَثْرَةٍ أو في قِلَّةٍ، وعَلى أَيِّ حالٍ اتَّفَقَ.

حاشية ٦٤ أَمّا قَوْلُهُ: مَتى أُصيبَ قَلْبُها الذي هُوَ البَيْتُ المُقَدَّسُ انْكَسَروا. وَمَتى انْجَبَرَ انْجَبَروا، فَهُوَ بِعَكْسِ الواقِعِ لأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَنْكَسِروا أَوَّلاً لَما أُصيبَ البَيْتُ، وَلَوْ لَمْ يَنْجَبِروا أَوَّلاً لَما انْجَبَرَ البَيْتُ. أَلا تَرى أَنَّهُمْ ما بَنَوا البَيْتَ الثانِيَ إِلّا بَعْدَمَا انْجَبَروا لا أَنَّهُم بَنَوْهُ ثُمَّ انْجَبَروا.

ومالِكُهُمْ وماسِكُهُمْ في حالِ تَفَرُّقِهِمْ وَتَشَتُّتِهِمْ هُوَ الإلاهُ الحَيّ،

عَزَّ وجَلَّ. فإنَّهُ لا يُتَوَهَّمُ مِثْلُ هذا التَفَرُّقُ الذي عَرَضَ لَهُمْ على أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ إلا وَتَسْتَحيلُ إلى أُمَّةٍ أُخْرى.

حاشية ٦٥ أ – لَوْلا أَنَّهُمْ قالُوا بأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ في قُلوبِهِمْ وتَظاهَروا في المواطِنِ المَخُوفَةِ بِغَيْرِ اليَهودِيَّة، واسْتَحلّوا إذْ ذاكَ تَحْليلَ المُحَرَّماتِ عَلَيْهِمْ مِثْلَ السَبْتِ وَغَيْرِهِ، واسْتجازوا الارْتِدادَ إلى اليَهودِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ، لَكانَتْ قَدْ فَنِيَتْ مِلَّتُهُمْ عَنْ آخرِها إمّا بالاسْتِحالَةِ إلى مِلَّةٍ أُخْرى وإمّا بِغَيْرِ ذَلِكَ.

ب – وكَفاهُمْ أَنَّهُمْ، مَعْ أَنَّهُمْ اسْتَحَلُّوا المُحَرَّماتِ، خالَفُوا تَوْراتَهُمْ وَتَركوا القِصاصَ المَذْكورَ فيها، فَمَا في أَقْطارِ الأَرْضِ في زَمانِنا هَذا مِنَ اليَهودِ لا يَجِبُ قَتْلُهُ بِحُكْمِ التَوْراةِ إلّا القَليلَ الذينَ ما وَقَعُوا في شِدَّةٍ أَوْجَبَتْ تَظاهُرَهُمْ بِغَيْرِ اليَهودِيَّة، أو إنَّهم ما سافَروا فَمَا دَعَتْهُمْ ضَرورَةُ السَفَرِ إلى حَلِّ السَبْتِ.

ج – وأَمَّا المِلَّةُ النَصْرانِيَّةُ المُتَفَرِّقَةُ بَيْنَ الطَوائِفِ فَمَعْلُومٌ مِنْ حالِها أَنَّها ما اسْتَحالَتْ إلى مِلَّةٍ أُخْرى مَع أَنَّها لا يَجوزُ عِنْدَها، في مَواطِنِ الشَدائِدِ، إبطانُ النَصرانِيَّةِ وإظْهارُ غَيْرِها أَبَدَ الآبدين، وَلَوْ قاسَتْ مَهْمَا قاسَتْ مِنَ الأَهْوالِ. بَلْ وَلا يَجوزُ عِنْدَها الارْتِدادُ إلى النَصْرانِيَّةِ بَعْدَ التَلَفُّظِ بالدُخولِ في غَيْرِها حتَّى وَلَوْ كانَ ذَلِكَ التَلَفُّظُ على سَبيلِ الهَزْلِ دُونَ الجِدِّ.

لا سِيَّمَا مَعَ طُولِ هَذِهِ المُدَّة. وَكَمْ أُمَّةٍ تَلِفَتْ كانَتْ بَعْدَهُمْ وَلَمْ يَبْقَ لها ذِكْر.

حاشية ٦٦ هَذِهِ الدَعْوى، مَعْ أَنَّها مُجَرَّدَةٌ عَنِ الدَّليل، هي ظاهِرَةُ الكَذِبِ، وإلّا فَأَيُّ أُمَّةٍ ظَهَرَتْ بَعْدَ اليَهودِ غَيْرُ النَصارى، ومَنْ هُوَ الثِقَةُ الذي نَقَلَ ذَلِكَ، وفي أَيِّ البُلْدانِ ظَهَرَتْ وَفي أَيِّ زمان؟

هَذَا خُلاصَةُ كَلامِهِمْ في المَوْضُوع.

الاعتراضُ السادس

إنَّ زَرادَشْتَ وكَثيرًا مِمَّنِ ادَّعَى في سائِرِ الأُمَمِ النُّبُوَّةَ قد نُقِلَ عَنْهُمْ مُعْجِزاتٌ كَثيرَةٌ بالنَّقْلِ المُتَواتِرِ عِنْدَهُم، مَعْ أَنَّ اليَهودَ جاحِدونَ لِنُبُوَّتِهِمْ، لا سيَّمَا نُبُوَّةِ عُبَّادِ الأَصْنام. واذا كانَ الأَمْرُ هَكَذا فَيُقالُ لِلْيَهودِ إِنَّه لا يَخْلو إِمَّا أَنْ يَكونَ نَقْلُ هؤلاءِ صَحيحًا أو لا يَكُون. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَمَا يُؤَمِّنُكُمْ أَنْ يَكونَ نَقْلُكُمْ لِمُعْجِزاتِ مُوسى وأُمورِ دِينِكُمْ كَذلك؟ إذ لَيْسَ تَواتُرُكُمْ أَقْوى مِن تَواتُرِهِمْ وَاصَحّ. وإن كانَ نَقْلُهُمْ صَحيحًا لَمْ تَكُنِ المُعْجِزَةُ دَالَّةً على الصِدْق، فَلا تَثْبُتُ لكُمْ نُبُوَّةُ مُوسى ولا غَيْرِهِ مِنْ أَنْبِيائِكُم.

وَجَوابُه

إنَّ الذي يُنْقَلُ مِنَ الخوارِقِ على يَدِ المُتَحَدِّي بها، إنْ لَمْ يُعْلَمْ تَواتُرُهُ فَلا عِبْرَةَ بِهِ، والذي يُحكَى أَنَّهُ أتى بِهِ مَن دَعا إلى عِبادَةِ النِيرانِ والكَواكِبِ والأَصْنام، بَعْضُهُ مِنْ هَذا القَبِيلِ. ولَيْسَ كُلُّ ما اشْتُهَرَ نَقْلُهُ عِنْدَ أُمَّةٍ عَظيمَةٍ، فَهْوَ مُتَواتِر، فَإِنَّ الشُهْرَةَ غَيْرُ التَواتُر، كَما قَدْ تَبَيَّنَ الفَرْقُ بَيْنَهُمَا في كُتُبِ المَنْطِق. وَشُهْرَةُ كَوْنِ الخَبَرِ مُتَواتِرًا غَيْرُ كَوْنِهِ مُتَواتِرًا في نَفْسِ الأَمْر. وَعَدَمُ الفَرْقِ مَزَلَّةُ قَدَمٍ قَدْ يُوجِبُ خَطَأً عَظِيمًا في الاسناداتِ. والذي يُعلَمُ تَواتُرُ نَقْلِهِ، إنْ جَوَّزَ العَقْلُ فيهِ وَجْهَ حِيلَةٍ، فَلا عِبْرَةَ بِهِ أَيْضا. وَبَعْضُ ما أتى بِهِ مَن دَعا إلى ما ذَكَرْنا واتَّبَعَهُ الجَمُّ الغَفيرُ مِنْ هذا القَبيلِ أَيْضًا. وإنْ لَمْ يُجَوِّزِ العَقْلُ وُقُوعَهُ بِحيلَةٍ، فَإِمَّا أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ دَعوى ما يَتَحَقَّقُ امتِناعُهُ على اللهِ تَع أَوْ على غَيْرِهِ، عَقْلاً أَوْ نَقْلاً ثابِتًا مِنْ شَرِيعَةٍ ثابِتَة، أَوْ لا يَقْتَرِنُ بِهِ.

فاقْتِرانُ ذَلِكَ بِهِ إِمَّا غَيْرُ جائِز، لأَنَّهُ إِضْلالٌ لِلْعِباد، وَقَدْ سَبَقَ الكَلامُ فيهِ في المُعْجِزاتِ، أوْ، إنْ جَوَّزْنا ذَلِكَ، فَلَعَلَّ اللهَ تَع مَكَّنَ ذَلِكَ الآتيَ بِهَذا الخارِقِ مِنْ فِعْلِهِ لِعِلْمِهِ بِعَدَمِ انْخِداعِ العُقَلاءِ لَهُ، وإلَّا لَقَدَحُوا في عُقُولِ أَنْفُسِهِمْ أَوْ جَحَدُوا ما رَسَخَ في قُلوبِهِمْ مِنَ الإِيمَانِ بِالشَّرْعِ السابِقِ المُنافي لِتَشْريعِ هَذا الآتي بِهَذِهِ الخارِقَة. فلا يَقَعُ الإِضْلالُ ولا يَتَطَرَّقُ القَدْحُ في مُعْجِزَةِ مَنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِدَعْواه ذَلِكَ. وإنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِالخَوارِقِ المُتَواتِرَةِ التي لا وَجْهَ لِوُقوعِها بِحيلَةٍ ما يَمْتَنِعُ عقْلاً ولا نَقْلاً.

فَمِنَ الناسِ مَنْ لَمْ يُوجِبْ دَلالَتَها عَلى تَصْدِيقِ مُدَّعي النُبُوَّةِ بِها، لِلشُكوكِ السابِقِ ذِكْرُها. ودَعْوى هؤُلاءِ العَجْزُ عَنِ التَقَصِّي عَنْها. وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ وَجْهَ الكَلامِ فيها. وهَذا الفَريقُ مِنَ الناسِ مِنْهُم مَنْ سَدَّ بابَ النُبُوّاتِ مُطْلَقًا، كَمَا يُحْكَى عَنِ البَراهِمَة.

وَمِنْهُمْ مَنْ دانَ باعْتِقادِ النُبُوّةِ لا بِمُجَرّدِ المُعْجِزاتِ بَلْ بِقَرائِنَ تَنْضَمُّ إِلَيها، تُوجِبُ الإِيمَانَ بها. وَبَعْضُ اليَهودِ اقَرُّوا بِنُبُوّةِ مُوسى عَم عَلى هذا الوَجْه، فَإِنهُمُ ادَّعَوا أَنَّ مُعْجِزاتِهِ، وإنْ كانَتْ عَظيمَةً كَثيرَةً، لَم يَكُنْ إِيمَانُ أُمَّةِ بَني إسْرائيلَ بِمُجَرَّدِها، بَلْ بِسِمَاعِهِمِ الخِطابَ مِنَ اللهِ تَع لِمُوسى في جَبَلِ طورِ سِينا.

حاشية ٦٧ هَذا الإِقْرارُ مَرْدودٌ بِكَلامِ التَوْراةِ الدالِّ عَلى أَنَّ كافَّةَ بَني إسْرائيلَ أَقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُوسى قَبْلَ خُروجِهِمْ مِنْ مِصْر، وَلا شَكَّ في تَقَدُّمِ ذَلِكَ الزَمانِ على زَمانِ الخِطابِ في طورِ سِيناء. وَأَنا لا أَدْري كَيْفَ اسْتَجازَ المُصَنِّفُ التَلَوُّنَ في الكَلامِ إلى حَدٍّ يَجْعَلُ الخِطابَ مِنَ اللهِ تَعالى تَارَةً، وتَارَةً أُخْرى يَجْعَلُهُ مِنَ الصُورَةِ المَخْلُوقَةِ لَهُم. وهَذا عَجيبٌ مِنْ مِثْلِهِ وغَيْرُ لائِقٍ بِفَضْلِه.

فعَلِموا نُبُوَّتَهُ بالوُجْدانِ كما يَعلَمُ النَبيُّ نُبُوَّةَ نَفْسِهِ عِلْمًا ضروريًا.

حاشية ٦٨ أ – أمّا [أنَّ] النبيَّ يَعْلَمُ نُبُوَّةَ نَفْسِهِ بالوِجْدانِ فلا شكَّ فيه. وأَمَّا عِلْمُ القَوْمِ المَذْكُورِينَ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يكونَ بالوُجْدانِ لِقَوْلِ المُصَنِّفِ قُبَيْلَ هذا الكَلامِ عَنِ البَعْضِ المَذْكورِ ما حِكايَتُهُ: لَمْ يَكُنْ إيمانُ أُمَّةِ بَني إسْرائيلَ بِمُجَرَّدِها بَلْ وَبِسَماعِهِمِ الخِطابَ. وَهَذا يَدُلُّ على أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ بِسَبَبِ المُعْجِزاتِ مَعَ اقْتِرانِها بالخِطابِ.

ب – وَظاهِرٌ أَنَّ المُعْجِزاتِ شاهَدوها بالحِسِّ الظاهِرِ، والخطابَ سَمِعُوهُ بالحِسِّ الظاهِرِ أَيْضًا. وَهَذا يُوجِبُ أَنْ يكونوا قَدْ عَلِموا نُبُوَّتَهُ بغَيْرِ الوِجْدانِ. لأَنَّ الوُجدانَ لا طَريقَ إِلَيْهِ مِنَ الحِسِّ الظاهِرِ كما هُوَ مَذْكورٌ في كُتُبِ المَنْطِقِ.

ثُمَّ نَقَلوا ذَلِكَ إلى مَنْ بَعْدَهُمْ نَقْلاً مُتَواتِرًا. وَزَعَمُوا أَنْ بِذَلِكَ حَصَلَ لَهُمُ الإيمانُ التامُّ، لا بِطَريقِ الاسْتِدْلالِ بِما ظَهَرَ مِنَ المُعْجِزات. فَإنَّ مُعْجِزاتِ مُوسى، وإنْ كانَتْ مِمَّا لا يَسَعُ عاقِلاً[1] تَجْويزُ الحيلَةِ فيها، كانْشِقاقِ البَحْرِ، وانْقِلابِ مائِهِ دَمًا، وإهْلاكِ كُلِّ بِكْرٍ في بَلَدِ مِصْرَ مِنَ الناسِ والحَيوانِ، إلّا ما كانَ مُخْتَصًّا بِبَني إسْرائيلَ، والتَظْليلِ بالغَمامِ، وإنْزالِ المَنِّ مُدَّةَ أَرْبَعينَ سَنَةً على أُمَّةٍ عَظيمٍ عَدَدُها، وأمثالِ ذَلِكَ مِنْ مُعْجِزاتِهِ عم، لا تُفيدُ إلّا الظَنَّ الغالِبَ عِنْدَهُم. وهَذا الخِطابُ للأُمَّةِ فَأَمْرٌ لَمْ يَحْصَلْ، فِيما بَلَغَنا، في غَيْرِ هَذِهِ النُبُوَّة.

وَمِنَ الناسِ مَنْ أَوْجَبَ تَصْديقَ اللهِ تع للمُتَحَدّي بالمُعْجِزاتِ التي

١) عاقل

بالصِفَةِ المَذْكُورَةِ. وإليهِ ذَهَبَ أَكْثَرُ الناسِ. وَأَهْلُ هذا الرَأْيِ مِنَ اليَهودِ لا يُسَلِّمُونَ تَواتُرَ مُعْجِزاتٍ مُسْتَجْمِعَةٍ لِلشَرائِطِ المُوجِبَةِ للتَصْديقِ لِغَيْرِ مُوسى وَغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِياءِ التابِعينَ لَهُ الذينَ يَعْتَرِفُونَ بِنُبُوَّتِهِمْ، وَمَنَعُوا قَوْلَ المُخالِفِ إنَّ تَواتُرَكُمْ لَيْسَ أَصَحَّ مِن تَواتُرِهِمْ. وَقَدْ عَرَفْتَ ما قِيلَ في تَواتُرِ اليَهود.

حاشية ٦٩ المَنْعُ مِنْ غَيْرِ مُسْتَنَدٍ هُوَ مِنَ التَحَكُّماتِ والدَعاوي المُجَرَّدات. وبِماذا تُراهُمْ يُجيبونَ لَوْ مُنِعَ مَنْعُهُمْ أَيْضًا بِغَيْرِ دَليلٍ ولا مُسْتَنَد، هَلْ يَلْتَزِمُونَ مَنْعَهُ أَمْ لا؟ فَإنِ التَزَمُوهُ ثَبَتَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ وَإنْ لَمْ يَلْتَزِمُوهُ فَوَلا المُخالِفُ يَلْتَزِمُ مَنْعَهُمْ.

الاعتراضُ السابع

لا نُسَلِّمُ امْتِناعَ نَسْخِ شَرْعِ اليَهود، بَلْ هُوَ واقِعٌ ولازِمٌ لَهُم. وإذا كانَ واقِعًا، وَقَدْ نَطَقَتِ التوراةُ في عِدَّةِ مَواضِعَ بِأَنَّهُ لا يَقَع، فهَذا يَقْدَحُ في صِحَّتِها، على رَأْيِهِم. أَمَّا بَيانُ أَنَّهُ واقِعٌ فَلِوُجوهٍ خَمْسَة:

أَحَدُها أَنَّ مِنْ أَحْكامِ التوراةِ أَنَّ مَنْ يَحْضُرُ مَيْتًا عِنْدَ مَوْتِهِ أَوْ مَسَّ عَظْمًا مِنْهُ أَو وَطِئَ قَبْرًا فَإنَّهُ يَتَنَجَّسُ وَلا يَتَطَهَّرُ إلّا بِرَمادِ البَقَرَةِ التي كانَ الإمامُ الهاروني يُحْرِقُها. فإنِ اسْتَغْنَى اليَهودُ الآنَ في الطَهارَةِ عَنْ ذَلِكَ الرَمادِ مَعَ عَجْزِهِمْ عَنْهُ فَقَدْ اقَرُّوا بالنَسْخِ لحالٍ اقْتَضاها هَذا الزَمانُ وإنْ لَمْ يَسْتَغْنُوا عَنْ ذَلِكَ كانوا أَنْجاسًا وَهْوَ بِخِلافِ مُعْتَقَدِهِمْ لأَنَّهُمْ يُصَلُّونَ وَيَحْمِلُونَ المَصاحِفَ وَيَعْتَزِلُونَ الحائِضَ حَتَّى لا يَتَنَجَّسُوا بِها.

وثانِيها أَنَّ اليَهودَ يَدَّعُونَ أَنَّ جَميعَ ما في كُتُبِ فِقْهِهِمْ نَقَلَهُ الفُقَهاءُ

عَنِ الثِقاتِ عَنْ مُوسى عَم . فاخْتِلافُهُمْ في المسائِلِ الفِقْهِيَّةِ إمَّا أَنْ يكونَ لأَجْلِ الطَعْنِ في النَقَلَةِ ، وَهْوَ خلافُ مَذْهَبِهِمْ ، أو لأَنَّ أَحَدَ النَقْلَيْنِ نَسَخَ الآخَرَ وَهْوَ المطْلوب .

وثالثُها أَنَّ في صَلواتِهِمْ فُصولاً تَتَضَمَّنُ أَدْعِيَةً تَدُلُّ عَلى أَنَّهُمْ لَفَقوها بَعْدَ زَوالِ الدَوْلَةِ عَنْهُم . وَلَهُمْ أَصْوامٌ تَدُلُّ على ذَلِكَ أَيضًا ، مِثْلُ صَوْمِ إِحْراقِ البَيْتِ المُقَدَّس ، وصَوْمِ حِصاره ، وصَوم كَدْليا ، وصَوْمِ صَلْبِ هامان . وَكُلُّ هَذِهِ الأَشْياء جعَلوها فَرْضًا عَلَيْهِمْ ، مَعْ أَنَّهُمْ قد نُهوا في التَوْراةِ عَنِ الزِيادَةِ عَلى ما فيها مِنَ الفَرائض . وهَذا نَسْخٌ لهذا النَهْي .

ورابِعُها أَنَّ عِنْدَهُمْ في التَوْراةِ أَنَّهُ لا يَجوزُ لِلْمَلِكِ الذي يُمَلِّكُهُ الإسْرائيلِيُّونَ عَلَيْهِم أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنَ النِسْوانِ ، لِئَلَّا يَطْغى ، ولا مِنَ الذَهَبِ والفِضَّةِ جدًّا . مَعَ أَنَّ داوودَ عَم اسْتَكْثَرَ مِنَ النِسْوانِ ، وَوَلَدَهُ سُلَيْمانَ اسْتَكْثَرَ مِنْهُنَّ أَيْضا ، وَمِنَ الذَهَبِ والفِضَّةِ اسْتِكْثارًا عَظيمًا . وَهَذا يَدُلُّ على النَسْخ . وفي كُتُبِ الأَنْبياء عِدَّةُ مَواضِعَ تَدُلُّ عَلى مُخالَفَةِ المَشْروعِ في التَوْراة ، لا حاجَةَ إلى اسْتِقْصائِها .

وخامِسُها أَنَّ التَوْراةَ تَنْطِقُ بإيجابِ الخِتانِ في اليَوْمِ الثامِنِ مِنَ الوِلادَةِ وبِتَحْريمِ الصَنائِعِ العَمَلِيَّةِ في يَوْمِ السَبْت . وَأَحَدُ الفَرْضَيْنِ يَنْسَخُ الآخَرَ إذا اتَّفَقَ ثامِنُ الوِلادَةِ هُو السَبْت . وفيها غَيْرُ ذَلِكَ دالٌّ على النَسْخِ يَعْرِفُهُ مَنْ يُمْعِنُ في تَأَمُّلِها .

وَجوابُهُ

إنَّ اللَفْظَةَ التي يُعَبَّرُ بها في اللُّغَةِ العِبْرانِيَّةِ عَنِ النَجاسَةِ تُسْتَعْمَلُ لِثَلاثَةِ مَعانٍ . فَتُقالُ على العِصْيانِ وخلافِ المَأْمورِ بِهِ مِنْ فِعْلٍ أَو رَأْيٍ ،

وتُقالُ عَلى القَذاراتِ كالغائِطِ والبَوْلِ ، وتُقالُ عَلى المعاني المُتَوَهَّمَة ، أَعْني لَمْسَ كَذا أَوْ حَمْلَ كَذا او مُساقفةَ كَذا . ومُلامِسُ المَيْتِ إنَّما تُطْلَقُ عَلَيْهِ هَذِهِ اللَفْظَةُ بِهَذا المَعْنى الثالث .

حاشية ٧٠ أ – قَدْ ظَهَرَ مِنْ بَعْضِ الحَواشي السالِفَةِ شِدَّةُ حِرْصِ المُصَنِّفِ على التَعَصُّبِ لِلْيَهودِ بالتَمْويهاتِ والمُغالَطات ، فَلا يُؤْمَنُ أَنْ يَكونَ قَوْلُهُ هَهُنا في معاني لَفْظَةِ النَجاسَةِ مِنْ هذا الباب ، لا سِيَّما وَهْوَ يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ جَميعَ المُخالِفينَ لِلْيَهُودِ مِنَ المُسْلِمينَ والنَصارَى ، لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ بِاللُّغَةِ العِبْرانِيَّةِ لا قَليلٌ ولا كَثيرٌ .

ب – حَتَّى وَلَوْ سَلَّمْنا أَنَّها تُطْلَقُ على هَذِهِ المَعاني ، فَما الذي يُؤَمِّنُنا أَنَّ قَوْلَهُ بِأَنَّها تُطْلَقُ بالمَعْنى الثالِثِ هُوَ مِنْ بابِ المُغالَطَةِ والذَّبِّ عَنِ اليَهودِ؟ سَلَّمْنا كُلَّ ذَلِكَ ، لَكِنَّا نَقولُ بَعْدَ التَسْليمِ : إنَّ حُجَّةَ المُعْتَرِضِ باقِيَةٌ على حالِها . أَلا تَرى أَنَّ حُضورَ المَيْتِ لا بُدَّ مِنْهُ ومِنَ التَنَجُّسِ بِهِ . فَإنِ اسْتَغْنى هَذا المُتَنَجِّسُ عَنْ رَمادِ البَقَرَةِ ثَبَتَ النَسْخ . وإنِ افْتَقَرَ إلَيْهِ لَزِمَتْهُ النَجاسَةُ ما دامَ حَيًّا ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكونَ في اليهودِ مِنَ الأَنْجاسِ ما لا يُحصى عَدَدُهُمْ ، وَهَذا مِمَّا لا يَعْتَرِفونَ بِهِ . وَتَمويهُ المُصَنِّفِ هَهُنا لا يَكْفي في رَدِّ الاعْتِراضِ ، وَذَلِكَ مَعْلومٌ للعُلَماء .

وَحُكْمُهُ أَن لا يُداني شَيْئًا مِنْ أُمورِ القُدْسِ الّا بَعْدَ التَطْهيرِ بِرَمادِ البَقَرَةِ المَذْكُورَةِ على وَجْهِ التَعَبُّد .

حاشية ٧١ لَوْ كانَ كَلامُ المُصَنِّفِ هَهُنا صَحيحًا لَكانَ حُكْمُ التَوْراةِ في هَذِهِ المَسْأَلَةِ مُخْتَصًّا بالهارُونِيينَ دُونَ غَيْرِهِمْ لأَنَّهُمْ هُمُ الذينَ يُدانونَ أُمورَ القُدْس . ومَعْلومٌ أَنَّهُ لَيْس كَذَلِكَ بِدَليلِ قَوْلِهِ : مَنْ حَضَرَ مَيْتًا عِنْدَ مَوْتِهِ أَوْ

مَسَّ عِظامَهُ أَوْ وَطِئَ قَبْرًا ، يَتَنَجَّسُ . وَهَذا الحُكْمُ يَعُمُّ جَميعَ اليَهودِ ، فَبَطَلَ جَوابُ المُصَنِّف.

ولا يُمْنَعُ مِنَ الصَلاةِ وحَمْلِ المُصْحَفِ قَبْلَ التَطْهير

حاشية ٧٢ هَذا الكَلامُ دَعْوى مِنْ غَيْرِ دَليلٍ فَلا يَلْتَزِمُهُ الخَصْمُ إِلّا إِذا شَهِدَتِ التَوْراةُ بِهِ دُونَ كُتُبِ فِقْهِ اليَهودِ التي قَدْ أُشْحِنَتْ بالتَحَكُّماتِ.

بِذَلِكَ ، بِخِلافِ المُتَنَجِّسِ بالنجاسةِ التي بِمَعْنى مُباشَرةِ المُسْتَقْذَرات. فَإِنَّ المُتَنَجِّسَ بِها مَمْنوعٌ مِن الصَلاةِ ومِنْ حَمْلِ المَصاحِفِ ويَكْفي في التَطَهُّرِ مِنْها الماءُ فَقَط.

حاشية ٧٣ وَهَذا الكَلامُ أَيْضًا تَحَكُّمٌ وَدَعْوى مِنْ غَيْرِ دَليل. ولِلْخَصْمِ أَنْ يَقولَ عَلَيْهِ إِنَّهُ لَو أَغْنى التَطهيرُ بالماءِ عَنْ رَمادِ البَقَرةِ في هَذِهِ المَواطِنِ لكانَ عَمَلُ رَمادِ البَقَرةِ عَبَثًا لا حاجَةَ إِلَيْهِ باعتِرافِ المُصَنِّفِ ، إِلّا لِلْهارُونِيّين. لَكِنَّ سِياقَ الكَلامِ يَدُلُّ على عُمُومِ الحاجَةِ إِلَيْهِ ، فَثَبَتَ كَلامُ المُعْتَرِضِ وَلَزِمَ النَسْخ.

فَمَنْشأُ هَذا التَشْكيكِ الجَهْلُ باخْتِلافِ مَعاني اللَفْظَةِ المَدْلولِ بها على النَجاسَةِ في لُغَةِ العِبْرانِيّين.

وأَمّا مَسائِلُ فِقْهِهِمْ فَلَيْسَتْ كُلُّها مَأْخُوذَةً مِنَ النَقْلِ ، بَلْ مِنْها ما هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ النَصِّ ، ومِنْها ما هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ النَقْلِ ، ومِنْها ما عُرِفَ بِطَريقِ النَظَرِ والقِياسِ ، ومُقَدِّماتُهُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ النَصِّ والنَقْل. والخِلافُ غَيْرُ واقِعٍ في النَقْلِ الصَحيحِ وَلَكِنَّهُ يَقَعُ فِيما كانَ على وَجْهِ النَظَرِ والاجْتِهاد. وَدَعْوى أَنَّ نَقْلَهُم كُلَّهُ مَأْخُوذٌ عَنِ الثِقاتِ فَهْوَ ما لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُم ، فَضْلاً عَنْ جَميعِهِم.

حاشية ٧٤ إِنَّ المُصَنِّفَ قَد اسْتَكْثَرَ في هَذا الكِتابِ مِنَ التَحَكُّماتِ التي لا يَلْتَزِمُها الخَصْم ، والاعْتِذاراتِ البارِدَةِ التي لا يَقْبَلُها عَقْلُ العاقِل. ويَكْفي في الرَّدِّ عَلَيْهِ المُطالَبَةُ بالدَليلِ القاطِعِ على دَعاويه.

وأَمّا مُتابَعَتُهُم لأَئِمَّتِهِمْ وحُكّامِهِمْ فيما أَوْجَبُوهُ عَلَيهِم ، مَعَ أَنَّ التَوْراةَ قَد نُهِيَ فيها عَنِ الزِيادَةِ عَلَيها والنُقْصانِ مِنها ، فاعْلَمْ أَنَّ التَوْراةَ قَدْ أَمَرَتْ بِطاعَةِ الأَنْبِياءِ المُتَّبِعينَ لِشَريعَةِ مُوسى . وقالَ عُلَماءُ اليَهودِ إِنَّهُ يَمْتَنِعُ في حَقِّهِمْ أَنْ يَأْمُروا بِما يُبْطِلُ حُكْمًا مِنْ أَحْكامِ التَوراةِ على وَجْهِ التَشريعِ المُؤَبَّد ، وإلّا لَمْ يَكونوا مِنْ مُتَّبِعِي تِلْكَ الشَريعَةِ ، بَلْ قَدْ يَأْمُرونَ بِذلِكَ على مُقْتَضى مَصْلَحَةٍ أَوْجَبَتْها تِلْكَ الحالُ ، على شَريطَةِ أَنْ لا يَسْتَمِرَّ ذَلِكَ الإِبْطالُ ، كما قَرَّبَ إِلِيّا النَبِيُّ في غَيْرِ المَوْضِعِ المَنْهِيِّ عَنِ التَقْريبِ فيما سِواهُ ، وَلا يَجوزُ اسْتِمرارُ ذَلِكَ.

حاشية ٧٥ أ – سِياقُ كَلامِ أَوامِرِ التَوْراةِ ونَواهِيها يَدُلُّ على أَنَّ الذي يُبْطِلُ أَيَّ شَيءٍ كانَ مِنها أَوْ يَأْمُرُ بِإِبْطالِه ، وَهْوَ لا يَتَّهِمُ نَفْسَهُ إِذ ذاكَ بِأَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ[1] ، فَهْوَ غَيْرُ مُتَّبِعٍ لِتِلْكَ الشَريعَةِ ، سَواءٌ كانَ ذَلِكَ على وَجْهِ التَشْريعِ المُؤَبَّدِ أَوْ لَمْ يَكُنْ ، لأَنَّ التَوْراةَ لا تُجيزُ ذَلِكَ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ وَلا في حالٍ مِن الأَحْوالِ ، وإلّا لجازَ الأَمْرُ بحَلِّ السَبْتِ مَرَّةً واحِدَةً لِمَصْلَحَةٍ مِنَ المَصالِح. وَلَوْ جازَ ذَلِكَ لكانَ نَسْخًا لِلتَوْراةِ التي قَدْ كَرَّرَتِ الأَمْرَ بالسَبْتِ وَأَوْجَبَتْ قَتْلَ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً في السَبْت.

ب – وَأَيْضًا فَلِقائِلٍ أَنْ يَقول : إِنَّ هَؤُلاءِ العُلَماءَ المَذْكُورينَ يَلْزَمُهُمْ على قَوْلِهِم هَذا أَنْ يَكونوا غَيْرَ مُتَّبِعينَ لِشَريعَةِ مُوسى ، لأَنَّهُم أَبْطَلوا حُكْمًا

١) أخطى.

النَصْرانِيَّة، لكنّي أَلتزِمُ رِضى النَصْرانِيَّةِ مُطْلَقًا لا غَيْرَ، وباللهِ التَوفيق.

فهلاّ جَعلتُم صفةَ القدرة أقنوما رابعا؟ وكذا سائرَ ما يوصفُ به اللهُ تَع أقانيم؟

۹۲ (٥) ليس الجَعْلُ ولا تركُه إلينا، لكنّا تَقلّدْناهُ تَقليدًا، حتى إنّا لو لم نَتقلّدْه، لكنّه كانَ مجعولاً منّا، لكانَ لنا أن نقولَ في الجواب: إنَّ السببَ الذي أَوْجَبَ الذي أَثْبتناه، ومَنَعَ الذي نَفيناه، هو استِغناءُ المثبوتِ عن الغَيْر، وافْتِقارُ المَنفيِّ إلى الغير. وكيفَ يجوزُ لعاقِلٍ أن يُساويَ بين صِفاتِ اللهِ الذاتيةِ الغَنيَّةِ عن التعلُّقِ بِغَيْرِهِ، وهي الصفاتُ التي تصدُق عليه تعالى أزلاً وأبدا، سواءٌ وُجِدَتِ المَخْلوقاتُ أم لا، وسواءٌ عَدِمَتْ بعد وُجودِها أم لا، وبَيْنَ الصِفاتِ الفِعْلِيَّةِ الفقيرةِ إلى التَعَلُّقِ بشيءٍ من المخلوقات. ألا تَرى أَنَّ قَوْلَنا: «اللهُ حَيٌّ!» يصدُقُ أَزلا وأَبَدًا، من غيرِ إضافَةٍ إلى شيءٍ من المخلوقاتِ، ولا كَذَلِكَ: «اللهُ قادِر» لافتِقارِ صفَةِ القُدْرةِ إلى وجودِ المَقْدُورِ عليه، وقِسْ على ذَلِكَ غيرَه.

فان قالوا – قدرتُه هي علمُه –، قلنا – وحياتُه ايضا هي علمُه، فلِمَ أفردتموها أقنومًا؟

فأما الاتحادُ فهو غيرُ معقول، لان الشيئين، إذا اتَّحدا، فإمّا أَن يكونا موجودَين أو مَعْدومَين او أَحدُهما موجودًا والآخرُ مَعدوما. فان كانا موجودَين فَلَمْ يتّحِدا لأنهما اثنان، لا واحدٌ. وان كانا معدومَين فلا يصيران واحدًا، بل عُدِما. وحدثَ ثالث، وإن عُدِمَ أَحدُهما وبقي الآخر، فظاهِرٌ أن ذلك ليس باتحاد.

حاشية ۹۳ (٦) إذا نَحنُ سلّمنا صِحَّةَ هَذا الكلامِ مسامَحَةً لِمَن يَعتقِدُ صِحّتَه، فلا يضرُّنا، لأنّا نقول: إنّ هذا إنّما يَمنَعُ الاتحادَ الذي يكونُ من جَميعِ الوُجوه، دونَ ما سواه. والحقُّ أنَّ هذا الكلامَ، مع أنه مذكورٌ في كُتُبٍ كثيرة، فهو غيرُ صَحيح، والذي تَنبَّهَ لِفسادِهِ هو الإمامُ العلاَّمَةُ شمسُ الدينِ السَمَرْقَنْديُّ بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعَهُ، وقد ذَكَرَ وَجْهَ فسادِهِ في كتابِه الموسومِ بشرحِ الصحائفِ الإلهيّة.

فان فُسِّرَ الاتحادُ بمعنى المازجَة والمخالَطة والتركيب،

حاشية ۹٤ (٧) ليسَ ذلك مِمَّا يجوزُ في دينِ النصارى؛ فجميعُ ما يَلْزَمُهُ أو يُبنى عليه مردُود.

فان كان الآبُ والابنُ ذاتينِ غَيْرَين بحيث يَتَّحِد الابنُ وحدَه بالمسيحِ دون الآب بالمعنى المذكور، فهو يخالِفُ اعتقادَ التوحيد. وان كان الابنُ صِفة، فلا يُعْقَلُ في الذاتِ العالِمَة أن تصير[1] – كونُها عالِمَةً – مُمازِجَةً لجسمٍ من الأَجسام دون الذات. كما لا يُعْقَلُ أن يكونَ زَيْدٌ بِبَغْدادَ وكونُه عالِمًا بخراسان. ثم عِلْمُ كُلِّ شيءٍ هو قائِمٌ به فيَلْزَمُ أن يكونَ عِلمُ اللهِ تَع موجودًا فيه وفي المسيح دَفْعَةً واحِدة، فللصِفَةِ الوَاحِدَةِ في الحالةِ الواحِدَةِ مَوْصُوفان، وهو مُحال. فإن لم يكنْ تَع عالِمًا حالَ الاتحادِ كان كونُه عالِمًا حُكْمًا جائزًا فيفتقِرُ إلى مُخَصِّصٍ يُخَصِّصُهُ، وذلك يُخْرِجُهُ عن الإلاهية.

والقولُ بالامتزاج باطِلٌ لأنّه لا يُعْقَلُ إلا في الأَجسام، والكَلِمَةُ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ بِجِسم. فان قالوا – المازِجَةُ بالتَركيبِ الارتباطي كالإنسان

---

١) يصير (P)

والفضَّةِ مُطْلَقًا أَعَمُّ مِنَ النَّهي عَنِ الاسْتِكْثارِ مِنْهُ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ مِنْ مَصالِحِ الأُمَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. والنَّهْيُ عَنِ العامِّ يَسْتَلْزِمُ النَّهْيَ عَنِ الخاصِّ لانْتِفاءِ الخاصِّ بانْتِفاءِ العامِّ دُونَ العَكْسِ، والمُصَنِّفُ خَبيرٌ بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُ يَتَغافَلُ عَنِ الحَقِّ وَيَتَفَوَّهُ بِغَيْرِ الصِدْقِ تَقَرُّبًا إلى قُلوبِ أَهْلِ مِلَّتِهِ، وَمَيْلاً مَعَ هَوَى أَنْفُسِهِمْ.

وَكَوْنُهُ اسْتَكْثَرَ مِنَ النِسْوانِ فَفي نَصِّ سِفْرِهِ أَنَّه أَخْطَأَ بِسَبَبِ تَجاوُزِهِ عَلى هَذِهِ الفَريضَة. ومَنْ وَقَفَ على ما قُلْنا لا يَخْفى عليه حَلُّ الإشْكالِ في ما جاءَ مِنْ أَمْثالِ ذَلِكَ في كُتُبِ سائِرِ الأَنْبياء.

وأَمَّا فَريضَةُ الخِتانِ والسَّبْتِ فالخِتانُ إيجابُهُ أَسْبَقُ مِن إيجابِ السَّبْتِ فَعُلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ حَيْثُ حُرِّمَتِ الأَعْمالُ الصِناعِيَّةُ في السَّبْتِ كانَ الخِتانُ مُسْتَثْنى، فَلا نَسْخَ.

حاشية ٨١ أَيُّ مَعْنًى لِلْنَسْخِ غَيْرُ ذَلِكَ؟ أَلَيْسَ أَنَّ الأَعْمالَ في السَّبْتِ مُحَرَّمَةٌ مُطْلَقًا، وَأَنْتُمْ قَدْ جَعَلْتُم بَعْضَها، وهيَ الخِتانَةُ في السَّبْتِ، واجِبَةً لا يَجوزُ تَقْديمُها إلى أَمْسِهِ ولا تَأْخيرُها إلى غَدِهِ. وَمِنْ هَهُنا لَزِمَكُمْ نَسْخُ السَّبْتِ لُزومًا لا مَهْرَبَ مِنْهُ.

والاسْتِثْناءُ الذي ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ غَيْرُ مُسَلَّمٍ لأَنَّ التَوْراةَ ما جاءَتْ بِهِ، فَالاعْتِراضُ باقٍ عَلى حالِهِ، وَحُجَّةُ المُعْتَرِضِ قائِمَةٌ لَمْ تَنْدَفِعْ بالتَمْويهِ الذي أَتى بِهِ المُصَنِّفُ هَهُنا.

وحَلُّ أَمْثالِهِ مِنَ التَوْراةِ لا يَخْفى على ذي بَصيرَة.

وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الاعتراضاتِ لا يَتَأَتَّى أَن يُوردَ جَميعَها إلَّا مَنْ كانَ خارِجًا عَنِ المِلَّةِ النَصْرانِيَّةِ وعَنِ المِلَّةِ الإسْلامِيَّةِ، لِكَوْنِ

عَقيدَتَي المِلَّتَيْنِ تُنافيانِ إيرادَ جَميعِ ذَلِكَ، لَكِنْ تَقْتَضِيانِ إيرادَ بَعْضِهِ.

حاشية ٨٢ إنَّ المُصَنِّفَ قَدْ عَوَّدَ لِسانَهُ التَحَكُّماتِ في هَذا الكِتابِ حَتى قَدْ صارَتْ مَلَكَةً لَهُ. وإلَّا فَكَيْفَ لَمْ يَخْطُرْ بِبالِهِ أَنَّ هَذِهِ الاعْتِراضاتِ يَتَأَتَّى إيرادُ جَميعِها بَلْ وَإيرادُ ما يَزيدُ عَلَيْها لِلْمُسْلِمِ وَالنَصْرانِيِّ واليَهوديِّ. أَمَّا المُسْلِمُ والنَصْرانِيُّ فَلإظْهارِ نَسْخِ الشَريعَةِ الموسَوِيَّة. وَأَمَّا اليَهوديُّ فَلِلتَفْتيشِ عَنْ خَفِيّاتِ شَريعَتِهِ، حَتَّى إذا تَيَقَّنَ صِحَّتَها اسْتَمَرَّ على التَعَبُّدِ بِها، وإذا تَيَقَّنَ فَسادَها انْتَقَلَ عَنْها إلى غَيْرِها طَلَبًا لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ.

فَإنَّ النَصارى يَعْتَرِفونَ بِنُبُوَّةِ مُوسى والأَنْبياءِ الذينَ على مِلَّتِهِ عَم، وَبِجَميعِ المُعْجِزاتِ التي لَهُم، وَبِصِحَّةِ التَوْراةِ وَكُتُبِ النُبُوّاتِ. وَلا يُمْكِنُهُمْ جُحودُ أَنَّ اليَهودَ يُقِرُّونَ بالقِيامَةِ والمَعادِ بَعْدَ المَوْت،

حاشية ٨٣ نَعَمْ النَصارى لا يَجْحَدُونَ إقْرارَ اليَهودِ بالقِيامَةِ والمَعادِ بَعْدَ المَوْتِ، لَكِنَّهُمْ يَقولونَ مَعَ ذَلِكَ إنَّ اليَهودَ سَرَقُوا هَذِهِ المَقالَةَ مِنْ غَيْرِ مِلَّتِهِمْ وَلا وُجودَ لَها في تَوْراتِهِمْ. وَمَعَ ذَلِكَ لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا اليَهودَ قائِلينَ: هَلِ الإقْرارُ بالقِيامَةِ والمَعادِ بَعْدَ المَوْتِ مِنْ أَرْكانِ الشَرائِعِ الحَقَّةِ أَمْ لا؟ فإن اعْتَرَفُوا أَنَّهُ مِن أَرْكانِها يُقالُ لَهُم: فَإذَنْ كَيْفَ خَلَتْ تَوْراتُكُمْ عَنْ ذِكْرِهِ وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدونَ أَنَّ شَريعَتَكُمْ حَقَّة. وَإنْ أَنْكَرُوا أَنَّهُ مِن أَرْكانِها فَيُقالُ لَهم: فَأَنْتُمْ لِماذا زِدْتُموهُ على شَريعَتِكُم مع زَعْمِكُم أَنَّها شَريعَةٌ تامّة. ولا شَكَّ أَنَّ زِيادَتَكُمْ عليها هَذِهِ الزِيادَةَ وغَيْرَها تُخالِفُ زَعْمَكُمُ الذي تَزْعَمُون.

فَإنَّ في السَليحينَ أَنَّ فُولوسَ الذي كانَ اسْمُهُ شاؤول كانَ يَقولُ أَنَّهُ من الفَرّيشانِيّينَ الذينَ يَقولونَ بالرَجاءِ والقِيامَةِ والمَلائِكَةِ والرُوح،

بخلاف الصدوقيين المتزندقة في اليهود في ذلك الزمان، وهم اتباع رجل يقال له صدوق، فإنهم لا يقولون بذلك كله. والفريشانيون هم جمهور اليهود من قبل، والآن يسمون بالربانيين. وأما أتباع صدوق فكانوا قلائل وانقرضوا عن آخرهم واضمحلّ مذهبهم.

وفي الإنجيل عدّة مواضع تدلّ على قول اليهود بالمجازاة بعد الموت، تظهر لمن يتأملها. لكنهم يدّعون أنّ شريعة التوراة نسخها السيّد المسيح. هذا مع أنّ في الإنجيل ما معناه – إني لم أجيء لأنقض توراة موسى ولكن جئت أتممها بعمل الحقّ. آمين آمين، أقول لكم تتغيّر السماء والأرض ولا يتغيّر من توراة موسى حرفٌ واحدٌ ولا يبطل من توراته شيءٌ ومن ينقص من توراة موسى صغيرةً أو كبيرةً ناقصًا يسمّى في ملكوت السماء.

حاشية ٨٤ ما نقله المصنّف ههنا عن الإنجيل ليس كما هو مسطورٌ فيه. وأظنّ أنّه حرّف الكلام متابعةً للمغالطين، فإن بالتحريف يتيسّر لهم تغليط الخصم وإقامة دعاويهم الفاسدة.

وحيث أنكر اليهود على السيّد المسيح كون بعض أصحابه فرك السنبل يوم السبت وأكل، لم يجبهم بأنّ السبت قد نسخت، بل بيّن أنّ ذلك لم يمنع منه المضطرّ إلى الأكل كما لم يمتنع داود حيث اضطرّ من أن أكل من مائدة الربّ التي لا يجوز الأكل منها، وإنّه تمسّك بفرائض التوراة إلى آخر وقته.

حاشية ٨٥ أ – لم لا يجوز أن يقال: إنّ السيّد المسيح إنّما أجاب هذا الجواب تنبيهًا لليهود على أنّ شريعتهم قد نسخها داوود بما جرى منه يومئذٍ، وعلى هذا فلا يكون فرك السنبل في السبت ممّا يجب إنكاره، ولا يلزم أن يكون

نسخًا زائدًا على النسخ الذي كان من داوود، وإلا لكان تحصيلاً للحاصل. إذ المفهوم من النسخ هو مفهومٌ واحد.

ب – وأيضًا فإنّ السيّد المسيح لو تمسّك بفرائض التوراة كما ذكره المصنّف، لما كان لليهود إلى قتله من سبيل. فإنّ أعظم ما شنّعوا عليه به كان حلّ السبت، لأنّه في سبوتٍ متفرّقةٍ فتح عيني الأكمه وأبرأ يد الأشلّ، وأقام المحلّل الذي كان ملقى منذ ثلاثين سنةً، وأمره بحمل سريره، وغير ذلك ممّا نقل عنه.

وكذا أصحابه بعد رفعه، إلا أنّ فولوس منعهم من ذلك بعد زمانٍ طويلٍ، عند احتياجهم إلى مخالطة سائر الأمم.

حاشية ٨٦ أ – النصارى لا يسلّمون ذلك لأنّ أصحاب السيّد المسيح إنّما مكثوا في مدينة القدس بعد صعوده عشرة أيّام، لأنّه كان أمرهم أن يمكثوا إلى حين يبعث إليهم الروح القدس. فلمّا أنجز وعده هذا في اليوم العاشر من صعوده أفادهم الروح القدس أشياء لم تكن لهم قبل حلوله عليهم، من جملتها تعليمهم لغات الأمم. وحينئذٍ تفرّقوا في البلاد ودعوا الناس إلى دين النصرانيّة، وكان ذلك قبل دخول فولوس في دين النصرانيّة بسنوات كثيرة.

ب – وإنّما تخلّف في البقاع القريبة من القدس أتباع هؤلاء المذكورين، وكان بحث في طلبهم اليهود وطلب من يجيب إلى دعواهم، وكانوا يوقعون الفعل بمن يظفرون به، حتى فولوس نفسه كان شديد الحرص على دحض هذه الدعوى وعلى هلاك من يصدّقها إلى حين اختار الله إدخاله في دين النصرانيّة بالآية التي أظهرها له، فانقلب بعد ذلك

إلى التَعَصُّبِ لِلنَصْرانِيَّةِ غَيْرَ مُبالٍ بالشَدائِدِ التي قاساها بِسَبَبِ ذَلِكَ، مِنَ الجَلْدِ والحَبْسِ والهَوانِ، إلى حينَ بَذَلَ نَفْسَهُ بِالكُلِّيَّةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

والمُسْلِمُونَ أَيْضًا اعْتَرَفوا بِنُبُوَّةِ مُوسى ومُعْجِزاتِهِ وَبِنُبُوَّةِ أَنبياء قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ ومُعْجِزاتِهِمْ، وَيُوافِقُونَ على اعْتِرافِ اليَهودِ بِثَوابِ الجَنَّةِ وعِقابِ النارِ. أَمَّا الجَنَّةُ فَكَمِثْلِ ما جاءَ في القُرآنِ المَجيدِ وَقالَ - لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُودًا أَوْ نَصارى -، بِمَعْنى أَنَّ كُلَّ واحِدَةٍ مِنَ الطائِفَتَيْنِ حَكَمَتْ بِأَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ مِنْ طائِفَتِها. وأَمَّا النارُ فَكَما جاءَ في مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ القُرآنِ المَجيدِ وَقالوا - لَنْ تَمَسَّنا النارُ إلا أَيامًا مَعْدُودَة. وَهْوَ حِكايَةُ قَوْلِ اليَهودِ بِإجْماعِ المُفَسِّرين. وَوَرَدَ في القُرآنِ أَيْضًا أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلى مُوسى ذِكْرَ الآخِرَة، كَما في قَوْلِهِ في سُورَةِ سَبِّحْ - بل تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُنْيا والآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى إِنَّ هَذا لَفي الصُحُفِ الأُولى صُحُفِ إِبْرٰهيمَ وَمُوسى.

حاشية ٨٧ قَدْ نَقَلَ المُصَنِّفُ ذَلِكَ عَلى أَنَّهُ حُجَّةٌ لَهُ فَإِذا بِهِ وَهْوَ حُجَّةٌ قاطِعَةٌ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهِ إِشْعارًا بِأَنَّ التَوْراةَ التي بِأَيْدِي اليَهودِ لَيْسَتْ مِنْ صُحُفِ مُوسى لِخُلُوِّها عَنْ ذِكْرِ الآخِرَةِ وما فيها مِنَ النَعيمِ المُقيمِ والعَذابِ الأَليمِ، ذاكَ لِأَهْلِ الطاعَةِ وَهَذا لِأَهْلِ المَعْصِيَة. وَإذا لَم تَكُنْ مِن صُحُفِ موسى يَلْزَمُ أَنْ تَكونَ مِنْ صُحُفِ غَيْرِهِ. وَعلى هَذا يَلْزَمُ صِدْقُ المُعْتَرِضِ حَيْثُ قالَ في السالِفِ إِنَّها كِتابُ عَزْرا، وَهْوَ الذي لَفَّقَها بَعْدَ ذَهابِها.

لكِنَّهُمْ يَقولونَ إِنِ التَوْراةَ مُبَدَّلَةٌ، وَيُنْكِرونَ صِحَّةَ تَواتُرِ اليَهودِ في نَقْلِها. وَقالوا ذَلِكَ مَعَ أَنَّ في القُرآنِ وفي الأَخْبارِ ما يَدُلُّ على أَنَّ التَوْراةَ كانَتْ في زَمانِ مُحَمَّدٍ صلعم عِنْدَ اليَهود، مِثْلَ - وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ [illegible] التَوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ - وَلَمْ يَقُلْ إِنَّ عِنْدَهُمْ بَعْضَ التَوْراةِ،

ولا إِنَّها مُحَرَّفَة. وآياتٌ كَثيرَةٌ تُشْعِرُ بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ - مِنَ الذينَ هادوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ - وَكَذا قَوْلُه - فَوَيْلٌ لِلذينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقولونَ هَذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَليلاً - لا يَدُلُّ عَلى أَنَّ الإِشارَةَ فِيهِ إِلى التَوْراةِ. وَلا شَكَّ أَنَّ في اليَهودِ مَنْ يَرْوي الأَحاديثَ الكاذِبَةَ، كَما في المُسْلِمِين.

وَتَحْرِيفُ التَوْراةِ بَعْدَ مُحَمَّد، قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لا يَتَصَوَّرُهُ عاقِل.

ولا تَتِمُّ شَريعَةُ الإِسْلامِ إِلا مَعَ القَوْلِ بِأَنَّ شَريعَةَ مُوسى مَنْسُوخَة. ولهذا افْتَقَروا إلى رَفْعِ تَواتُرِ اليَهودِ، والقَوْلِ بِتَحْريفِ التَوْراةِ، حَتَّى لا يَقَعَ إِلزامُهُمْ بِما فِيها مِمَّا يَدُلُّ على تَأْبيدِها وعَدَمِ نَسْخِها.

وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ أَلفاظَ التَأْبيدِ التي في التَوْراةِ على أَنها اسْتُعْمِلَتْ في ما يَبْقى مُدَّةً طَويلَةً، كَما جاءَ فِيها في العَبْدِ العِبْرِيِّ أَنَّهُ يُسْتَخْدَمُ سِتَّ سِنينَ، ثُمَّ يُعْتَقُ في السابِعَةِ، فإِنْ أَبى العِتْقَ فَلْتُثْقَبْ أُذُنُهُ وَيُسْتَخْدَمْ أَبَدًا. وأَرادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَخْدَمُ إلى خَمْسينَ سَنَةً، كَما صَرَّحَ بِهِ في مَوْضِعٍ آخَر.

وَقالَ اليَهودُ إِنَّا لا نَقولُ على مُجَرَّدِ أَلفاظِ التَأْبيد، ولا نُنْكِرُ أَنَّها قَدْ تُسْتَعْمَلُ مَجازًا في غَيْرِهِ، بل نَقولُ إِنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ باضْطِرارٍ مِن أَلفاظِ التَأْبيدِ، ومِنْ قَرائِنَ غَيْرِها مِنَ التَوراةِ، وَكُتُبِ الأَنْبياءِ وَكَلامِ حَمَلَةِ الشَريعَةِ، أَنَّ مُوسى عم كانَ يَتَدَيَّنُ بِدوامِ شَريعَتِهِ، كَما تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ أَنَّ شَريعَتَكُمْ لا تُنْسَخُ - لا مِنْ مُجَرَّدِ الأَدِلَّةِ اللَفْظِيَّةِ عِنْدَكُم، لِكَوْنَها لا تُفيدُ اليَقين.

أَجابَهُمُ المُسْلِمُونَ بِأَنَّهُ لَوْ كانَ كَما زَعَمْتُمْ لَعَلِمَ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ خالَطَكُم، مَعَ أَنَّ النَصارى، على كَثْرَتِهِمْ وَقِراءَتِهِمْ لِكُتُبِكُم، لا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. أَلا تَرى أَنَّهُ، لمَّا عُلِمَ مِنْ دينِ مُحَمَّدٍ أَنَّ شَريعَتَهُ لا

تُنْسَخُ، عَلِمَ ذَلِكَ المُسْلِمُ، وَغَيْرُ المُسْلِمِ مِمَّنْ يُخالِطُ المُسْلِمِين.

وَلِلْيَهُودِ أَنْ يقولوا – لو خَالَطَنَا غَيْرُنا على نَحْوِ مُخالَطَتِنا لِلْمُسْلِمِينَ لَعُلِمَ ذَلِكَ مِنْ دينِنا بِالضَرُورَة. وَلَيْسَتْ مُخَالَطَةُ المُسْلمينَ لَهُمْ مِمّا يَقْتَضِي تَحقُّقَ كُلِّ ما يَتَحَقَّقُونَهُ، لا سِيَّمَا مَعَ مَنْعِهِمْ مِنَ الإعْلانِ بِمُعْتَقَدِهِمْ، وَكَوْنِ كُتُبِهِمْ بِلُغَةٍ لا يَعْرِفُها المُسْلِمُون، وكَوْنِ مُخالَطَةِ الأَقَلِّ للأَكْثَرِ لَيْس كَمُخالَطَةِ الأَكْثَرِ للأَقَلّ. أَلا تَرَى أَنَّ الأَقَلَّ مِنْ أَهْلِ لُغَةٍ، إذا خَالَطَ الأَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ لُغَةٍ أُخْرى، تَعَلَّمَ الأَقَلُّ لُغَةَ الأَكْثَرِ، مِنْ غَيْرِ تَعلُّمِ الأَكْثَرِ لُغَةَ الأَقَلِّ أَو قَبلَ تَعَلُّمَهُ. هذا مَعَ أَنَّ مُعْظَمَ اليَهودِ، مَعَ كَثْرَةِ مُخَالَطَتِهِمْ للمُسْلِمِينَ، قَدْ وُجِدَ كَثيرٌ مِنْهُمْ يَجْهَلُ مِنَ الأُصولِ الإسْلامِيَّةِ ما لا يَجْهَلُهُ العَوامُّ مِنَ المُسْلِمِين، فَضْلاً عَن الخَواصِّ مِنْهُم. فَوُقُوعُ مِثْلِ ذَلِكَ في جانِبِ المُسْلِمِينَ أَوْلى، ولا أَقَلَّ مِنَ المُساواة.

ثُمَّ كَيْفَ يُنْكِرُ مِثْلَ هَذا مَنْ يَجِدُ بَعْضَ المُسْلِمِينَ قَدْ أَنْكَرَ ما ادَّعى فِيهِ البَعْضُ الآخَرُ التَواتُرَ، وَهْوَ النَصُّ الجَلِيُّ في الإمامَة، مَعَ شِدَّةِ المُخالَطَةِ التي لا تُجْحَد. وَكَذا أَنْكَرَ البَعْضُ الآخَرُ ما ادَّعاهُ ذَلِكَ البَعْضُ مِنْ تَوَاتُرِ تَعْظيمِ النَبِيِّ سائِرَ الصَحابَةَ، وبشارَتِه لِبَعْضِهِمْ بالجَنَّة، وثَنائِهِ عَلَيْهِم. وَكُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَريقَيْنِ يُنْكِرُ ما يَدَّعي فِيهِ الفَرِيقُ الآخَرُ التَواتُرَ.

القِسْمُ الثالِثُ

حَوَاشي ٱبْنِ المحرومة عَلى البابِ الثالث مِن كِتَاب «تَنقيح الأبحاث للمِلَل الثلاث» (في المسيحيّة)

حَواشي ابنِ المحرومة
على الباب الثالث مِن كتاب
«تنقيح الأبحاث للمِلل الثلاث»
(في المسيحيّة)

في ذِكرِ مُعتقَدِ النصارى في السيّدِ يَشوعَ المسيح ، وهو عيسى ابنُ مريمَ عَم ، وما جاءَ به ، وكيفيَّةِ كونِه نبيًّا وإلهًا عِنْدَهُم ، وما يتعلّقُ بذلكَ من الإيرادات وَأَجْوِبَتِها .

قالوا : – نحنُ مؤمنونَ بكل ما جاء في التوراةِ وفي آثار بني إسرائيل التي لا مَدْفعَ في صِدقِها لشُهرتها وعلانيّتها في الجماهيرِ العِظام . ونؤمنُ بأنه في أُخرياتِ أمْرِهم وعقائِبِه تجسَّمَتِ اللاّهوتيَّةُ وصارتْ جَنينًا في بَطنِ عَذْراءَ من أشرفِ نساءِ بني إسرائيلَ من نَسْلِ داود ، أولدَتْهُ ناسوتيَّ الظاهِرِ لاهوتيَّ الباطِنِ ، نبيًّا مُرسَلاً في ظاهِرِه وإلاها مُرسَلاً في باطِنِه . فهو إنسانٌ تامٌّ والهٌ تامّ . وذلك هو المسيحُ المُسَمَّى عندَهم بابنِ الله . واللهُ هو الآبُ وهو الابنُ وهو روحُ القُدُس .

قالوا : – نحن مُوَحّدون بالحقيقةِ وإن ظَهَرَ على أَلسِنَتِنا التّثْليث . ونؤمنُ به وبحلولهِ في بني إسرائيلَ إجلالاً لهم على ما لم يَزلِ الأمرُ الإلاهيُّ يتَّصِلُ بهم حتى عَصى جُمهورُهم هذا المسيحَ وصَلَبوه وصار السُخطُ مُستَمِرًّا على جُمْهورِهِم والرِضا على الأفرادِ التابعينَ للمَسيحِ الذين اختصَّ منهم اثني عَشَرَ شَخْصًا كعِدَّةِ الأسباطِ من بني إسرائيل ثم على الأُمَم التابعينَ لأولائكَ

الأفراد. ونحنُ من بني إسرائيلَ، وإن لم نكن من ذُرِّيَّتِهم. فالأَولى أن نكونَ نحن الذين نَتَسَمَّى بِبَني إسرائيلَ لاتِّباعِنا المسيحَ وأَصْحابَهُ. وتَبِعَ أولائكَ الأفرادَ جماعةٌ صاروا كالخميرةِ لأُمَّةِ النَصارى. واستحقُّوا دَرَجَةَ بني إسرائيل. وصارَ لهمُ الظَفَرُ والانتِشارُ في كثيرٍ من البِلادِ والأُمَمِ داعِينَ إلى دِينِ النَّصرانيّة، مُكَلَّفينَ العَمَلَ به من تعظيمِ المسيح، وتَعظيمِ صَليبِهِ، وتَتبُّعِ أَحكامِهِ ووصايا الحوارِيّين أَصحابِه، وقوانينَ مَأْخوذةٍ من التَوْراة التي نَقْرأُها، ولا مَدْفَعَ في حَقيقتِها، وإنها من عندِ الله، والذين آمنوا بهذهِ الدعْوةِ اتَّبعُوها طَوْعًا، عن اختيارٍ منهم ورضى، من غيرِ أن يُلجَؤوا إليها بِسَيفٍ ولا قَهْر.

واتَّفقَ النَصارى على هذهِ الأَمانةِ بعد اجتماعِ ثلاثمائةٍ وثمانيةَ عشرَ نَفْسا عليها في زمنِ قُسْطَنْطينَ الملك، ومعناها هو هذا:

نؤمنُ بالإلاهِ الواحدِ، الآبِ، ماسكِ الكلّ، صانعِ السمواتِ والأَرضِ وكلِّ ما يُرى وما لا يُرى؛ وبالواحدِ الربِّ إيشوعَ المسيح، ابنِ اللهِ الوحيد، بكرِ جميعِ الخلائقِ الذي وُلِدَ من أَبيه قَبْلَ كلِّ العوالِم وليسَ بمصنوع، نورٍ من نور، إلاهٍ حقيقيٍ من إلاهٍ حقيقي، من جَوْهرِ أبيه الذي بِهِ أُتقِنَتِ العَوالمُ وخُلِقَ كلُّ شيء، الذي لأَجلِنا، معشرَ البَشَريين، ولأجلِ نجاتِنا هَبَطَ من السماء وتَجَسَّمَ من روحِ القُدُسِ وصار إنسانا وحُمِلَ بِهِ وَوُلِدَ من مريمَ البتولِ وتأَلَّمَ وصُلِبَ في أيام فُنطِيُوس فِيلاطُوسَ ودُفِنَ وانبعَثَ لثلاثةِ أيّام، كما كُتب، وصَعِدَ الى السماءِ وجَلَسَ عن يمينِ أبيه. وهو مزمعٌ لأن يأتيَ ليدينَ الأمواتَ والأَحياء؛ وبالواحدِ روحِ القُدُسِ روحِ الحقِّ المنبثِقِ من الآبِ، الروحِ المُحْيي، وببيعةٍ واحدةٍ مُقَدَّسَةٍ سَليحيَّةٍ جاثليقيَّة.

ونُؤمنُ بمعموديةٍ واحدةٍ لغُفرانِ الخطَايا وبانبعاثِ أجسادِنا وبالحياةِ الأَبديَّة.

هذا آخرُ أمانَتِهم.

ولم أَجِدْ بَيْنَ اليَعقوبيَّةِ منهم والنِسطُوريَّةِ فيها خلافًا في المعْنى إلّا أني لم أجِدْ في النُسْخَةِ التي أخذتُها من اليَعقُوبِيَّةِ «الذي بهِ أُتقِنَتِ العوالمُ وخُلِقَ كلُّ شيء»، ووجَدْتُ عِوضَ «كما كُتب» – «كما أراد»، وفيها زياداتٌ لا تُنافي هَذِهِ العقيدَة. واتَّفقوا على أنَّ أُقنومَ الآبِ هو الذاتُ وأقنومَ[1] الإبنِ هو الكَلِمَةُ وهي العِلم، وأنها لم تَزَلْ مُتَوَلِّدَةً من الآبِ لا على سبيلِ التناسُلِ بل كتَوَلُّدِ ضياءِ الشمسِ من الشمس. وأقنومَ روحِ القُدُسِ هُوَ الحياة، وأنها لم تَزَلْ فائِضَةً من الآب.

واتَّفقوا أيضًا على اتّحادِ الكَلِمَةِ بالسيّدِ المسيحِ عيسى عَم. واختَلَفوا في الاتحاد.

فظاهِرُ قولِ اليَعْقُوبِيَّة أَنَّهُ بِمَعْنى المُمَازَجَةِ والمخالَطَةِ حتى صار منهما[2] شيءٌ ثالث، كما تَمتَزِجُ النارُ بالفَحْمَةِ فيَصيرُ مِنهُما[3] جمرةٌ، والجَمْرَةُ لَيسَتْ نارًا خالِصَةً ولا فَحْمَةً خالِصة. وجعلوا ذلك بمعنى التركيبِ الارتباطي، وإن كان من جِسْماني ورُوحاني كحال النفس المُجرَّدة والبَدَن، فإنَّ احدَهُما

١) اكنوم
٢) منها
٣) منها

ارتبط بالآخَرِ حتى صارا[1] شخصًا واحدا. فقالوا إنَّ المسيحَ جَوْهرٌ من جَوْهرينِ وأُقْنومٌ من أقنومَيْن.

وظاهِرُ قولِ النِسطوريَّة أَن الاتحادَ هو على معنى أَن الكلمةِ جَعَلَتْهُ هيكلاً ومَحَلاً وادَّرعَتْه ادِّراعًا. وَلِذَلِكَ[2] قالوا إن المسيحَ جوهران أُقنومان.

وقال بعضُهُم إن الاتّحادَ وقعَ بِهِ كما اتَّحدَ نقشُ الفصِّ بالشَمْع، وصورةُ الوجهِ بالمرآة، من غيرِ أن يكونَ قد انتقَلَ النقشُ من الفصِّ إلى الشمعِ أو الوَجهُ إلى المِرآة.

وبعضُهم يقول – اتحادُ الكلمةِ به هو أن ظَهَرَتْ ودَبَّرتْ على يديه.

فأمَّا المِلكانيَّةُ فإنها قالت إن المسيحَ جوهران، أقنومٌ واحد، لأنَّ الاتحادَ وَقَعَ بالانسانِ الكُلّيِّ لا الجُزْئي. والمرادُ بالأقنوم هو الشخص.

وكلُّ النَصارى يُؤْمِنونَ بِبَعْثِ الأَجسادِ وبالثوابِ في الجنّة، ويُعَبِّرونَ عَنها بالفِرْدَوسِ، وبالعِقابِ في جَهَنَّم، إلا أَنَّهُم لا يقولون إلا بالثوابِ والعِقابِ الروحَانِيِّينَ دُونَ الجِسْمَانِيِّين. وقالوا إن الصالِحينَ يصيرونَ في مَلكوتِ السماءِ كالملائِكَة، أو في ملكوتِ الله. ويَعتَقِدُونَ بقاءَ الأَنْفُسِ الإِنسانيةِ بعدَ خَرابِ الأَجْسادِ بالموت.

وأَجْمعوا عن آخِرِهم أَنَّ شَرِيعَتَهُم التي شَرَعَ بها السيّدُ المسيحُ وأَصحابُهُ لا تُنْسَخُ إلى يوم القيامة. وعَلَّمُوا ذلكَ نَقْلاً عن الحوارِيِّينَ كونُهم عَلِموه من رأيِهم عِلْمًا ضَروريا، لا ارتيابَ فيه.

ونقلوا عن المسيح في الأَناجيلِ الأربعة، أَعني انجيلَ مَتى وإنجيلَ

١) صار
٢) كذلك

مرقوسَ وإنجيلَ لوقا وإنجيلَ يوحنا معجزاتٍ كثيرة. فإنها تَتَضَمَّنُ أَنه أَحيا[1] ثلاثةَ موتى: واحدًا قبل أن يُجعلَ في التابوت، وآخرَ وهو في التابوتِ قبل ان يُدفن. وآخرَ بعد ان دُفِنَ بأربعةِ ايام.

ويوحنا هو الذي ذَكَرَ في إنجيله إحياءَ الثالث. وفي بعض الأناجيلِ ذُكِرَ واحدٌ منهم فقط، وفي بعضها اثنان ولم يذكروا، فيما عدا انجيلَ يوحنا، إحياءَ المدفونِ منهم. واتفقوا فيما عداه على إحياء الذي لم يُجعلْ في التابوت؛ وأبرأَ[2] الزمِنَ والأبرصَ، وحوَّلَ[3] الماءَ خمرا. وأَشبَعَ خمسةَ آلافِ رَجُل، عدا النِسوانَ والأطفال، من سَمَكَتينِ وخمسةِ أرغفة؛ وأخرجَ الشياطينَ من الناس، وكَشَفَ أسقامًا كثيرة، ومشى على الماء. وغير ذلك من مُعجِزاته عَم.

وفي الأناجيلِ الأربعةِ اختلافٌ كثير، قد تَعَسَّفَ علماؤُهم للتوفيق بينها. وفيها أمثالٌ كثيرة ومواعِظ. وفيها الأَمْرُ بمكارِمِ الأخلاق، مثلُ قوله ما معناه – إن أنتم كافيتم السَيِّئاتِ بالسَيِّئاتِ فلا أَجرَ لكم عند أَبيكم الذي في السماء ولا حَسَنة؛ ومثل – ان أنتم غَفَرتُم لبَني البَشَرِ سيِّئاتِهم فإن أباكُمُ الذي في السماءِ يغفِرُ لكم سيِّئاتِكم وإن لم تغفِروا فلا يُغْفَرُ لكم.

وقد كان بين النَصارى اختلافٌ كثيرٌ في العقيدة، كما أن منهم من أَثْبَتَ للابنِ كونًا زمانيًا وقال إن الله أَحدَثَ الابنَ وفَوَّضَ اليه خلقَ العالم، والباقونَ قالوا إنه وُلد من أبيه قبل كلِّ العوالمِ وليس بمصنوع، كما هو في الأمانةِ المتَّفَقِ عليها. وقد كان لهم اجتماعاتٌ كثيرةٌ لإزالةِ الخلافِ بينهم

١) أحيى (P)
٢) وإبراء (P)
٣) وحوْل (P)

فأحرمَ فيها بعضُ المخالفين وأدَّتْ إلى سفكِ دماءٍ كثيرة منهم. يُعرفُ ذلك من تواريخِهم.

وتغييرُ أحكامَ التوراة، كإباحةِ لحم الخنزير، وتركِ الختانِ والغسل، مرويٌّ عن الحواريين، لا عن السيّدِ المسيح، فإنه لم يزل مُتمَسّكًا بأحكامِها إلى أنْ قَبَضَتِ اليهودُ عليه.

حاشية ٨٨ (١) هذا الكلامُ مردودٌ بحلِّ السيّدِ المسيحِ للسبت، وغيرِ ذلك؛ وقد ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ في السالِفِ وكتبْنا عليهِ حاشيةً[1] هناك.

وكان يامر بها وقال – ما جِئْتُ لأَنْقُضَها. وحيثُ أنكرُوا عليهِ ما تَوَهَّمُوهُ تفريطًا في بعضِ أحكامِها بَيَّنَ لهم أنه ليس بتفريطٍ وأوضحَ لهم ذَلِكَ مِمّا يَقْتَضِيهِ فِقهُهُمْ وشَرْعُهم، كما هو مذكورٌ في الإنجيل!

حاشية ٨٩ (٢) لِمَ لا يجوزُ أنه أرادَ بذلكَ أَنْ يَدُلَّ على عمًى[2] بصائرِهِم، وأنهم يعتقدون الباطلَ حَقًّا، والحقَّ باطلاً، كما هو المعهودُ منهم ومن أَسْلافِهِم، منذُ زمانِ مُوسَى وإلى الآن. والدليلُ على تصحيحِ هَذِهِ الدَعْوى تقريعُ الأَنبياءِ لبني إسْرائيلَ بمَا هو مشهورٌ في كُتُبِهِم عليهم السلام.

وبقي أصحابُه على التَمسُّكِ بها مُدَّةً طويلةً إلى أن أظهروا المخالفةَ لها والإعلانَ بنَسْخها،

حاشية ٩٠ (٣) قد عَرَفْتَ جوابَ ذَلِكَ حيثُ ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ قبلَ هَذِهِ المَرَّةِ وكتبتُ عليه حاشية.

١) حوشية.
٢) عما.

وأنها، إنَّما كانَ يَلزَمُ العَمَلُ بها إلى حين ظُهورِ السيِّدِ المَسيحِ، لا غَيْر، وأَكثَرُ ذَلِكَ عن رأيِ فولوسَ الرسول.

ومخالفو النصارى لهم ان يقولوا

إن هَذِهِ الأَقانيمَ التي ذكرتموها، إن كان مرادُكم بها ذواتٍ ثلاثا[1] قائمةً بأنفُسِها، فبُرهانُ الوَحدانِيَّةِ يُبْطِلُهُ، وهو أَيضا على خِلافِ مُعْتَقَدِكم في التوحيد. وإن كانَ مقصودُكم أنها صفات، أو أحدَها ذاتٌ والباقِيَتَيْن[2] صفتان،

حاشية ٩١ (٤) أ – نعم هَذا هُوَ مَقصودُ النَصارى، وأنتَ قد نَقَلْتَه عنهم حيثُ قلت: «واتفقوا على أنّ أقنومَ الآبِ هو الذات»؛ واعلم أن العبدَ الضَعيفَ يَقْتَنِعُ بالأَجْوبَةِ التي سَوفَ يَذْكُرُها المُصَنِّفُ بَعْدَ فَراغه من[3] الاعتِراضاتِ، إلّا في مواضِعَ قليلةٍ أَهْمَلَها المُصَنِّفُ أو لم يَسْتوفِ الجوابَ عنها. وذلك قد يَأْتي في أثناء الاعتراضاتِ وقد يأتي في أثناء تلك الأجوبةِ التي تأتي فيمَا بعد.

ب – وجميعُ الذي أذكرُهُ في هَذِهِ الحواشي إنَّما أذكرُه على شَريطَةِ الاقتصادِ على القليل، وذلك لأن إشباعَ الكلامِ في دِينِ النَصارى تَضيقُ عنه هذه الحواشي لوُجُوهٍ يَطُولُ ذِكرُها. فلِهَذا أَقْتَصِرُ على بعضِ الذي عندي لِيَكونَ ذلك بِمَنزِلَةِ التَنْبيهِ للقارئ على حالِ الطَاعِنينَ في هذا الدينِ هل أَنْصَفوا في الطَعْنِ أم لا. على أَنّي لا أَلتَزِمُ رِضى جَميعِ فِرَقِ المِلَّةِ

١) ثلاثة. (P)
٢) الباقيتان (P)
٣) عن.

النَصْرانِيَّة، لكنّي أَلْتَزِمُ رِضى النَصْرانِيَّةِ مُطْلَقًا لا غَيْرَ، وباللهِ التَوفيق.

فهلاّ جَعلتُم صفةَ القدرة أقنوما رابعا؟ وكذا سائرَ ما يوصفُ به اللهُ تَع أقانيم؟

حاشية ٩٢ (٥)

ليس الجَعْلُ ولا تركُه إلينا، لكنّا تَقَلَّدْناهُ تَقليدًا، حتى إنّا لو لم نَتَقَلَّدْه، لكِنَّه كانَ مجعولاً مِنّا، لكانَ لنا أن نقولَ في الجواب: إنَّ السبَبَ الذي أَوْجَبَ الذي أَثْبَتناه، ومَنَعَ الذي نَفَيناه، هو استِغناءُ المثبوتِ عن الغَيْر، وافْتِقارُ المَنفيِّ إلى الغير. وكيفَ يجوزُ لعاقِلٍ أن يُساويَ بين صِفاتِ اللهِ الذاتيةِ الغَنِيَّةِ عن التعلُّق بِغَيْرِه، وهي الصفاتُ التي تصدُق عليه تعالى أزلاً وأبدا، سواءٌ وُجدَتِ المَخْلوقاتُ أم لا، وسواءٌ عَدِمَتْ بعد وُجودِها أم لا، وبَيْنَ الصِفاتِ الفِعْلِيَّةِ الفقيرةِ إلى التَعلُّق بشيءٍ من المخلوقات. ألا ترى أنَّ قَوْلَنا: «اللهُ حَيٌّ!» يصدُقُ أَزَلا وأَبَدًا، من غيرِ إضافَةٍ إلى شيءٍ من المخلوقاتِ، ولا كَذلِكَ: «اللهُ قادِر» لافتِقارِ صفَةِ القُدْرةِ إلى وجودِ المَقْدُورِ عليه، وقِسْ على ذَلِكَ غيرَه.

فان قالوا – قدرتُه هي علمُه –، قلنا – وحياتُه ايضا هي علمُه، فلِمَ أفردتموها أقنومًا؟

فأما الاتحادُ فهو غيرُ معقول، لان الشيئين، إذا اتَّحدا، فإمَّا أن يكونا موجودَين أو مَعْدومَين او أَحدُهما موجودًا والآخرُ مَعدوما. فان كانا موجودَين فَلَمْ يتّحِدا لأنهما اثنان، لا واحدٌ. وان كانا معدومَين فلا يصيران واحدًا، بل عُدِما. وحدَثَ ثالث، وإن عُدِمَ أَحدُهما وبقي الآخر، فظاهِرٌ أن ذلك ليس باتحاد.

حاشية ٩٣ (٦)

إذا نَحْنُ سلّمْنا صِحَّةَ هَذا الكلامِ مسامَحَةً لِمَن يَعْتَقِدُ صِحتَّه، فلا يضرُّنا، لأنّا نقول: إنّ هذا إنَّما يَمْنَعُ الاتحادَ الذي يكونُ من جَميعِ الوُجوه، دونَ ما سواه. والحقُّ أنَّ هذا الكلامَ، مع أنه مذكورٌ في كُتُبٍ كثيرة، فهو غيرُ صَحيح، والذي تَنَبَّهَ لِفسادِهِ هو الإمامُ العلاَّمَةُ شمسُ الدينِ السَمَرْقَنْديُّ بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعَهُ، وقد ذَكَرَ وَجْهَ فسادِهِ في كتابِه الموسومِ بشرحِ الصحائِفِ الإلهيّة.

فان فُسِّر الاتحادُ بمعنى المازجَة والمخالَطة والتركيب،

حاشية ٩٤ (٧)

ليسَ ذلك مِمَّا يجوزُ في دينِ النصارى؛ فجميعُ ما يَلْزَمُهُ أو يُبنى عليه مردُود.

فان كان الآبُ والابنُ ذاتينِ غَيْرَين بحيث يَتَّحِد الابنُ وحدَه بالمسيحِ دون الآب بالمعنى المذكور، فهو يخالِفُ اعتقادَ التوحيد. وان كان الابنُ صِفة، فلا يُعْقَلُ في الذاتِ العالِمة أَن تصير[1] – كونُها عالِمَةً – مُمازِجَةً لجسمٍ من الأَجسام دون الذات. كما لا يُعقَلُ أن يكونَ زَيْدٌ ببَغْدادَ وكونُه عالِمًا بخراسان. ثم عِلْمُ كُلِّ شيءٍ هو قائِمٌ به فيَلْزَمُ أن يكونَ عِلمُ اللهِ تَع موجودًا فيه وفي المسيح دَفْعَةً واحِدة، فلِلصِفَةِ الوَاحِدَةِ في الحالةِ الواحِدَةِ مَوصُوفان، وهو مُحال. فإن لم يكنْ تَع عالِمًا حالَ الاتحادِ كان كونُه عالِمًا حُكْمًا جائِزًا فيفتَقِرُ إلى مُخَصِّصٍ يُخَصِّصُهُ، وذلك يُخْرِجُهُ عن الإلاهية.

والقولُ بالامتزاج باطِلٌ لأَنّه لا يُعْقَلُ إلا في الأَجسام، والكَلِمَةُ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ بِجِسم. فان قالوا – المازجَةُ بالتركيبِ الارتباطي كالإنسان

---

١) يصير (P)

الواحدِ من نَفْسٍ وَبَدَن – فارْتباطُ أَحدِ الشيئينِ بالآخرَ لا يُعْقَلُ إلا باحتياجِ أَحدِهما إلى صاحبِه، إما مع العكْس، كاحتياجِ النَفْس إلى البَدَن باعتبارٍ واحتياجِ البَدَنِ إليها باعتبارٍ آخر، وإما من غيرِ عكسٍ كاحتياجِ صورَةِ السريرِ إلى الخَشَبِ وَعدَمِ احتياجِ الخَشَبِ إليها. لكن، فيمَا نحنُ فيه، يمتَنِعُ احتياجُ الجزْءِ اللاّهوتيّ إلى غيرِه بوجهٍ من الوُجوه. ولوكان الاتحادُ لاحتياجِ الجزْءِ الناسُوتيّ إلى اللاّهوتيّ من غيرِ انعِكاسٍ لكانَ مثلُ هذا الاتحادِ حاصِلاً مع كل المخلوقات، لأن كلَّها محتاجةٌ في وجودِها وسائرِ كمالاتِها إلى اللهِ تَع.

حاشية ٩٥ (٨)

أ – هذا الكلامُ مَبْنِيٌّ على القولِ بالمُمازَجَةِ التي لا يقولُ بها النَصارى، فيكونُ ساقِطًا؛ ومع سقوطِهِ فإنَّ قولَه: «لكانَ مِثْلُ هذا الاتحادِ حاصِلاً مع كلِّ المَخْلوقات» مردودٌ، بأنَّ مجرَّدَ الاحتياجِ غيرُ كافٍ في ذلك، بل لا بدَّ له من انضِيافِ أمرٍ آخَرَ إليه.

ب – ومِمَّا يُصَحِّحُ هذه الدَعوى هو أنَّ الاحتياجَ وَحْدَه لوكفى في ذَلِكَ لكانَتْ جميعُ كمالاتِ المخلوقاتِ حاصلةً لها. وليسَ الواقعُ كذلك. ألا تَرى أن الفقيرَ مُحتاجٌ إلى المال، والمريضَ إلى الصِحَّة والأعمى إلى البَصَر. وهذه المطَالِبُ غيرُ حاصلةٍ لهم، وهذا يَدُلُّ على أن الاحتياجَ وحدَه غيرُ كافٍ، فَسَقَطَت[1] دَعوى المُصَنِّف.

وكونُ الاتحادِ كاتحادِ نقشِ الفصِّ بالشَمْع، إن عُنِيَ به أَن ذاتَ المسيحِ صارَتْ مَثَلاً للبارئ، فهو مُحالٌ لاستحالةِ أن يصيرَ الجسمُ المُحْدَثُ مُنَزَّهًا قديمًا. وإن عُنِيَ به أنهُ حَصَلَتْ له خاصِّيَّةٌ لأجلها

١) فسقط.

قَدَرَ على ما لم يقدِرْ عليه غيرُه فليسَ يَقْتَضِي ذَلِكَ كونَهُ إلاها والاّ لكانَ كلُّ من ظَهَرَ على يَدِهِ مُعجزاتٌ من الأنبياءِ إلاها، لا سِيَّما مثلُ مُعْجزاتِ موسى فانها أَعظمُ بكثيرٍ مِمّا يُحْكى عن مُعْجزاتِ المسيحِ وأَبعدُ من وقوعِ الحيلةِ فيها واكثرُ رُواةً من رُواتِها، فإن رُواةَ تِلكَ هي المللُ الثلاثُ ورُواةَ هَذِهِ بعضُهم.

حاشية ٩٦ (٩)

معلومٌ أَنَّ بعضَ عُلماءِ فِرْقَةٍ من فِرَقِ النَصارى يُمَثِّلُ بهذا المِثَال، تقريبًا إلى أَذْهانِ العوامّ؛ وليسَ من شَرْطِ المِثَالِ المُماثَلَةُ من جَميعِ الوُجوه، وحينئذٍ يَسْقُطُ كلامُ المُصَنِّف. وأمّا قولُه: «مُعْجزاتُ موسى أعظم» فَمَرْدودٌ من وُجوه، مِنها أنَّ موسى ما أبرأَ أَكْمَهَ ولا أحيا مَيْتا، ولا أقام زمِنًا، ولا طهَّر أبرص[1].

وأَيْضًا فلا يُقالُ في شيءٍ من جَوْهَرِ غيرِهِ إلا وقد اشتركا في أَمرٍ جَوْهَرِيّ وعَمَّهُمَا عُمُومَ طبيعةٍ، لا عمُومَ نِسْبَة. فإن لم ينفصِلْ أحدُهُمَا عن الآخرِ بِفَصْل، لم يكن كونُ الآبِ مُوَلِّدًا للابنِ أَولى مِن العَكس.

حاشية ٩٧ (١٠)

كلامُ المُؤَلِّف لا يَدُلُّ على وَحْدَةِ الجَوْهر التي تعتقِدُها النَصارى على اختلافِ فِرَقِهِم، فلا يَلْتَزِمُونَ هذه اللوازِم. وكيفَ لا يكونُ كونُ الآبِ مُوَلِّدًا للابنِ أولى من العَكس. وقد ظَهَرَ من كلامِ النَصارى أَنَّهُم أرادوا بالآبِ الذاتَ وبالابنِ الكَلِمَةَ والنُطقَ والعِلْمَ، على اختلافِ العِبارات. وهل يَجوزُ انقِلابُ الذاتِ صِفَةً والصِفَةِ ذاتا.

ثم هلاّ وَلَدَ الابنُ ابنًا آخر والآخَرُ آخرَ هكذا إلى غيرِ النِهاية؛

١) أبرصا

حاشية ٩٨ (١١) لو قُلْنا ذَلِكَ لكُنَّا قد خالَفْنا النَقْلَ والعَقْل. أمّا مخالفةُ النَقْلِ فظاهِرَة. وأمّا مخالَفَةُ العَقْل فلأنه، على هذا التقديرِ، يَلْزَمُ انقلابُ الصِفَةِ ذاتًا ثم صِفَةِ الصِفَةِ ذَاتًا[1] أُخرى، ثم صِفَةِ صِفَةِ الصِّفَةِ ذاتًا[2] أُخرى وهلمَّ جرا. وذلكَ مستحيلٌ واستِحالَتُه ظاهِرَةٌ لكلِّ رشيد.

> وإنِ انْفَصَلَ عنه بِفَصْلٍ جَوْهَرِيٍّ لَزِمَ تَرَكُّبُ البارىء من الجِنْسِ والفَصْلِ، او كانت ذاتُ الابنِ هي مثلَ ذاتِ الآبِ وزيادة. وكل ذلك مُحال.

حاشية ٩٩ (١٢) هذا المُحالُ لا يَضُرُّنا لأنه لا يُلْزِمُنا. وإنّما قلتُ إنَّه لا يُلْزِمُنا لأنه مبنيٌّ على النَقْلِ المَرْدُودِ عمّا قريب.

> ولو كانَ المرادُ بقولِكم – إن البارىء سبحانَه جَوْهَرٌ واحِدٌ ثلاثةُ أقانيم – أنه ذاتٌ عالِمَةٌ حيَّةٌ أو ذاتٌ عاقِلَةٌ لنَفْسها وذاتُها معقولةٌ، كما يُحكَى عن يحيَى بنِ عَدِيٍّ أنَّهُ فَسَّرَ الآبَ والابنَ وروحَ القُدُس بأنَّ كونَهُ عَقْلاً مُجرَّدًا هو الآب، وكونَه عاقلاً لذاتِه هو الابن، وكونَ ذاتِه معقولةً له فهو روحُ القدس، فما قلتموه في أمانَتِكم التي اتفقتُم عليها يُنافي ذلك، فإن فيها تحقيقًا أن الابنَ ذاتٌ غيرُ ذاتِ الآبِ او ذاتَ الابنِ هي التي نَزلَتْ وصَعِدَتْ دون الآب.

حاشية ١٠٠ (١٣) أ – المحكيُّ عن ابنِ عديٍّ، رحِمَه الله، هو المُرادُ بلا شكٍّ؛ وأما كونُ الذي قِيلَ في الأمانَةِ يُنافيهِ فغيرُ مُسَلَّم؛ وكذا كونُ الابنِ ذاتًا غيرَ ذاتِ الآب؛ لأنه غيرُ لازمٍ من إطلاقِ لفظَةِ النُزول والصُعودِ عليه بالاستعارةِ

١) ذات.
٢) ذات.

لضرورةِ العِبارَة، من غيرِ اعتِقادِ التجسيم؛ مع العلمِ بأنَّ النزولَ والصعودَ بالحقيقةِ هو مِن خواصِّ الأجسام. فإن أنْكَرَ اليهودُ هذه الاستِعارةَ في التعبيرِ عن الابن، فهم كيف أَطْلَقُوا لفظَةَ النزولِ على اللهِ تعالى في توراتِهم القائِلَةِ عن اللهِ جلَّ جلالُه: «فنزل اللهُ لينظرَ القريةَ والبُرجَ».

ب – وفي التوراةِ أيضا، حكايةٌ عن اللهِ تعالى: «هَلُمُّوا بنا نَنزِلْ ونُقَسِّمْ هناك أَلْسِنَتَهم». فان كانَ ذَلِكَ بطريقِ الاستِعارة، وليسَ فيه محذورٌ، فلِلنصارَى أُسوةٌ بهم. وإن كان بطريقِ الحقيقةِ فقد جَسَّمُوا، لأن النُزولَ بالحقيقةِ من خَواصِّ الأَجسام، والتجسيمُ أعظمُ محذورًا وأبعدُ عن العَقلِ والدِّينِ من مُنافاةِ قولٍ لقولٍ آخر، لو ثبتَتِ المُنافاة. فكيفَ وهي غيرُ ثابِتة؟

> ويقالُ لليعقُوبيَّة في قولِهم – إن المسيحَ جوهرٌ من جوهَرين واقنومٌ من أُقْنومَيْن، جوهرٌ لاهوتي وجوهرٌ ناسُوتي – إنه ان كان كلُّ واحدٍ من اللاَّهوتيِّ والناسُوتيِّ على حالِه[1] لم ينفصِلْ عَمَّا كان عليه، فهو قولُ النِسطُوريَّة، وإن كان كلُّ واحدٍ منهما قد أَبطلَ الآخر، فقد اقرُّوا بُبطلانِ الإلاه، ولَزِمَهم أن يكُونَ المسيحُ لا قديمًا ولا مُحْدَثًا، ولا إلاها ولا غيرَ إلاه، اذ قد خَرَجَ كلٌّ منهُمَا عمّا كان عليه. وأيضًا فإن العِيانَ يشهدُ بأن ناسوتَ المسيحِ مثلُ ناسوتِ غيرِه، فلا يكونُ اللاهوت قد أَبْطَلَه. وعَكسُهُ لا يجوزُ اذ الجزءُ اللاهوتيُّ هو الذي يُؤَثِّر في غيرِه، وغيرُه يمتنعُ أَنْ يؤثِّرَ فيه.

١) حالة

ويقال للنسطوريّةِ القائلينَ بجوهرين وأُقنومَين إنهما، إن كانا قديمَين، فقد أَثبتُّمْ قديمًا رابعًا، هو ناسوتُ المسيح. وإن كانا مُحْدَثَيْن، كنتم قد قلتُم بحدوثِ الابن الذي تَزعَمُون أنّه أزلي، وعبدتُم ما ليسَ بإلاه، لأنّكم تعبُدونَ المسيحَ وهو على هذا القولِ جَوهرانِ مُحْدَثَان. وإنْ كان احدُهُما قديمًا والآخرُ مُحْدَثًا، كنتم قد عبدتُم القديمَ والمُحدَث، إذ المسيحُ الذي تعبُدونَه مجموعُهُما ومجموعُ القديمِ والمُحدَث، من حيثُ هو هذا المجموع، فهو مُحْدَث. فيكونُ قد عبدتُم المُحْدَث، من حيثُ هو مُحْدَث، لا يستحقُّ العِبادة. فيجبُ أن تُمْحَضَ[1] العبادةُ للقديم، ولا يبقى للمُحْدَثِ في ذلك مَدْخَل. فلا يكونُ قد عبدتُم المجموعَ لو أَخرجتُم المُحْدَثَ عن أن يكونَ له مدخلٌ في العِبادة، وحينئذٍ يثبتُ أن المسيحَ الذي هو عِبارة عن مجموعِ الامرَيْن غيرُ مستحقٍ للعبادة. وهو خِلافُ مُعْتَقَدِكم.

ويقالُ للملكانيّةِ على قولهم – إن المسيحَ جوهران أُقنومٌ واحد، وإن الاتحاد وقعَ بالانسانِ الكُلّيّ، لا بالجُزئي – إن الانسانَ الكُلّيَّ مُشْتَرَكٌ بين جميعِ الناس فلو اتَّحَدَتِ الكَلِمَةُ به لَزِمَ ان لا يُخْتَصَّ بهذا الاتحادِ بعضُ الناسِ دون البعضِ وأنه باطل. وعلى هذا، فكما لم يَكُنْ أُقنومَيْن فكذلِكَ لا يكونُ جَوْهَرين.

فجميعُ مذاهبِكُم إذن باطِلة.

حاشية ١٠١ (١٤) أ – إن قولَ المُصنّفِ في أوائلِ الكتاب: «ولم أَمِلْ في شيءٍ من ذلك مع الهَوى»، قد انتُقِضَ مِرارًا بمَا ذكرْناه في بعضِ الحواشي السالِفة، وبِمَا هوذا أقولُه الآن: وهو أَنَّ من جُمْلَةِ مَيْلِهِ مع الهَوى أنه، عند كلامِه عن

١) تتمحض (P)

اليهودِ، ما عرَّجَ على ذِكرِ فِرَقِهم، وهَهُنا قد ذَكَرَ فِرْقَةً فِرْقَةً من النَصارى على حِدة. ومن مَيْلِهِ مع الهَوى أَيضًا أنه لمّا تَكَلَّمَ على اليهودِ لم يُفرِدِ الأَجْوِبَةَ عن الردود، لكنّه ذَكَرَ الاعتراضَ، ثم أجابَ عنه في الحال. وفي مِلَّةِ النَصارى ذَكَرَ الاعتراضاتِ على التَوالي، ولم يُجِبْ عن شيءٍ منها حتى استوفى الجميع. وأَظُنُّه أَرادَ بذلك المبالَغَةَ في التَشْنيع.

ب – ولمّا كانَ قَصْدي، في هَذِهِ الحَواشي، التَنبيهَ على غَلَطِ الطاعِنين في مُطْلَقِ المِلَّةِ لا في مذاهِبِ الفِرَقِ المنتمية إليها، أَضْرَبْتُ عن الجواب ههنا ولأَنَّ ذلك قد أُفرِدَ له مجلّداتٌ بِلُغَةِ العَرَب. فمن أَحَبَّ الوقوفَ عليها، فليطلُبْها وينظرْ فيها.

ج – هذا ولْنُقَدِّمْ مُقَدَّمَةً على ما سيذكُرُه المُصَنِّفُ من التشنيعِ على النَّصارى. فنقول: إنَّه نَقَلَ عنهم أنهم تَمَثَّلُوا على الاتّحادِ باتحادِ النارِ بالفَحْمَةِ وصيرورَتِها جَمْرَة. فعلى هذا نقول: كما انه لا يجوز، عند العاقِل، الحكمُ على النارِ بمَا يجوزُ به الحكمُ على الفَحْمَةِ المُتَجَمِّرَةِ من أنها تنسَحِقُ أو يكونُ وَزْنُها كذا وكذا، فكذَلِكَ لا يجوزُ عنده الحكمُ على لاهوتِ السيّدِ المسيح، بمَا يُحْكَمُ به على ناسوتِه من الأمورِ البَدَنِيَّةِ كالجوعِ والتَعَبِ والنَوْمِ والسَهَر، وما يُشْبِهُ ذَلِكَ، بل ولا يجوزُ الحكمُ على النَفْسِ الناطِقَةِ بِمَا يَصْدُقُ على بَدَنِها من الحَرْقِ والقَتْلِ والشَنْقِ والتقطيعِ والجَلْدِ والحَبْس، إلى غيرِ ذلك. وهذا لا سبيلَ إلى إنكارِهِ وجَحْدِهِ ولا إلى دَفْعِهِ وَرَدِّهِ.

ثم إنّ اللهَ أكرمُ من أن يقالَ إنه سَكَنَ الرحِمَ في دَنَسِ الحيضَةِ وضِيقِ البَطْنِ والظُلْمَة، او نَظَرَتْ إليه العيونُ الجِسْمانيَّة،

حاشية ١٠٢ (١٥) فكيفَ جاء في التوراةِ، عن مشايخِ بني إسرائيلَ، أنهم أبصروا اللهَ؟ وكيفَ جاء فيها أيضًا أنَّ اللهَ كلَّمَ موسى وجهًا لِوجه، كما يتكلَّمُ الرجلُ مع صاحبِه. وكيف جاء فيها أيضا، حكايةً عن اللهِ تعالى: «وأري وَجْهي لِمَنْ أُريه؟».

او – أصابه سِنَةٌ أو نَومٌ،

حاشية ١٠٣ (١٦) فمَا قولُكَ في قولِ داوودَ النبيِّ القائل: «إستَيْقَظَ الربُّ كالنائم»، وقولِه أيضا: «إستَيْقِظْ ولا تَنَمْ يا ربّ!»

او أحدثَ في ثيابه وبالَ في فراشِه،

حاشية ١٠٤ (١٧) النصارى لا ينسُبونَ ذَلِكَ إلّا إلى ناسوتِ المسيح. وهم، عن آخرِهِم، يُنَزِّهُونَ اللهَ تنزيها. وعلى هذا قِياسُ سائرِ ما يجيُ بعدَ ذلك من التشنيعات. فلا حاجَةَ إلى ذِكْرِ الجوابِ عن واحدٍ واحدٍ منها، اللَّهُمَّ إلّا لضرورةٍ تدعُو إلى ذَلِكَ في بعضِ المواضِع.

او بكى او ضَحِكَ او أخذَهُ على ما لم يُرِدْ عَجزٌ أو سَهى او لَحِقه خوفٌ او فَزَعٌ، او رَغِبَ إلى ما في أيدي الناس، او سُجِنَ، او هَرَبَ، او يُقالُ إنه أكلَ وَشرِبَ او تَشبَّهَ بأهلِ الارض، او إنَّه لم يستطِع أن يَقضِيَ امرَه، وهو في مُلكِه، حتى نَزَلَ على الأرْضِ لِيهْدِيَهُمْ ويُنَجِّيَهم من الشيطان، وإنه جاء ليهديَ الناسَ من الضَلالَةِ ويُطَهِّرَهُم من الخطايا، فعَبَثَتْ به اليهودُ وعذَّبوه وصلبوه وأهانوه؛ ولَبِثَ ثلاثةَ أيامٍ في القبر. ثم أيُّ خطيئةٍ كانت قبل المسيح أو بَعْدَهُ أعظمُ من الخَطيئَةِ التي كانت في زَمانِهِ عِندَكُم. ونَجِدُ الشيطانَ لم يَزَلْ منذُ جاءَ المسيح، كما قد كانَ قبلَ مَجيئِه في الأذى والإضْلال. فإنه فَرَّقَ دينَكم على مذاهبَ

شتّى. فشَهِدَ بعضُكُم على بعضٍ بالضَلالة. وقد قُتِلَ الحواريُّونَ في عِدَّةِ بلاد، وأهانوهم وعذَّبوهم. ولم يَزَلِ الظُّلْمُ والعُدوانُ والقتلُ والكُفْرُ ساريًا في النَّصارى وغيرِهِم من الأُمَمِ إلى هَذِهِ الغاية.

ويقالُ لهم – إنِ اتُّخِذَ المسيحُ إلاهًا لكونِه، على رأيِكُم، من غيرِ وَالدٍ فآدمُ وحوَّاء أعجبُ منه في ذلك. وكذا أصلُ كُلِّ دابَّةٍ خلَقَها الله تع. وان اتُّخِذَ إلاهًا من أجلِ رَفْعِهِ إلى السماء فقد رُفِع قبلَه إيليّا النبيُّ بعد ما ظَهَرَتْ على يَدِهِ المعجزاتُ الكثيرةُ ولم يُصِبْه في بَشَريَّته سوءٌ. فلو جازَتْ عِبادةُ البَشَرِ لكانَ أَحَقَّ بذلك من الذي حُبِسَ وَأُهِينَ وعُذِّبَ وصُلِب. والملائكةُ أيضا ما زالوا مرفوعِينَ إلى أن يُؤْمَروا بالنُزول. وان كان ذلك لأنه سُمِّيَ في الإنجيل ابنَ الله، فأنتم تُقِرُّونَ أن إسْرائيلَ سمَّاه اللهُ ابني بكْري، وقد سَمَّى السيدُ المسيحُ الحوارِيِّينَ إخوتَه. وفي الإنجيل أيضًا – أَحِبُّوا[1] من أحَبَّكُم – إلى قوله – تكونونَ مثلَ أبي وأبيكم الذي في السماء –

حاشية ١٠٥ (١٨) المَحْكِيُّ هَهُنا عنِ الإنجيلِ ليسَ بصحيح؛ وكَذِبُ مثلِ هذا الرَجُلِ الفاضِلِ غايةُ القَبيح.

وفيه – إن انتم كافَيْتُمُ السَّيِّئاتِ بالسَّيِّئاتِ فلا أجرَ لكُم عند أبيكم. وفيه – إن أنتم غَفَرتُم لبني البشر سَيِّئاتِهم فانَّ أباكُمُ الذي في السماء يغفِرُ لكم. – وان ادُّعِيَتْ إلاهيتُه من أجلِ مُعْجِزاتِهِ فغيرُه من الأنْبياء قد فعَلَ ذلك.

ويقالُ لهم أيضا – كيف تقولون إنَّه تدَنَّس بالخَطيئَة حتى طَهَّره يَحيى بنُ زكريا؛ ولا يُمكِنُكم أن تقولوا إنه لم يتدنَّسْ بخطيئةٍ وإلَّا لكان التطهيرُ بالماءِ عبثًا.

١) حبوا (P)

المنقولُ عن النَصارى هَهُنا لَيْس بِصَحيح . وذَلِكَ لاتِّفاقِ طوائِفهم على أَنَّ السيِّدَ المسيحَ إنَّمَا ساوى الناسَ بناسُوته في جميعِ أَحْوالِهم ، ما عدا الخَطِيئَة . فَإِنَّها ما تَطَرَّقَتْ إليه بوجهٍ من الوُجوهِ الفِكريَّة والقَوْليَّةِ والفِعْلِية . ولا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ في الأشخاصِ البَشَريَّةِ السابِقَةِ عليهِ واللاحِقَةِ به من تَنَزَّهَ عن الخَطِيئَةِ سِواه . وأَمّا قولُه : «لكانَ التطهيرُ بالماء عَبَثًا» ، فجوابُه أنه لا يَلْزَمُ ذلكَ إلّا على تقديرِ أن تكونَ الغايةُ من تعميدِ السَّيِّدِ المسيحِ هي التَطْهير، وليس ذَلِكَ عِند النصارى كذا.

وكيف شَرِبَ الإلهُ الخمرَ أو أَكَلَ السمَكَ والصَحْناةَ والصيدَ أو تَعِبَ حتى كان عرقُه يسيلُ على وجهه من الضَعف ؛

لا نِزاعَ في أَنَّ الإنْسانَ مُرَكَّبٌ من بَدَنٍ ونَفْسٍ ناطِقَةٍ مُجَرَّدَة ، مُنَزَّهَةٍ عن الاحتياجِ إلى جميعِ ما يحتاجُ إليه البَدَنُ حالَ البَقاء . ومعلومٌ أَنَّ البَدَنَ لا بُدّ له من الأكلِ والشُربِ وسائِرِ الضَّروريّات . والنَّصارى جَميعُهُم يَعْتَرِفُونَ بأنَّ بَدَنَ السيِّدِ المسيحِ يُساوي أبدانَ الناسِ في الأُمورِ الضَّروريَّةِ التي لا يستغني عنها البَدَنُ ما دام حيًّا. فهذا الاعتراضُ لا يُضِرُّ النَصارى لأَنَّهُ مَخْصوصٌ بالبَدَنِ وحدَه ، ولا تَعَلُّقَ له بالنَفْسِ الناطِقَةِ ، فكيفَ يتعلّقُ ذَلِكَ وأمثالُه بالسِرِّ العَزيز؟

او إِنَّه اختطفَه الشيطانُ فذهَبَ به حيثُ لا يُحِب .

هذا مِمّا أكالَهُ أَصْحابُ الأغْراضِ على النَّصارى الذينَ يعتَقِدونَ أَنَّ تَوَجُّهَ السيدِ المَسيحِ للامْتحانِ مِنَ الشَيْطانِ ، إِنَّماكانَ مِنَ الرُوحِ القُدُسِ ، على ما هُوَ مَذْكُورٌ في الإنْجيلِ إجْمَالاً وفي تفاسيرِه تفصيلاً.

وكيف ذُكِرَ في الإنجيل – إني ما جئتُ لأنقُضَ التوراة لكن جئتُ لأُتَمِّمَها . ونقضتم كثيرًا منها ؛ وفي إنجيل متى أَنَّ جبرئيلَ جاءَ إلى مريمَ فبشَّرها بولد ، ولم يَقُلْ لها أَبشري إنَّكِ سَوْفَ تلِدينَ إلاها . وكان يوسُف زوجَ مريم ، كما في متى ، أنه جاء المَلَكُ ، أي جبرئيلُ ، وقال لِيُوسف : اذْهَبْ ، خذ امرأَتَكَ ولا تَخَفْ . وفي غيرِ مكانٍ من الإنجيلِ أن إيشوعَ هو ابنُ يُوسُفَ وأَقَرَّتْ مريمُ أن إيشوعَ ابنُ يوسف ، فإنه[1] في يومِ وُجْدانِها له في بيتِ المقدسِ قالت – أين كنتَ هو ذا أنا وابوك في همٍّ شديدٍ من أجلك . وأهلُ ناصِرةٍ قالوا – أليس هذا ابنَ النجّار وإخوتُهُ يعقوبَ ويهوذا وأخَواتُه مُزَوَّجاتٍ عندنا وكيف يجوزُ أن يكونَ إلاها تامًّا وهو لا يَعْلَمُ إلا بعضَ الأشياء ، لاكُلَّها . لا سِيَّمَا ، وقد قلتُم إن أقنومَ الابنِ هو الكَلِمَةُ وهي العِلم . ودليلُ عَدَمِ علمِه ببعضِ الأُمور ، الدالِ ذلك على عَدَمِ الاتِّحادِ الذي تدَّعُونه ، ما جاء في إنجيلِ مرقوسَ أنه ، لما أَخْبَرَ بشيءٍ من أهوالِ الساعةِ وأشراطِها ، قال – إن ذلكَ اليومَ وتلكَ الساعَةَ لا يَعلَمُها انسانٌ ولا ملائكةُ السماء ولا الابنُ الا الآب وَحْدَه.

حاشية ١٠٩ (٢٢)

إنَّ هَذا الكَلامَ لَهُ مَحامِلُ في التَفاسيرِ لا يَليقُ نقلُها بِهَذِهِ الحَواشي . غير أَني أَقولُ : إنه مُعارَضٌ بِمَا جاءَ في التَوراةِ من قولِها عَنِ اللهِ تَعالى : «إنَّه سَأَلَ آدمَ قائِلاً : آدمُ ، آدمُ ، أينَ أَنت؟» فَهَلْ كانَ اللهُ تَعالى لا يَعْلَمُ أَيْنَ هو آدمُ حتى استخْبَرَ عنه؟ وهو مُعارَضٌ بِقولِها أيضا عن الله تَعالَى لإبْراهيم : «الآنَ علِمْتُ أَنَّكَ تُحِبُّني !» فَهَلْ كانَ اللهُ تعالى قَبْلَ الآنَ لا يَعْلَمُ أَن إبراهيمَ يُحِبُّه؟ وَهُوَ مُعارَضٌ أيضًا بقولِها في السِفْرِ الخامِسِ ، ما حِكايَتُهُ : وتَدْخُلونَ الأَرْضَ التي حَلَفَ اللهُ لآبائِكُم وتَرِثُونَها وتذكُرونَ الطريقَ كلها التي ساسَكُم

١) فإن (P)

وسارَ بِكُم اللهُ ربُّكم فيها، أربعينَ سنةً في القِفار ليبتَلِيَكُم ويتبيَّنَكُم ويعلَمَ ماذا في قلوبِكم. فهَلْ كانَ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَبْتَلِيَهُم غيرَ عالِمٍ بِمَا في قُلوبِهِم؟ تَعالى اللهُ عن ذلِكَ وتقدَّس!

وفي الإنجيلِ انه رَقَدَ في السفينَةِ ولم يَعلم حتى أَيقظَه بعضُهم. وداودُ النبيُّ يقول – هو ذا لا ينامُ ولا يرقدُ حافِظُ اسرائيل. ويقول – يا ربّ، من يُشبِهُك، لا تَنَمْ يا عال.

حاشية ١١٠ (٢٣) ودَاوودُ أَيضًا يَقول: «إستَيقَظَ الرَبُّ كالنائِم»؛ ويَقولُ أَيضًا: «إستَيقِظْ ولا تَنَمْ، يا رَبّ!».

وفي الإنجيلِ: مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثقالُ خردلَةٍ إيمانًا[1] يَقولُ لِلجبالِ اتْبعيني فَتَتْبَعُه.

حاشية ١١١ (٢٤) هذا المَحكيُّ عَنِ الإنْجيلِ لَيْسَ بِصَحيح لأنه مُحَرَّفٌ، وَفيهِ زِيادَةٌ على ما في الإنْجيل.

ونجد المؤمنين بالمسيح لا يقدرُ أحدهُم على تسيير حجرٍ لطيفٍ ولا شيء غيره.

وفيه ما مَعناهُ – العُصْفورُ وَجدَ وكرًا يسكنُه، وَوَجدَ الثعلبُ جُحْرًا[2] يسكنُه، وابنُ البَشَرِ لَمْ يَجِدْ مَكانًا يَسْكُنُه، مَعَ أَنَّ أَشعيا النَبِيَّ يقولُ إنَّ المَسيحَ يَجْلِسُ على مِنْبَرِ داودَ فيَقْضي بينَ الناسِ بعدلٍ وحقّ.

حاشية ١١٢ (٢٥) أَمّا هَذا الكَلامُ فتَأويلُهُ عِنْدَ النَصارى يُخْرِجُهُ عَنْ أَنْ يَكونَ حُجَّةً عليهم. وأَمّا ما أَسْلَفْنا نَقْلَهُ مِنْ كَلامِ أَشْعَيا النبيِّ عَلَيْهِ السَلامُ عن بني إسرائيل فَفيهِ

١) إيمان (P)
٢) حجرًا (P)

عَلَيْهِم من الحُجَجِ القاطِعَةِ ما لا سَبيلَ إلى التَقَضيّ منه بالتأْويل.

وقامَ إيشوعُ فَغَسَلَ أَرْجُلَ الحواريين بالماء وقال – لم يَجِئ ابنُ البَشَرِ ليُخْدَمَ ولكن جاءَ ليَخْدُمَ – ولم يَدْعُ نفسَه إلاهًا تامًّا قطّ.

وأمّا الصليبُ فأظهرتْه هيلاني وقُسْطَنطينُ بعد إيشوعَ بحُدودِ ثَلَثْمائةِ سَنة، وَلَيْسَ هو في الإنجيل ولا في شَيءٍ من الكتُب.

وقالَ له رجُل: طهّرْني. فأجابه – أنا حريصٌ أن أُطَهِّرَكَ، اذهَبْ إلى الكاهِنِ، فأَرِهِ نَفْسَكَ، وقرِّبْ قُربانًا، كما قالَ اللهُ لموسى في التوْراة.

حاشية ١١٣ (٢٦) المَحكِيُّ هَهُنا مُحَرَّف عمّا هو في الإنجيل؛ ولم يكن غرضُ السيِّدِ المسيحِ، على رأيِ النَصارى، ما ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ هَهنا، لكنَّه بعدَما طَهَّرَهُ من بَرَصِهِ بمُجَرَّدِ قولِهِ: «قد اختَرْتُ تطهيرَكَ فاطْهُر»، لا بِوَضْعِ يدٍ عليه لِئَلّا يُتَوَهَّمَ أنَّه كان بِضَرْبٍ من المُداوَاةِ، أَمَرَهُ، بَعْدَ ذلك، أن يُرِيَ نفسَه للكاهِنِ الذي حَكَمَ بإخراجِهِ من بَيْنِ الأُمَّة، وتَجَنُّبِ ملامَسَتِهِ، لِيَثْبُتَ عِنْدَ الكاهِنِ عَظَمَةُ هذا المُعْجِز، ويُجيزَ عودةَ ذلِكَ الذي كانَ به البَرَصُ الى بَيْتِهِ، بَعْدَ أنْ كانَ مَنْفِيًّا.

فكَيْفَ يُتَّخَذُ من ليسَ له سُنَّةٌ بل يُحيلُ على سُنَّةِ غَيْرِهِ إلاها؟ هذا مع انه قال – من نظَرَ إليَّ فقد نظَرَ إلى أبي وأنا وأبي سَواء. وقالَ لتَلاميذِهِ – اجلسوا ههنا حتى أُصَلّي. وقال – بَلَغَتْ نَفْسِيَ المَوتَ، انتظِروا هَهُنا واستقِرّوا قليلاً حتّى أُصَلّي. وقال في صلاتِهِ – يا أبي نجِّني إن أمكَنَ وتجوزُ عنّي هَذهِ الساعة. وقالَ لِشِمْعونَ – ألا تَقْدِرُ تَسْهَرُ معي ساعَةً وَاحِدَةً؟ قُمْ نَذْهَبْ، فإنها قد بَلَغَتِ الساعة. وكانَ قد قالَ

قَبْلَ ذَلِكَ – وهذا ابنُ البَشَرِ يُسْلَمُ في أَيْدي[1] الخاطِئينَ ويَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيَبْزُقُونَ في وَجْهِهِ.

وَمِنْ قَبْلُ صامَ أَرْبَعينَ يَوْمًا في الجَبَلِ لِيُمْتَحَنَ مِنَ الشَّيْطانِ، يَصومُ ويُصَلّي وَيَرْغَبُ إلى الله، عَزَّ وَجَل. ثم أَصابَه الجوعُ الشَّديد، كما قالَ في الإنجيل – فَلَمْ يَزَلِ الشَّيْطانُ في طَلَبِ ايشوعَ فَوَجَدَهُ في الجَبَلِ وَقَدْ تَلِفَ جُوعًا وَعَطَشًا. فَقالَ لَهُ الشَّيْطانُ – إنْ كُنْتَ ابنَ الله، كما تَقولُ فَقُلْ لِهَذا الحَجَرِ حَتّى يَكونَ خُبْزًا تَأْكُل. فَقالَ ايشوعُ للشَّيْطانِ – مَكْتوبٌ في التَّوْراةِ لَيْسَ على الخُبْزِ وَحْدَهُ يَحيا ابنُ البَشَرِ، لَكِن بِكَلامِ اللهِ يَحيا ابنُ البَشَر. فَأَخَذَ الشَّيْطانُ ايشوعَ[2] حتى أَدْخَلَهُ بَيْتَ المَقْدِسِ وَأَصْعَدَهُ رَأْسَ الهَيْكَلِ وَقالَ لَهُ – إنْ كُنْتَ ابنَ اللهِ، كما تقول، فارْمِ نَفْسَكَ إلى أَسْفَلَ ولا يُصيبُكَ شَيْءٌ مِنَ السُوء. فَقالَ إيشوعُ للشَّيْطانِ – مَكْتوبٌ في التَّوْراةِ – لا تُجَرِّبُوا اللهَ إلاهَكُمْ. وَقالَ الشَّيْطانُ لإيشوعَ – الدُنيا وَمُلْكُها وَكُلُّ خَيْرٍ فيها فَهْوَ لي، اسْجُدْ لي وَخِرَّ لي على وَجْهِكَ. فَقالَ إيشوعُ للشَّيْطانِ – اذْهَبْ، يا شَيْطانُ، مَكْتوبٌ في التَّوْراةِ – اللهَ رَبَّكَ خَفْ وَإيّاهُ اعْبُدْ وَبِهِ اسْتَعِنْ وباسْمِهِ احْلِفْ.

حاشية ١١٤ (٢٧) جَميعُ ما حَكاهُ المُصَنِّفُ هَهُنا عَنِ السَّيِّدِ المَسيحِ، لَيْسَ هُوَ كَما جاءَ في الإنْجيلِ، لَكِنَّ فيهِ تَحريفًا[3] وزِيادَةً ونَقْصًا[4]، يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ يَتَصَفَّحُ هَذا الكَلامَ مِنَ الإنْجيل.

١) يدي (P)
٢) فأخذه الشيطان لايشوع.
٣) تحريف
٤) نقص.

فَتُرى لِمَنْ كانَ يُصَلّي ويَصومُ إذا كانَ إلاها؟

حاشية ١١٥ (٢٨) أ – كانَ يُصَلّي وَيَصُومُ لأَبيهِ إلهِ الآلِهَةِ وربِّ الأرباب، كما هُوَ مَذْكورٌ في الإنْجيلِ، وثابتٌ في أَذْهانِ كافَّةِ النَصارى. فَإِنَّ السَّيِّدَ المَسيحَ قالَ: «أَبي أَعْظَمُ مِنّي»؛ وَقالَ: «إنّي صاعِدٌ إلى أَبي وَأَبيكُمْ، وَإلَهي وَإلَهِكُم»؛ ولا شَكَّ أَنَّ جَميعَ الشَّنيعاتِ التي ذَكَرَها المُصَنِّفُ – وَسَيَذْكُرُ غَيْرَها فيما بَعْدُ – لَها عِنْدَ النَصارى، في التَفاسير، وُجوهٌ كَثيرة تُزيلُ الشَناعَةَ عَنها، لَوْ قَصَدَ نَقْلَها لاحْتاجَ الى مجلّد كبير!

ب – واعْلَمْ أَنَّ المُصَنِّفَ سَلَكَ، في هذا الكِتابِ، طَريقَ التَعَصُّبِ لليَهودِ، والتَعَصُّبِ على النَصارى؛ حتى إنه – لِقِلَّةِ إنصافِهِ – حَرَّفَ كَلامَ الإنجيلِ الذي نَقَلَهُ في هذا الكِتابِ، وزادَ عليه تارةً، ونَقَصَ منه تارَةً أُخْرى، كلُّ ذَلِكَ مُبالَغَةً في التَشْنيعِ على النَصارى، وسَوْقِ كلامِهِم إلى الباطِلِ، بالحِيَلِ السوفِسْطائِيَّة.

وكَيفَ تُدَّعى[1] إلاهيَّةُ مَن يَتَلاعَبُ بِهِ الشَّيْطانُ؟

وَقَدْ نَسَبَهُ لوقا إلى آدم، ونَسَبَهُ مَتّى أَيضًا بِنَسَبٍ مُخالِفٍ لِذَلِكَ في بَعْضِ الآباء، وقالَ في أَوَّلِ النَسَبِ إنه ايشوعُ ابنُ داودَ بنُ ابراهيم. وقالَ في آخرِهِ إن ماثانَ أَوْلَدَ يَعْقوبَ، ويعقوبَ أَوْلَدَ يُوسُفَ، زَوْجَ مَرْيَمَ التي وُلِدَ منها إيشوعُ المدعوُّ بالمسيح. وأخبر متّى أن يوسُفَ لم يعرفْ مريمَ إلى ان وَلَدَتْ ابنَها البِكْرَ؛ ويهوذا، أحدُ أَصحابِهِ وخواصِّه الإثني عَشَرَ، هو الذي دلَّ اليهودَ عليهِ وسَلَّمَهُ إليهم حتى صَلَبُوه. وأَخَذَ أُجْرَتَهُ

١) يدّعى.

عَلى ذَلِكَ منهم ثلاثِينَ دِرْهَمًا مِنَ الوَرَقِ . ولو ثَبَتَ عِنْدَهُ أنه نَبيٌّ ، فَضْلاً عن أنه إلاه ، لما استَجازَ ان يَفْعَلَ ذَلِكَ لأَجْلِ أَخذِهِ هَذا القَدَرَ النَزْرِ .

حاشية ١١٦ (٢٩) لَوْ لَمْ يَكُنْ سكرانَ العَقْلِ عِنْدَما فعَلَ ذلك ، لمَا فَعَلَهُ . لكِنَّهُ عندما صحا[1] عقلُهُ من سَكْرَتِهِ نَدِمَ نَدامَةً أدَّته إلى أن أعادَ المَبْلَغَ إلى الكَهَنَةِ ، واعترَفَ لديْهِم قائِلاً : أَخْطَأْتُ لِكَوْني سَلَّمْتُ الدَّمَ الزَكيَّ[2] . ومَضَى ، بعد أن أعادَ مالَهُم إليهم ، فشَنَقَ نَفْسَهُ نَدَمًا على الذي فَعَل . ولو لم يَتَيَقَّنْ أَنِ اجْتَرَمَ جَرِيمَةً لا يُمْكِنُهُ استِدْراكُها لمَا سَمَحَ بِنَفْسِه . على أَنَّ هَذا الأمرَ وغَيْرَهُ من وقائِعِ السَّيِّدِ المسيحِ كانَ قد أُنْذِرَ بِهِ الأَنْبِياءُ ، منذ زمانٍ طويلٍ ، على ما هو مَذْكورٌ في كُتُبِهِمْ ومَحْكِيٌّ عَنْهُم في الإنْجيل .

وكانَ في جُملَةِ تَعذيبِهِم لإيشوعَ وَشُهْرَتِهِ ، لمّا أَرادُوا صَلْبَه ، أن غطّوا رَأْسَه ووجْهَهُ وجعَلوا يَضْرِبُونَ رَأْسَهُ بالقَصَبِ ويقولونَ له - تَنَبَّأْ لنا ، أيها المسيحُ ، من ضَرَبَكَ ؟ وبعضُ عبيدِ عظيمِ الكَهَنَةِ لَطَمَ وَجْهَهُ . وتَفَلوا فيه .

واللهُ تعالى يقولُ لموسى عم لا يَراني أَحَدٌ فيعيشُ .

حاشية ١١٧ (٣٠) فكيفَ قالتِ التوراةُ عن مشايخِ بني إسرائيل : إنَّهُم رَأَوُا الله . ولا جاءَ فيها ولا في الخَبَرِ أَنَّه ماتَ حينئذٍ ولا فردٌ شَخْصٌ .

١) صحى.
٢) الذكيّ.

وقالَ بَنو إسرائيل لموسى - كَلِّمْنا أَنْتَ ، نَسْمَعْ ونُطِعْ[1] ، ولا يُكَلِّمْنا الربُّ فنمُوت . فكيف يكونُ ، والحالةُ هذهِ ، من يُلْطَمُ وجهُهُ إلاهًا !

حاشية ١١٨ (٣١) مَنْشأُ المُغالَطَةِ ، في جميعِ ما ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ ، قَصْدًا لِلتَّشْنِيعِ ، هو عَدَمُ الفَرْقِ بَيْنَ أُقْنومِ الابنِ الأَزَلِيِّ المُتَّحِدِ بالسَّيِّدِ المسيحِ ، وبينَ أُقنومِ الآبِ المُنَزَّهِ عن ذَلِكَ . فهو يَحْمِلُ الكلامَ المنسوبَ إلى السيدِ المسيحِ ، باعتبارِ ناسوتِهِ ، على أَنه منسوبٌ إلى الآبِ ، باعتبارِ مُجَرَّدِ لاهوتِهِ . وهذا دليلٌ على قِلَّةِ إنصافِهِ ، وكَثْرَةِ مَيْلِهِ مَعَ هوى[2] نفسِهِ ، طَلَبًا لِرِضى[3] اليهودِ الذينَ قال في حَقِّهِم أنبياؤُهُم ما أَسْلَفْنا نَقْلَ بَعْضِهِ في الحواشي السابقَة ، مع الإِجْماعِ على أَنَّ الأنبياءَ ، سلامُ اللهِ عليهِم أَجْمَعِين ، لا يُتَّهَمُونَ بالتَعَصُّبِ على أَحَدٍ ، ولا بِالكَذِبِ عليه ، بِخِلافِ حالِ المُصَنِّفِ مع النَصارى .

وطافَ اليهودُ بإيشوعَ يومَ الجُمْعَةِ إلى نِصْفِ النهار ، وعلى عُنُقِهِ خشبَتُهُ التي صُلِبَ عليها . وجاء شمعونُ القُورِيني فَحَمَلَها عنه ، بزَعْمِكُم ، ثُمَّ ذَهَبُوا به فَصَلَبُوهُ عليها وسَقَوه الخَلَّ وطعَنُوه بالحَرْبَةِ بعدَ موته . فَقالَ إيشوعُ ، وهو عليها - إلاهي ، إلاهي لِمَ تَرَكْتَني . ولم يَزَلْ مصلوبًا حتى سَأَلَ فيهِ يوسفُ الذي من رامةِ يَهوذا فوُهِبَ له جَسَدُه ، فدَفَنَهُ ميتًا . وهذا كلُّهُ ينطقُ به الإنجيل .

وبزَعْمِكُم أَنَّ جَميعَ أَنفُسِ البَشَرِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدمَ كانَتْ مَسْجونَةً حتى ماتَ إيشوعُ ، فأُطْلِقَتْ . وتَدْخُلُ في ذلك أَنفسُ جميعِ الأَنبياء والصالحين .

١) نطيع (P)
٢) هوا.
٣) رضا.

وليسَ في الأناجيلِ ما يَدلُّ على أنَّ إيشوعَ خاطبَهُ اللهُ إلا مَرَّةً واحدةً، كما جاءَ في يُوحنا أنه قال المسيحُ – يا أيُّها الآبُ، مَجِّدِ اسمَكَ، فجاءَهُ صوتٌ من السَماءِ يقولُ – مَجَّدْتُ وأيضًا أُمَجِّد. – فكَيْفَ كَلَّمَ عَبْدَهُ موسى مرارًا لا تُحصى، ولمْ يُكَلِّمْ وَلَدَهُ وحَبِيبَهُ إلا هذهِ المَرَّةَ؟

حاشية ١١٩ (٣٢) لِقائِلِ النَصارى أن يقول: إنَّ المُخاطَبَةَ تكُونُ لِمَنْ بَيْنَهُ وبينَ المُخاطِبِ حِجابٌ يَسْتُرُ عَنْهُ الأمرَ المُخاطَبَ به. ونحن لا نَعْتَقِدُ أنَّ بينَ السَّيِّدِ المَسيحِ وَبينَ اللهِ حِجابًا[1]، وإلّا لتكَرَّرَتِ المُخاطَبَةُ مِرارًا عَديدة. وهَذِهِ المَرَّةُ إنَّما كانَتْ دَفْعًا لِدَعْوى من عَساهُ يَدَّعِي انحطاطَ مَرْتَبَةِ السَّيِّدِ المَسيحِ عن اسْتِحْقاقِ المُخاطَبَة.

وسَتَرَ وَجْهَهُ موسى رَسولُه فلم يَسْتَطِعْ أحَدٌ أن ينظرَ إليهِ من النور، وفعلَ مع وَلَدِهِ ما يُنافي ذَلِكَ وَتَرَكَهُ للهوانِ بين أعدائِهِ؟

حاشية ١٢٠ (٣٣) إن في شَرَفِ السَّيِّدِ المَسيحِ الباطِنِ غِنًى عن كل شَرَفٍ ظاهِر. وأمّا العوارِضُ البَدَنِيَّةُ فلا اعتبارَ بها. وأمّا أفعالُ اللهِ، فلا اعتراضَ عليه فيها، لأنه يَفْعَلُها بمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ الخَفِيَّةِ عن عُقولِ العُقَلاءِ من البَشَرِ، بل عن الملائِكَةِ المُقَرَّبين.

وقد جاءَ في كُتُبِ الأنبياءِ من علاماتِ المسيحِ وما يكونُ في زمانِهِ ما لم يظهَرْ في إيشوعَ ولا في زمانِهِ مثلُ ما جاءَ في كلامِ بَعْضِهِم ما معناه – إنّه يَضْرِبُ الأَرْضَ بسَوْطٍ فيه، وبريحِ شَفَتَيْهِ يُميتُ الخاطِئَ، وإنّه

١) حجاب.

يَجلِسُ على مِنْبَرِ داودَ فيقضي بينَ الناسِ بِعَدْلٍ وحَقّ، وإن الحروبَ ترتفِعُ ولا يَرْفَعُ أَحَدٌ على أحدٍ سيْفا، وإن الذئبَ والكَبْشَ يَرْبُضانِ معًا ويَرْعَيانِ جميعًا، وإن الاسدَ يأكلُ التبنَ كالبقر. وهذا، إن كانَ على ظاهِرِه، فَلَمْ يَجْرِ ولم يَقَعْ في أيّامِ إيشوعَ ولا بَعْدَهُ.

حاشية ١٢١ (٣٤) الذي يَعْتَقِدُ أنَّ هذا على ظاهِرِهِ، ليسَ له في الإنسانِيَّةِ نصيبٌ ولا يَسْتَحِقُّ أَبَدَ الآبِدينَ أن يُخاطِبَه لبيب.

وان كانَ مَثَلاً، وذَلِكَ هُوَ الأَظْهر، فهوَ مَثَلٌ لارتفاعِ الشرورِ من العالمِ وزَوالِ العُدوانِ من بَيْنِ الخلق. ولم يَجْرِ في زَمانِهِ الا خلافُ ذَلِكَ مِن زِيادَةِ العَداوةِ بينَ الناسِ بِسَبَبِ ظُهورِهِ، وارتكابِهِم الذُنوبَ العظيمةَ فيه وفي اصحابه.

حاشية ١٢٢ (٣٥) ما الدَليلُ أنه مثلٌ لِمَا ذَكَرْتَ؟ وما المانِعُ عن أنه يكونُ مَثَلاً لغيرِ ذلك؟

وجاءَ أيضًا أنه في ذلكَ الوقتِ يَتَنَبَّأُ البنونَ والبناتُ من بَني إسْرائيلَ وأنَّه يُبْعَثُ إلِيَّا النبيُّ فيردُّ قلوبَ الآباءِ على البنينَ وقلوبَ البنينَ على الآباء. وأمثالُ هذهِ الأشياءِ من علاماتِ ظُهورِه في كلامِ الأنبياءِ كثيرة. وكلُّه لم يَظْهَرْ منه شيءٌ إلى الآن. والقَدَرُ الذي أوردتُه منها إنَّما أوردتُه بمعناه، لا بألفاظِه، ولا على تَرتيبِها في كُتُبِ النبوات.

حاشية ١٢٣ (٣٦) أ – إنَّ المصنِّفَ قد تَوَهَّمَ أنَّ عَدَمَ ظُهورِ هَذِهِ العلاماتِ إلى الآنَ إنَّما هو حُجَّةٌ لليهودِ على النَّصارى، ولم يَعلَمْ أنَّ ذَلِكَ من أكبرِ الحُجَجِ القاطعةِ للنَّصارى على اليَهود. وبيانُ ذلك أنَّ دانيالَ النبيَّ عليه السلامُ ذَكَرَ في نُبوءَتِهِ، وهو يومئذٍ في بابلَ، بعدَ واقعةِ بَختَنَصَّرَ بمُدَّةٍ قليلة، ما معناه: أن من

بعدِ سبعينَ سابوعًا[1] سوفَ يأتي المسيحُ. ولا شكَّ أن لَفْظَةَ السابوعِ في كلامِهِ،
لها احتمالاتٌ كثيرة. فقد يُرادُ بالسابوعِ سبعةُ أيام، أو سبعةُ أشْهُرٍ، أو سبعُ
سنينَ أو سبعونَ سنة، أو ما يَزيدُ على ذَلِكَ مثلُ سبعِ مائةِ سنةٍ وسبعةِ آلاف
سنة.

ب – أمّا على تقدير أنْ يُرادَ به ما دُونَ سبعينَ سنةً، فلا حاجةَ للكلامِ
عليه، لأنه بخلافِ الواقعِ. فبَقِيَ أن يُرادَ به سَبعون[2] سنةً أو ما فوقَها من
الاحتمالات. فإن كان المرادُ سبعينَ سنةً، فقد مضى، إلى تاريخنا هذا،
أضعافُ هذه المُدَّةِ، وما ظَهَرَ منَ العلاماتِ المذكورةِ لا ما قَلَّ ولا ما كَثُر.
فبقِيَ أن يكونَ المرادُ بالسابوع سبعَ مائةِ سنة. فلننقلِ الكلامَ إليهِ وَنَقُل[3]: إنه
على هَذا التقديرِ يَنبَغي أن يظهَرَ المَسيحُ بَعْدَ تِسعٍ وأَربَعينَ أَلفَ سَنَةٍ لتاريخِ
نُبوءةِ دانيالَ عليه السَلام. وقد مَضى من ذلك إلى تاريخنا هذا ما يقارِبُ
أَلْفَيْ سنةٍ، فيلزَمُ على ذلك، أن يكونَ مجيءُ المسيح، بعد تاريخنا، تقريبًا[4]
من سبعٍ وأربعينَ ألفَ سنة.

ج – وكافَّةُ اليهودِ في انتظارِهِ عن قريبٍ حتى قد غَلَبَ على ظَنِّ كثيرٍ من
عُلَمائِهِم المعاصرينَ أن يكونَ في زمانِ القِرانِ التالي لهذا القِرانِ الذي نحن فيه؛
وقد بَقِيَ من هذا القِرانِ قريبُ تسعِ سنين، ومدةُ القِرانِ التالي له جميعُها
قريبُ عشرينَ سنةً، فيكونُ المجموعُ دونَ ثلثينَ سنة. وهذا المبلغ يُقْتَضَى قبل

---

١) سابوع.
٢) سبعين.
٣) نقول.
٤) تقريب

سَنَةِ سبعينَ وسبعمائةٍ للهجْرة. فإنْ كان كلامُ هؤلاءِ هو الصّحيح، فكان ينبغي
أن يَظْهَرَ في زمانِنا هذا بعضُ العلامات. وإن كانَ ذاك هو الصَحيح، فلينْظُرِ
اليهودُ مَسيحَهم بعد سبعٍ وأربعينَ ألفَ سنة، يزيدُ على تاريخِنا هذا.

د – وأيضًا فعلى اليهودِ حجةٌ أخرى للنصارى ظاهِرةٌ قاطعةٌ، وهي قولُ
دانيالَ عليه السلامُ ما معناه: «إن المسيحَ يُقْتَلُ، فتَخْرَبُ مَدينةُ القُدْسِ
بعدَ ذَلِكَ بسببِ قتله. ومعلومٌ أنَّ المسيحَ قُتِلَ منذُ مدةٍ تُنيفُ على ألفٍ وثلثمائة
سنة. والقدسُ خَرِبَ بُعَيْدَ ذلك؛ وهو خرابٌ إلى الآن.

> ثم جميعُ ما ينقلونَه عن السيِّدِ المسيحِ من المُعْجزاتِ وغيرِها فهو
> عن الأَفرادِ الذين هم اصحابُه، فلا يكونُ متواترًا ولا موثوقًا اليه،
> وبتقديرِ صِحَّةِ النَقْلِ فهو غيرُ بعيدٍ في العَقْل أن يكون واقعًا بالحِيَلِ او
> بالمُواطأة عليه.

حاشية ١٢٤ (٣٧)

أ – مَنْ أَمَرَ أربابَ البَرَصِ بالتَطَهُّرِ فتطَهَّروا، وأَمَرَ الشياطِينَ بالخُروجِ
فخَرَجُوا، وأَمَرَ الزَمْنَى بالنُهوضِ فنَهَضوا، وأَمَرَ المَيْتَ الذي في التابوتِ
وهو مُشَيَّعٌ خارجَ البَلَدِ، قائِلاً له: «يا غلامُ، لكَ أَقولُ قُمْ»، فانبَعَثَ حيًّا،
وعاد مع الذين يُشَيِّعونَه إلى البَلَد، كيفَ لم يَبْعُدْ في العَقْلِ أن يكونَ بالحِيَل،
وكيفَ تَتَهَيَّأُ الحِيَلُ والتَواطُؤُ في هَذِهِ المواطِنِ التي ما خَلَتْ من حُضورِ قومٍ
لا يُتَوَهَّمُ جوازُ تواطُؤِهِم عليها، سِيَّمَا وقد وَقَعَ من هذه المَعاجزِ ما شاهَدَهُ
مَنْ كانَ يَتوقَّعُ له عَثْرةً يجعَلُها حُجَّةً عليه، لينالَ منه الغَرَض، بِحَسَبِ
الاستِطاعة.

ب – ألا تَرى أنه قال للزَّمِنِ الذي حملوه إلى المَجْمَعِ الذي كانَ فيهِ
السَّيِّدُ المَسيحُ يَوْمَئِذٍ: «يا ولداه! قد غُفِرَتْ لكَ خَطاياك» فَدَمْدَمَ عليه

الحاضِرونَ من اليهودِ قائلين: «ما هذا الافْتِراءُ؟ مَن ذا الذي يَقْدِرُ على غُفْرانِ الخطايا والذنوبِ غيرُ الله» ، فأجابَهم قائِلا: «أَيُّهُما[1] أَسهلُ ، أَأَنْ يُقالَ له: «قد غُفِرَتْ خطاياكَ» ، أو أن يُقالَ له: «قمْ فاحمِلْ سريرَك» ، حتّى تَعْلَمُوا[2] أن ابنَ البشرِ له من السلطانِ ما يَغْفِرُ به الخَطايا ، ثم التَفَتَ إلى الزَمِنِ قائِلاً: «قمْ فاحْمِلْ سريرَك» وفي الحالِ نَهَضَ قائمًا ، وحَمَلَ سريرَهُ ومضَى.

واذا لم يَثْبُتْ صحةُ نَقْلِهِم لم يَتَحَقَّقْ ما ادَّعَوْه من كَوْنِهم عَلِمُوا بالضَرورةِ من رَأْيِ الحِواريينَ والسَّيدِ المسيحِ أَنَّ شريعَتَهُم لا تُنْسَخ.

فهذا ما رأَيْتُ ان اذكُرَه من المطاعِنِ عليهم.

وأَجْوَدُ ما لَهُم أن يُجيبوا به

عن هذهِ الاشياء ما هو ذا انا ذاكرُه.

وهو أَنَّهم يَقولون – أما الأَقانيمُ وحَصْرُها في الثلاثةِ فَنَتْبَعُ فيهِ ما وَرَدَ بِهِ الأمرُ ولا نَعْلَمُ لأيِّ معنًى حُصِرَتْ في ذلكَ العَدَد.

وأما الاتّحادُ فَنَجْهَلُ كَيْفِيَتَه في هذا العالم ، ورُبَّمَا انكشَفَتْ حَقيقَتُهُ لنا في العالمِ الآتي. وإنَّمَا نُؤْمِنُ به لوُرُودِهِ في الإنْجيلِ وأَخبارِ الحِواريينَ وشواهِدِ الأنْبياء. فإنَّ في الإنجيل – مَنْ نَظَرَ اليَّ فقد نَظَرَ إلى أَبي ، وأنا وأبي سَواء. وان المَلَكَ قالَ للرُعاة – اليومَ اتَّلَدَ لكم مُخَلِّصٌ هو الربُ إيشوعُ المسيح ، وإن زَوْجَةَ زَكَرِيَّا قالَتْ – من أَيْنَ لي هَذِهِ النعمةُ أَنَّ أُمَّ رَبي تأتي إليَّ. وفي أَوَّلِ إنجيلِ مرقُوسَ: إنَّ هَذا ابتداءُ انجيلِ إيشوعَ المسيحِ ابنِ الله. وقال يُوحنا – إن الكلمةَ صارَ لَحمًا وحلَّ فينا. وأقوالُ الحِواريينَ في ذَلِكَ كثيرة.

ومن شواهِدِ الأنبياء على الاتّحادِ قولُ أيوب – أنا أَعْلَمُ أَنَّ مُخَلِّصي

١) أيّاما.
٢) تعلمون.

حَيٌّ وفي آخرِ الزمانِ يَسْلُكُ عَلى الأَرض. وقالَ سُلَيْمان – حَقًّا يجْلِسُ الربُّ على الأرض. وقالَ أَشعيا – إن البتولَ تَحْبَلُ وتَلِدُ ابنًا ويُدْعى اسمُه عِمْنوال. وقال داود – إنَّ إلهَ الآلهة يترآءى في صهيون. وأيضًا يَقول – قالَ الربُّ لربي.

وأما جميعُ ما وُصِفَ به المسيحُ وحُكِيَ عنه مما يُنافي إلاهيتَه ، كالنَومِ والأَكْلِ والأَلَمِ وغيرِ ذلك ممّا عُدّ ، فإنّما هو باعتبارِ ما فيه من الناسوتِ ، لا باعتبارِ اللاهوت. ولهذا قُلْنا إنَّه انسانٌ تامٌّ وإلاهٌ تامّ.

وأما قولُكم إنه لا يستطيعُ أن يقْضِيَ أمرَه حتى نَزَلَ إلى الأرض ، فنَحنُ لا نَقولُ ذلك ، بل هوَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ وفعَلَ ذلكَ كما أراد ، ولا يجوزُ اعتِراضُه في مُلْكِه. ونحن فلا اطّلاعَ لنا على دقائقِ حِكْمتِه. ثم هذا مُعارَضٌ بمُعْجِزاتِ سائرِ الأنبياء فإنه كان قادِرًا على هِدايَةِ الخَلْقِ بدونها ، مع أنه لا يُقالُ لو استطاعَ ذلك لما فَعَلَها ، بل هو مُعارَضٌ بكلِّ فعلٍ يفعلُه الباري ، عزّ وجلّ ، لفائدةِ العباد. فانه قادرٌ على إيصالِ تلك الفائدةِ إليهم من غَيْرِ توسُّطِ ذلك الفِعل.

وأما كونُ الخطايا لم تَرْتَفِعْ مِن الأرضِ بِظهورِ المسيح فما ادَّعينا أَنها تَرْتفِعُ بالكُلِّيَّةِ بحيثُ لا يُفْعَلُ في الأرضِ شرٌّ ولا خطأٌ ، بل ادّعينا ارتفاعَ كثيرٍ من الكُفْرِ والفِسْق. وذَلِكَ فلا شكَّ في وقوعِه. فإن بسببِ ظهورِهِ انتَشَرَ الايمانُ والعَدْلُ في بقاعٍ كثيرةٍ من المعمُورَة.

وأمّا ادّعاءُ الإلاهيّةِ فليسَ لحالةٍ واحدةٍ من أحواله ، أو حالتَيْن منها ، أو أكثر ، بِحَيْثُ يُعارَضُ ذَلِكَ بغيرِهِ من الأنبياء وغيرِهم ، وإنّما هو لمجموعِ أحوالِه. ومعلومٌ أنَّ ذَلِكَ لم يَجْتَمِعْ لغيره ، لا قَبْلَهُ ولا بَعْدَه.

وأمّا كونُ غيرِهِ أُطْلِقَ عليه أنه ابنُ الله ، فذلِكَ مجازًا باتّفاقِ المُوافِقِ والمُخالِفِ ، وإطلاقُه عليه فَحَقيقةٌ لتواتُرِ ذَلِكَ عن الحِوارِيِّينَ الذين عنهم أُخِذَتْ عَقيدةُ المِلَّةِ النَصْرانية.

وأما قولُه – إني ما جئتُ لأنقُضَ التوراةَ ولكن جئتُ لأُتَمِّمَها –
فالمرادُ منه ان التوراةَ وُعِدَ فيها مجيءُ المسيح، والشرائعُ التي فيها إنَّما يَلْزَمُ العَمَلُ بِجَميعِها إلى حينِ ظهورِه، لا إلى الأبد، أو إلى يوم القيامة. فحيثُ ظَهَرَ فَقَدْ كَمُلَتْ بِنَجازِ الوَعْدِ به أوّلا وبكمالِ التكليفِ بها ثانيًا.

حاشية ١٢٥ (٣٨)

أ – وأَجْوَدُ من هذا الجوابِ هو أن يُقال: إن كلَّ شيءٍ ناقِصٍ فإنه يَحتَمِلُ التكْميلَ؛ ولا شكَّ في نُقْصانِ التوراةِ لأنها ما جاءَ فيها الصومُ ولا الصلاةُ، ولا بقاءُ النُفوسِ بَعْدَ المَوتِ، ولا البَعْثُ والنُشور ولا المُجازاةُ الأُخْرَوِيَّةُ ولا الجَنَّةُ ولا النار. فالسيّدُ المسيحُ تَمَّمَها بذِكْرِ هَذِهِ الأشياءِ وأَمثالِها. ومِنَ الظاهِرِ أَنَّ ذَلِكَ تَتْميمٌ[1] لا نَقْضٌ[2]. ومن تَوَهَّمَ أنَّ ذلك نَقْضٌ[3] فقد غَلِطَ بِسَبَبِ اخْتِلافِ معاني لَفْظَةِ النَقْض. ومعناها هَهُنا إنّما هو بمَعْنى استِعْمالِها في الجِدار. فإنَّ الجِدارَ إذا لمْ يَبْلُغِ التمامَ، فإنَّ الإنسانَ الذي يَهْدِمُ منه شيئًا لا على سَبيلِ التوطِئَةِ لما يُريدُ بُنْيانَه عليه، يَصْدُقُ عليه أنه قد نَقَضَ الجدار. أمّا إذا بنى الإنسانُ فَوْقَهُ ما يُبَلِّغُهُ الغايَةَ المَقْصُودَةَ من بِنائِه، فلا يَصِحُّ القولُ بأنَّ ذلِكَ البانِيَ قد نَقَضَ الجِدارَ، لكن يَصِحُّ القولُ بأنه تَمَّمه. وبهذا الاعتبارِ قالَ السيِّدُ المَسيحُ: «ما جِئْتُ لأَنْقُضَ التوراةَ ولكن جِئتُ لأُتَمِّمَها».

ب – فإن نازَعَني مُنازِعٌ أو عارَضَني مُعارِضٌ في هذا التفسير، وقال: إنَّ التوراةَ أَمَرَتْ باليمينِ باسم اللهِ تعالى، وأَمَرَتْ بحِفْظِ السَبت، والسيدَ

١) تتميمًا.
٢) نقضًا.
٣) نقضًا.

المَسيحَ نَهى عَنِ اليمينِ مُطْلَقًا، وظَهَرَ عليه حَلُّ السَبت، وهذا نَقْضٌ ظاهِرٌ، فالجَوابُ أَن يُقال: لا نُسَلِّمُ أَنه نَقَضَ التوراةَ بهذا وأَمثالِهِ من سائِرِ أَحْكامِها، لكنَّه تمَّمَها بذلك. ألا تَرى أنَّ التوراةَ قالت: «لا تَحْنَثْ في يمينِك» وأَنْت، بل كلُّ رشيدٍ يَجْزِمُ بأنَّ هذا غيرُ كافٍ في سدِّ بابِ الحَنَثِ في اليمين. وذلك لأنّا إذا فَرَضْنا أن أَحَدَ اليَهودِ حَلَفَ باللهِ تعالى قائلاً: إنَّه لا بُدَّ وأَنْ يَقْتُلَ يَهوديًا آخرَ لِغَرَضٍ له معه، فلا يَخلو من هذا المفروض: إمَّا يُبَرِّئُ القَسَمَ هربًا من مُخالَفَةِ التوراةِ بالحَنَثِ في اليمين، أو يُتَمِّمُ ما نَوى من الغَرَض، وإذ ذاكَ فيكونُ قد خالَفَ التوراةَ بالقَتْل. فعلى التَقْديرَيْن لا يَنْفَكُّ عن مُخالَفَةِ التوراة؛ فيَلْزَمُ أن يكونَ تَجنُّبُ مُخالَفَتِها مُؤَدِّيًا إلى مُخالَفَتِها. فأزالَ السَّيِّدُ المسيحُ هذا المَحذورَ، وتَمَّمَ هذا النُقصانَ بِقَولِهِ: «لا تَحْلِفوا بتة!».

ج – وأمّا فَريضَةُ السَبْتِ فلَمّا كانَتْ مَبْنِيَّةً على وَصْفِ اللهِ تعالى بمَا لا يَجوزُ وصفُه به، وهو قولُ التوراة: «وفي السَبْتِ استراحَ اللهُ من تَعَبِهِ»، فلا شَكَّ أَنَّ التَعَبَ لا يَصْدُقُ إلَّا على جِسْمٍ حَيَوانِيٍّ يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً تفوقُ طاقَتَه. وإلهُ الآلهةِ وَربُّ الأَربابِ مُنَزَّهٌ عن هذا الوَصْف. وفيهِ مع ذَلِكَ تَكْيِيفُ النُفوسِ بالجَهْلِ المُرَكَّبِ الذي لا يُرجى فَلاحُ صاحبِه. وهذانِ المَحْذورانِ نَقْصٌ عظيمٌ تَمَّمَهُ السَيِّدُ المسيحُ بتَنْزيه الله عن هذه الصِّفَةِ وتَطْهيرِ النَفْسِ عن هذا الاعْتِقادِ الفاسدِ، فَحَلَّ السَبْتَ لهذا الغَرَض.

د – ومَعْلُومٌ أَنَّ المُصَنِّفَ نَقَلَ في هذا الكِتابِ عن بَعْضِ فُضَلاءِ اليهودِ في أثناءِ[1] جوابِ الاعتِراضِ الرابعِ ما حِكايَتُه: «فإنها – يَعْني شَريعَةَ التوراة

١) أثنى.

– نَزَلَتْ ، والسيرَةُ المَشْهُورَةُ المألُوفَةُ هي تَقريبُ أنواعِ الحَيَوانِ في هَياكِلِ الصُوَرِ ، والسُجُودُ لها ، والتَبْخيرُ بَيْنَ يَدَيْها . » هذا حِكايَةُ كلامِه ، وهذا يَدُلُّ على تَقْصيرِ شَريعَةِ التوراةِ عن نَقْلِ الناسِ بالكُلِّيَّةِ عَنْ هَذِهِ الفَريضَةِ القَذِرَةِ الخَسِيسَة . وهذا نَقْصٌ تَمَّمَهُ السَّيِّدُ المَسيحُ ، بِنَسْخِ هَذِهِ الفَريضَةِ أَصْلاً ورَأْسًا . وفي الذي ذَكَرْناه هَهُنا كِفايَةٌ للفَطِنِ المُنْصِفِ ، في تَصْديقِ قَولِ السَّيِّدِ المسيحِ مِنْه السَلام.

وأيضًا فالسَيِّدُ المسيحُ لم يَنْقُضْ شيئًا من أحكامِ التوراةِ ، بل عَمِلَ بجَميعِ فَرائضِها إلى آخرِ وَقْتٍ ، كما بيّنّا ، فهو مُتَمِّمٌ لها من هذا الوَجْهِ أيْضا.

حاشية ١٢٦ (٣٩) هذا الكلامُ لَيْسَ بِصَحيح ، وقد ذَكَرْنا جوابَهُ في موضِعِه ، فتَأَمَّلْه من هُناك . وأنا أتَعَجَّبُ من المُصَنِّفِ كيف يَدَّعي هَذِهِ الدَعاوِيَ الفاسِدَةَ من غيرِ استِحْياءٍ ، مع عِلْمِهِ وعِلْمِ كُلِّ يَهُودِيٍ أَنَّ السَّيِّدَ المَسيحَ حَلَّ السَبت . ولأَجْلِ ذَلِكَ شَنَّعَ اليَهودُ عليه في أكثرِ الأمْر.

ولقائلٍ أن يقول

إنّا لا نُسَلِّمُ أنَّه وُعِدَ في التَوراةِ بمجيءِ المَسيحِ . فإن قالوا إنَّ يعقوبَ لما جَمَعَ أولادَهُ وأخْبَرَهُم بمَا يكونُ مِنْهم في آخرِ الزمان ، فلمّا بَلَغَ إلى يَهوذا قال ، في جُمْلَةِ قَوْلِهِ لَه ، – لا يزولُ القَضيبُ من يَهوذا أو الراسِمُ من بَيْنِ أقدامِهِ إلى أن يجيءَ الذي له الامرُ وله تَجْتَمِعُ الشُعوب – ؛ والمُرادُ بالقَضيبِ قَضِيبُ المُلْكِ وبالراسِمِ النَّبِي ؛ ومَعْلُومٌ أنه لما ظَهَرَ المَسيحُ بَطُلَ المُلكُ مِنْهُمْ وانْقَطَعَتِ النُّبُوَّةُ عَنهم ، وجاءَ في موضِعٍ آخرَ من التوراةِ أنَّ – نَبِيًّا أُقِيمُ لَهُم من وَسْطِ إخْوَتِهِم مِثْلَكَ ، به فلْيُؤْمِنوا ، – والضميرُ في – لهم – عائدٌ إلى بني إسرائيلَ وفي – مِثْلَكَ –

إلى موسى عم ؛ وهَذِهِ إشارةٌ إلى السَّيِّدِ المَسيح ، فإنْ بذَلِكَ فَسَّرَهُ شِمْعُونَ الصَفا ،

قُلتُ

المُلْكُ زالَ من آلِ يهوذا قَبْلَ إيشوعَ المَسيحِ بزيادةٍ على أربعمائةِ سَنَة ، والمُلوكُ في البيتِ الثاني كانوا من بني حَشْموناي وهم هارونيّونَ من سِبْطِ لَوي . وكان المُلْكُ من بَعْدِهِم في هيرودُوسَ ، وبَعْدَهُ في أولادِه ، وما كانَ أيضًا من سِبْطِ يَهوذا . وليسَ لهم أنْ يَقولُوا إنَّ يعقوبَ كَنى بيهوذا عن اليهودِ بأَسْرِهِمْ تَسْمِيَةً لِكُلِّ الشيءِ بأشْرَفِ ما فيه لأنه يُقالُ لهم إن هذا غيرُ مُحْتَمَل . فإنَّ يَعْقُوبَ خَصَّ كُلَّ واحِدٍ من أولادِه بمَا يكونُ منه ، وخَصَّ يهوذا بهذا القول ، فلا يكونُ اسمُه عبارةً عن الجُمْلَة . ثم قَوْلُكُم إن القَضيبَ هو قَضيبُ المُلْكِ والراسِمَ هو النبيُّ غيرُ مُتَيَقَّن . والنُبُوَّةُ انقَطَعَتْ قَبْلَ ظُهورِ المسيحِ بِمَا يزيدُ على ثلاثمائةِ سَنَة . واللفظةُ المُسْتَعْمَلَةُ في اللُغَةِ العِبْرانِيَّةِ بمعنى القَضيبِ تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنى السِبْطِ أيضا . فقد يَمْنَعُ المانِعُ أنها استُعْمِلَتْ للقَضيب ، أو أَنَّ المُرادَ بالقَضيب ، إن استُعْمِلَتْ له ، قضيبُ المُلْك .

وكلُّ ما استَشْهَدوا به من كُتُبِ الأنبياء ، اذا حُقِّقَ الحالُ عليهم فيه ، لم يكن لهم مِنه حُجَّة .

حاشية ١٢٧ (٤٠) هَذا الكلامُ دَعْوَى من غيرِ دليل . وظاهِرُ الحالِ أنَّ المُصَنِّفَ ذَكَرَ ذَلِكَ تَعَصُّبًا على النَصارى كما جَرَتْ عادتُه في هذا الكِتاب . ولم يَقْنَعْ بمَا سَلَفَ منه حتى زادَ عليه في أثناءِ[1] الجوابِ عن المطاعِنِ عليهم مطاعِنَ أُخَرَ مِثْلَ الذي

١) أثنى .

هَهُنا. ولو عَلِمَ أنَّ كَلامَ الأنبياءِ ما للنَّصارى منه حُجَّة، لكانَ قَدْ ذَكَرَ وَجْهَ ذَلِكَ، ولو في نَقْلٍ واحِدٍ من النُقول التي يَحتَجُّونَ بِها، لأنه أَحْرَصُ اليهودِ على مُعاداةِ النَصارى وعلى الطَعْنِ في دِينِهم وعلى تَضْييعِ حُقوقِهم.

وإذا استُقْصِيَ جَميعُهُ طالَ الكلام. ولكنَّ هذا كالأُنموذَج منه. فإنّه من أقوى ما يُعَوِّلونَ عليه. والأَظْهَرُ أنَّ المُرادَ به البِشارَةُ بداود عَم بِمَعْنى أنَّه لا يَزُولُ السِبْطُ من يهوذا ولا الرِئاسَةُ من بين ظَهْرانِيهم إلى أن تبلُغَ رِئاستُهُم في الزيادة إلى أن يَمْلِكَ داودُ ويَتَّفِقَ على تمليكِه جميعُ شُعوبِ إسْرائيل.

حاشية ١٢٨ (٤١)

ليسَ في تَحكُّماتِ المُصَنِّفِ المَذْكورةِ في هذا الكتابِ أَبْرَدُ من هذا التَحكُّم، ولا في تَعَسُّفاتِهِ أَظْهَرُ من هذا التَعَسُّف. ألا ترى أنَّ داوودَ النبيَّ عليه السلامُ مَسَحَهُ شَمويلُ النَبيُّ مَلِكًا في السِرّ، ولم يَعْلَمِ اليَهودُ ذلك الّا بعدَ حِين. ومَكَثَ بَعْدَ ذَلِكَ سنواتٍ هاربًا من شاوولَ مَلِكِ الزَمان الذي وَقَعَتْ فيه هَذِهِ الواقِعَة. وفي هذا كِفايَةٌ في ردِّ كلامِ المُصَنِّف. ومِمّا يُؤَكِّدُ الرَدَّ عليه قولُه «جَميعُ شُعوبِ إسرائيل»؛ وذَلِكَ لأنَّ إسرائيلَ شَعْبٌ واحِدٌ لا شُعوبٌ عِدَّة، كما قد نَطَقَتْ بِهِ التَوراةُ مِرارًا، تارةً حِكايَةً عن الله، وتارةً عن موسى، وتارةً عن غيرِ ذَلِك. وأَيْضًا كُتُبُ الأنبياءِ ما يَحْضُرُني كم مرةً قد نَطَقَتْ بلَفْظَةِ الشَعْبِ على سبيلِ الإفْرادِ دونَ التَثْنِيَةِ والجَمْع. وقد مَضى في الحواشي السالِفَةِ عن الأنبياءِ كثيرٌ من تَسْمِيَةِ بني إسْرائيلَ بالشَعْب لا بالشُعوب.

وقولُ شِمعونَ – إن النبيَّ الذي وُصّي بنو اسرائيلَ بِقَبولِ أمرِه والايمانِ به هو المسيح – فَغَيْرُ مُسَلَّم، بل هو إشارةٌ إلى كلِّ نبيٍّ يأتي على دينِ موسى. وسياقَةُ الكلامِ المُنْزَلِ في هذا المَعْنى لا تَقْتَضي

التَخْصيصَ بِنَبِيٍّ دونَ غيرِه. وبتقديرِ أن تَقْتَضِيَ ذلك، فنَمْنَعُ أنَّ المَقْصودَ بالتَخْصيصِ هو المسيح.

ولهم أن يقولوا

تَفْسيرُ شِمْعونَ عِندنا حُجَّةٌ قاطِعَةٌ فنَحنُ عليها عَوَّلْنا، لا على مَفْهومِ اللَفظِ هذا.

وأَمّا قولُ السَيِّدَةِ مَريمَ عن السَيِّدِ المسيح إنه ابنُ يوسُفَ وتَسْمِيَةُ غيرِها له بابنِ يوسُفَ فهو مَقولٌ على مُقْتَضى الشُهْرَةِ في ذَلِكَ الزمان، لا على الحَقيقة. وقد قِيلَ إنَّ الحوارِيينَ لم يَعْرِفوا حَقيقَةَ السَيِّدِ المسيح، ولا عَرَفوا كثيرًا من أَحواله، إلا عِنْدَ حُلولِ رُوحِ القُدُسِ عليهم وذلكَ بعد قيامِهِ من القبرِ وبَعْدَ صُعودِهِ إلى السماء.

وأمّا اخْتلافُ النَسَبِ في الانجيلَين فقد تَأَوَّلَه شارِحُو الأَناجيلِ وتَأَوَّلوا أيضًا كُلَّ اختلافٍ فيها ممّا يَظْهَرُ منه انه لا مُنافاةَ بينها. وتلكَ التأويلاتُ، وإن كانَتْ مِمَّا تَسْتَبْعِدُها عقولُ بَعْضِ الناس فهيَ غيرُ مُمْتَنِعَة.

وأمّا العلاماتُ التي جاءَتْ لظهورِ المسيحِ في كُتُبِ الأنبياء، ولم تَظْهَرْ في زمانِ إيشوعَ، فقَدْ تَأَوَّلَها أيضًا عُلَماءُ النَصارى بما هو مُحْتَمَل، وإن كانَ احتمالاً بعيدا. ولا حاجةَ إلى تَفْصيلِ تِلْكَ التأويلات. وقد عارَضُوها أيضًا بأقاويلَ كثيرةٍ من الأنبياء، تأوَّلُوها بما يَدُلُّ على أنَّ السَيِّدَ إيشوعَ المسيحَ هو الموعودُ به في كُتُبِ النُبوات. ولكِنَّ تفاسيرَ اليهودِ لها تَصْرِفُها عن ذلك. وكثيرٌ من كلامِ النُبوّاتِ قد حَرَّفَهُ النَصارى عِنْدَما نَقَلوه من العِبرانيةِ إلى اليُونانِيَّةِ والسُّرْيانِيَّة، ثم إلى العَرَبِيَّة، تحريفًا يَتَفاوَتُ فيه المَعنى تفاوُتًا كثيرًا، ولكِنْ في ألفاظٍ قلائِلَ فقط.

والنَصارى يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ التَفاوتِ أو بِبَعْضِهِ. ويُحتَمَلُ أن يكونَ ذَلِكَ التَحْريفُ عن قَصْدٍ أو إِهْمَالٍ وقِلَّةِ مَعْرِفَةٍ باللُغَةِ المنقولِ منها.

حاشية ١٢٩ (٤٢) قد اشْتُهِرَ أن التَّوراةَ وسائِرَ كُتُبِ الأنبياءِ نُقِلَتْ إلى اللُّغَةِ اليُونانِيَّةِ قَبْلَ ظُهُورِ دينِ النَصرانِيَّةِ بزمانٍ طويل. وحِكايَةُ السَبْتِ في ذَلِكَ طَويلَة. وكانَ الذينَ نَقَلوها سبعينَ شَيْخًا من عُلَماءِ اليهود. فكيف يَصْدُقُ قولُ المُصَنِّفِ إِنَّ النَصارى حَرَّفوا شيئًا من ذلك.

وما اسْتَشْهَدْتُ به

من جانِبِهِم من كُتُبِ النُبوّات فإِنَّما ذَكَرْتُه على الوجهِ الذي نَقَلَهُ النَصارى، لا على ما هو عِنْدَ اليَهودِ بِاللُّغَةِ العبرانِيَّة.

حاشية ١٣٠ (٤٣) المَعْهُودُ من المُصَنِّفِ أنه يَكيلُ على النَّصارى بغايَةِ جَهْدِهِ. ومن يكونُ هذا دَأْبَه يُسْتَبْعَدُ منه أن يَظْفَرَ بحُجَّةٍ عليهم فلم يَذْكُرْها. فلو كان نَقْلُ النَصارى مُحَرَّفًا، لكانَ قد قال: إن النَقْلَ هو كذا وكذا، وحينَئِذٍ كانَتِ الحُجَّةُ له عليهم، لو كانَ صادِقًا في هذا الكلام.

وأمَّا قولُهم إن النقلَ لمُعْجِزاتِ المسيحِ وأحوالِهِ غيرُ مُتواتِرٍ، ولا موثوقٌ إليه، لِكَونِ رُواتِهِ آحادًا، فلَهُم أن يقولوا عليه إن أولائِكَ الآحادَ قد قِيلَ إِنَّهُم فعَلوا من المُعْجِزاتِ أَكْثَرَ مِمّا فَعَلَهُ المَسيح، والناقِلونَ عَنهم ذَلِكَ فَخَلْقٌ كَثيرٌ لا يُرتابُ بِنَقْلِهِم، ومُعْجِزاتُهم دالَّةٌ على صِحَّةِ مُعْجِزاتِ المسيح، بل هي على الحَقيقَةِ مُعْجِزاتٌ له بالذاتِ وهم بالعَرَض، فنِسْبَتُها إليه أَولى من نِسْبَتِها إليهم. فثَبَتَ أنَّ كُلَّ ما نَقَلوا عنه من المُعْجِزاتِ وغيرِها صَحيح، وبه يَظْهَرُ أنَّ صِحَّةَ شَريعَتِهِم لا تُنْسَخ.

والحقُّ

ان ما نُقِلَ عن أَصحابِ السَّيِّدِ المَسيحِ من المُعْجِزاتِ لا نُسَلِّمُ أنه على وَجْهِ التَواتُرِ الذي هو مُوجِبٌ لليَقين، كَتَواتُرِ وُجودِهِم ووُجودِ المسيح وَصَلْبِهِ، بل هو من قَبيلِ ما يَنْتَشِرُ فيَشْتَهِرُ فيَشْتَبِهُ بالمُتواتِراتِ ولا يكونُ مُتَواتِرًا على الحَقيقَة.

حاشية ١٣١ (٤٤) ما دَليلُكَ على أنه من هذا القَبيل، وما وَجْهُ كَونِ صَلْبِهِ راجِحًا، عندك، على وُجودِهِ، مع أَنَّ صَلْبَه لا يَعْتَقِدُهُ اليَهودُ، وَوُجودُه هو مُتواتِرٌ عِندَهم؛ وإِنَّما قُلْتَ ذَلِكَ لِمَا وَقَفْتَ عليه من القِصَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لِذِكْرِ السَّيِّدِ المسيح، وكَيْفِيَّةِ مُعْجِزاتِهِ وكَيْفِيَّةِ قَتْلِه. وهذا من جُمْلَةِ الدَلائلِ على تَعَصُّبِ المُصَنِّفِ على النَصارى.

وأَمَّا كونُ مُعْجِزاتِهِ لا يَمْنَعُ العَقْلُ أَنَّها واقِعَةٌ بالحِيَلِ وبالمُواطَأَةِ عليها، فهم يَدَّعونَ تَحَقُّقَهُم أَن ذَلِكَ التَحَيُّلَ وتِلْكَ المُواطأَةَ مما لم يَكُنْ ولم يَقَعْ، بل وأنّه غَيرُ مُحْتَمَلِ الوُقوع، وأنْ لا فَرْقَ في عَدَمِ احْتِمالِ الحِيلَةِ بينها وبين مُعْجِزاتِ مُوسى عم، كانشِقاقِ البحر، وما يَجْري مَجراه. فإنَّ مَن احياهُ وأَبْرَأَهُ لم يَقَعْ شكٌّ في موتِهِ ومَرَضِهِ. ولهم أن يَسْتَدِلُّوا على صِحَّةِ ذَلِكَ بأنه، لوكانَ مشكوكًا فيه، لاشْتُهِرَ بين أَعدائِهِ من اليَهودِ أو غَيْرِهِم في زمانِهِ. ولو اشْتُهِرَ في ذَلِكَ الزمانِ لنُقِل. وحَيْثُ لم يُنْقَل، بل نَسَبَهُ بَعْضُهُم إلى السِحْرِ، أو إِعانَةِ الشَيْطانِ عليه، أو إلى تَعَلُّمِ الاَسْمِ الأَعْظَم، عُلِمَ أَنَّهُمْ قد كانوا مُتَيَقِّنينَ عَدَمَ الحِيَلِ والتَواطُؤِ عليه. وهَذا إِقناعيٌّ غيرُ مُفيدٍ لليقين.

حاشية ١٣٢ (٤٥) ما الدَليلُ على أنه إقناعيّ، ولأي سَبَبٍ لا يُفيدُ اليَقين. ومن أيّ جِهَةٍ يَتَطَرَّقُ إليه الشَّكُّ، أو يَتَوَجَّهُ عليه الطَعْن. فلو كُنْتَ صادِقًا في دَعْواكَ هذِهِ، لَذَكَرْتَ شَيئًا من ذلك.

بل عَسى أن يُفيدَ ظَنًّا غالبًا، بعد تَسْليمِ تَواتُرِ نَقْلِهِم. لكنه، إذا عُضِدَ بالنَظَرِ في جُمْلَةِ أحوالِ السيِّدِ المسيح وأحوالِ أصحابِهِ في زُهْدِهِم وَوَرَعِهِم وتَحَمُّلِهِم المَشاقَّ العَظيمَةَ في إقامَةِ هَذِهِ الدَعْوةِ وانتِظامِ أمورِ هذا الدينِ إلى هَذِهِ الغايَة، عُلِمَ من جُمْلَةِ هذهِ القَرائِنِ أن أَمْرَهُم مَربوطٌ بتأْييدٍ إلاهيّ وعِنايَةٍ رَبّانِيَّة.

وأمّا سائرُ ما ذُكِرَ من كلامِ المُخالِفينَ فبَعْضُهُ مُجَرَّدُ تَشنيعٍ واستِبْعاد، وبَعْضُه لا يَخْفى على المُحَصِّلِ وَجْهُ دَفْعِهِ، ولو بتَكَلُّف.

وأكثرُ هذه الأَجْوِبَةِ لم أجِدْها في كلامِ النَصارى ولكني أجَبْتُ بها نِيابَةً عنهم وتَتْميمًا للنَظَرِ في مُعْتَقَدِهِم.

حاشية ١٣٣ (٤٦) هذا الكلامُ يَدُلُّ على أنَّ المُصَنِّفَ، رَحِمَهُ اللهُ، قد استَدْرَكَ به ما كانَ أَسْلَفَهُ من الكلامِ الباطِلِ في حَقِّ النَصارى. لأَنَّهُ لو لم يَتَيَقَّنْ وُقوعَ التَعَصُّبِ عَليهم لمَا كانَ قدْ انْتَصَرَ لَهُم بذِكْرِ بَعْضِ الأَجْوِبَةِ نِيابَةً عَنْهم. فإذَنْ يَجِبُ علينا نَحْنُ مَعْشَرَ النَصارى أن نَسْأَلَ اللهَ تَعالى في غُفْرانِ ما بَدا مِن هَذا الرَجُلِ في حَقِّنا بمَا أَكالَ عَلينا وغالَطَنا في كتابِه هذا. وهَذِهِ آخِرُ الحَواشي التي قَصَدْتُ كِتابَتَها في أثناءِ هذا الكتاب. والحَمْدُ الدائِمُ لِرَبِّ الأَرْباب، وَمُسَبِّبِ الأَسْبابِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عن قَوْلِ المُلْحِدِ الكَذّاب.

القِسْمُ الرّابِع

فَهارِسُ الحَواشي

PATRIMOINE ARABE CHRETIEN

Textes et Etudes de Littérature Arabe Chrétienne Ancienne
sous la direction de Mgr **Néophitos Edelby**
avec la collaboration du P. Kh. Samir, S.J.

6

HAWĀŠI (NOTES) D'IBN AL- MAḤRŪMA SUR LE «TANQIḤ» D'IBN KAMMŪNA

Etude et Edition critique
par
Mgr HABIB BACHA

Distribution:

Librairie Saint-Paul
Jounieh, B.P. 125
LIBAN

Patrimoine Arabe Chrétien
couvent St. Michel
Zouk Mikhaël B. P. 44
LIBAN

Pontificio Istituto Orientale
Piazza Santa Maria Maggiore, 7
00185 Roma - ITALIA

1984